العلامة الكبير الفيض الكاشاني

العلم

التفكر

العلم

العقائد

شبكة الفكر
alfeker.net

العلم .....

بسم الله الرحمن الرحيم

العلم .....

التفكر ـ العلم ـ العقائد

العلامة الكبير الفيض الكاشاني

منشورات ذوي القربىٰ

اسم الكتاب :	العلم....
المؤلف :	فيض كاشانى
الناشر :	ذوي القربى
الطبعة :	الأولىٰ
تاريخ الطبع :	١٤٢٦
الكمية :	١٥٠٠
المطبعة :	ظهور
شماره مجوز كتاب :	ف / ٢٦ / ١٧٧١٨ ـ ٨ / ١١ / ٨٤
شابك :	٥ ـ ٠٤٦ ـ ٥١٨ ـ ٩٦٤

مركز پخش : قم ـ پاساژ قدس ـ طبقه اول ـ پ ٥٩ ـ تلفن: ٧٧٤٤٦٦٣ ـ ٢٥١ ـ ٩٨+

عراق ـ نجف الأشرف ـ سوق الحويش ـ همراه: ٠٧٨٠١٠٠٣٥٧٢

العلم

فضيلة العلم في القرآن الكريم

من الشواهد على فضيلة العلم في القرآن الكريم قوله تعالى:

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ﴾(١).

فانظر كيف بدأ بنفسه تعالى وثنّى بملائكته، وثلّث بأهل العلم، وناهيك بهذا شرفاً وفضلاً وجلالاً ونبلاً.

قال الله عز وجل:

﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ﴾(٢).

وقال عز وجل:

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ﴾(٣).

وقال:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ﴾(٤).

---

(١) آل عمران: ١٨.
(٢) المجادلة: ١١.
(٣) الزمر: ٩.
(٤) فاطر: ٢٨.

وقال تعالى:

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾[1].

وقال عز وجل:

﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ﴾[2].

وهو تنبيه على انه اقتدر على الإتيان به بقوّة العلم.

وقال تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾[3].

فبيّن تعالى أن عظم قدر الآخرة يعلم بالعلم.

وقال عز وجل:

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾[4].

وقال عز من قائل:

﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾[5].

فردّ الله تعالى حكمه في الوقائع إلى استنباط أولي الأمر وألحق رتبتهم برتبة الأنبياء في كشف حكم الله.

---

(١) الرعد: ٤٣.

(٢) النمل: ٤٠.

(٣) القصص: ٨٠.

(٤) العنكبوت: ٤٣.

(٥) النساء: ٨٣.

وقال تعالى:

﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾[1].

وقال:

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ﴾[2].

وقال عز وجل:

﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾[3].

وقال تعالى:

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾[4] وإنما ذكر تعالى ذلك في معرض الإمتنان.

وقال عز وجل:

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[5].

وقال تعالى:

﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[6].

وقال تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾[7].

---

(1) الأعراف: ٥٢.

(2) الأعراف: ٧.

(3) العنكبوت: ٤٩.

(4) الرحمن: ٣ ـ ٤.

(5) التوبة: ١٢٢.

(6) النحل: ٤٣.

(7) آل عمران: ١٨٧.

وقوله تعالى هنا يدل على وجوب التعليم.

وقال تعالى:

﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(١).

وقوله تعالى هنا يدل على تحريم الكتمان، كما قال تعالى في الشهادة:

﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾(٢).

وقد قال النبي ﷺ:

«ما آتى الله سبحانه عالماً علماً إلا أخذ عليه من الميثاق ما أخذ على النبيين أن يبيّنه للناس ولا يكتمه»(٣).

وقال عز وجل:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾(٤).

وقال:

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾(٥).

وقال تعالى:

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾(٦).

---

(١) البقرة: ١٤٦.
(٢) البقرة: ٢٨٣.
(٣) أخرجه أبو نعيم في فضل العالم العفيف..
(٤) فصّلت: ٣٣.
(٥) النحل: ١٢٥.
(٦) الجمعة: ٢.

فضيلة العلم في الروايات الشريفة

قال رسول الله ﷺ:

«من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ويلهمه رشده»[1].

وقال ﷺ:

«العلماء ورثة الأنبياء»[2].

وقال ﷺ:

«أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم والجهاد، أما أهل العلم فدلوا الناس على ما جاءت به الرسل، وأما أهل الجهاد فجاهدوا بأسيافهم على ما جاءت به الرسل»[3].

وقال ﷺ:

«يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدماء الشهداء»[4].

وقال النبي ﷺ:

«صنفان من أمتي إذا صلحوا صلح الناس وإذا فسدوا

---

(١) مجمع الزوائد: ج ١، ص ١٢١.
(٢) الكافي: ج ١، ص ٣٣.
(٣) أخرجه أبو نعيم: في فضل العالم العفيف.
(٤) بحار الأنوار: ج ٢، ص ١٤.

فسد الناس: الأمراء والفقهاء»[1].

وقال ﷺ:

«إذا أتى عليّ يوم لا أزداد فيه علماً يقربني إلى الله تعالى، فلا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم»[2].

وقال ﷺ:

«ما عُبد الله بشيء أفضل من فقه في دين، ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد، ولكل شيء عماد وعماد هذا الدين الفقه»[3].

وقال ﷺ:

«خير دينكم أيسره، وأفضل العبادة الفقه»[4].

وقال ﷺ:

«من جاءه الموت وهو يطلب العلم ليحيى به الإسلام كان بينه وبين الأنبياء درجة واحدة في الجنة»[5].

وقال ﷺ:

«فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم، إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرض؛ حتى النملة في جحرها وحتى الحوت في الماء، ليصلّون على معلم الناس الخير»[6].

---

(١) روضة الواعظين: ص ٩.
(٢) مجمع الزوائد: ج ١، ص ١٣٦.
(٣) مجمع الزوائد: ج ١، ص ١٢١.
(٤) رواه الطبراني.
(٥) أخرجه الدارمي في سننه: ج ١، ص ١٠٠.
(٦) الدر المنثور: ج ٦، ص ٢٥٠.

وقال النبي ﷺ:

«من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع»[1].

وقال ﷺ لعلي عليه السلام:

«لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من أن يكون لك حمر النعم»[2].

وقال ﷺ:

«رحم الله خلفائي، قيل: ومن خلفاؤك يا رسول الله؟ قال: الذين يحيون سنتي ويعلّمونها عباد الله»[3].

وقال ﷺ:

«إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»[4].

وقال ﷺ:

«إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضًى بما يصنع»[5].

وقال ﷺ:

«يستغفر للعالم ما في السماوات والأرض»[6].

---

(١) مشكاة المصابيح: ج ١، ص ٣٤.
(٢) صحيح مسلم: ج ٧، ص ١٢٢.
(٣) بحار الأنوار: ج ٢، ص ١٤٤.
(٤) أخرجه البغوي في المصابيح: ج ١، ص ٢٠.
(٥) رواه الدارمي في سننه: ج ١، ص ٩٧.
(٦) الكافي: ج ١، ص ٣٤.

وقال ﷺ:

«اطلبوا العلم ولو في الصين»[1].

وقال ﷺ:

«من غدا في طلب العلم، أظلّت عليه الملائكة، وبورك في معيشته ولم ينقص من رزقه»[2].

وقال ﷺ:

«من سلك طريقاً يلتمس به علماً سهّل الله تعالى له طريقاً إلى الجنة»[3].

وقال ﷺ:

«إن مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم في السماء يُهتدى بها في ظلمات البرّ والبحر، فإذا طمست أوشك أن تضلّ الهداة»[4].

وقال ﷺ:

«يقول الله عز وجل للعلماء يوم القيامة: إني لم أجعل علمي وحكمي فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان منكم ولا أبالي»[5].

وقال ﷺ:

«ما أهدى المرء المسلم إلى أخيه هدية أفضل من كلمة

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير.

(٢) أخرجه ابن عبد البر في العلم.

(٣) مسند أحمد: رقم ٧٤٢١.

(٤) روضة الواعظين: ص ١٥.

(٥) الدر المنثور: ج ١، ص ٣٥٠.

حكمة يزيده الله بها هدى ويردّه من ردى»[1].

وقال ﷺ:

«من أفضل الصدقة أن يعلم المرء علماً ثم يعلّمه أخاه»[2].

وقال ﷺ:

«العالم والمتعلم شريكان في الأجر ولا خير في سائر الناس»[3].

وقال ﷺ:

«أغد عالماً أو متعلماً أو مستمعاً أو محبّاً ولا تكن الخامس فتهلك»[4].

وقال ﷺ:

«إذا مررتم في رياض الجنة فارتعوا، قالوا: يا رسول الله وما رياض الجنة؟ قال ﷺ: حلق الذكر، فإن لله تعالى سيارات من الملائكة يطلبون حلق الذكر فإذا أتوا عليهم حفوا بهم»[5].

خرج رسول الله ﷺ فإذا في المسجد مجلسان مجلس يتفقهون ومجلس يدعون الله تعالى ويسألونه فقال ﷺ:

«كلا المجلسين إلى خير، أما هؤلاء فيدعون الله تعالى

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان.
(٢) أخرجه ابن ماجة في سننه تحت رقم: ٢٤٣.
(٣) أخرجه ابن عبد البر في العلم.
(٤) بحار الأنوار: ج ١، ص ١٩٥.
(٥) رواه الصدوق في المعاني: ص ٣٢١.

وأما هؤلاء فيتعلمون ويفقّهون الجاهل، هؤلاء أفضل، للتعليم أرسلت ثم قعد معهم»[1].

وعن علي بن موسى الرضا عن آبائه عن النبي ﷺ أنه قال:

«طلب العلم فريضة على كل مسلم، فاطلبوا العلم في مظانّه، واقتبسوه من أهله، فإن تعلّمه لله حسنة، وطلبه عبادة، والمذاكرة به تسبيح، والعمل به جهاد، وتعليمه من لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة إلى الله تعالى لأنه معالم الحلال والحرام، ومنار سبيل الجنة، والمونس في الوحشة، والصاحب في الغربة والوحدة، والزّين عند الأخلاّء، يرفع الله تعالى به أقواماً فيجعلهم في الخير قادة، تقتصّ آثارهم، ويقتدى بفعالهم، وينتهى إلى آرائهم، ترغب الملائكة في خلّتهم، وبأجنحتها تمسحهم، وفي صلواتها تبارك عليهم، ويستغفر لهم كل رطب ويابس حتى حيتان البحر وهوامّه، وسباع البرّ وأنعامه.

إن العلم حياة القلوب من الجهل، وضياء الأبصار من الظلمة، وقوّة الأبدان من الضعف، يبلغ بالعبد منازل الأخيار، ومجالس الأبرار، والدرجات العلى في الآخرة والأولى. الذكر فيه يعدل بالصيام ومدارسته بالقيام، به يطاع الرب ويعبد، وبه توصل الأرحام ويعرف الحلال والحرام.

العلم إمام والعمل تابعه، يلهمه السعداء، ويحرمه

(١) أخرجه ابن عبد البر في العلم.

الأشقياء، فطوبى لمن لم يحرمه الله تعالى من حظّه»[1].

وعن أمير المؤمنين ومولى الموحدين علي عليه السلام قال:

«أيها الناس اعلموا أن كمال الدين طلب العلم والعمل به. ألا وإن طلب العلم أوجب عليكم من طلب المال. إن المال مقسوم مضمون لكم قد قسّمه عادل بينكم وقد ضمنه، وسيفي لكم. والعلم مخزون عند أهله وقد أمرتم بطلبه من أهله فاطلبوه»[2].

وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام أيضاً قال:

«إذا مات العالم ثلم في الإسلام ثلمة لا يسدّها إلا خلف منه»[3].

وعن علي عليه السلام أنه قال لكميل بن زياد:

«يا كميل العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والعلم حاكم والمال محكوم عليه، والمال ينقصه النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق»[4].

وعن علي عليه السلام أيضاً أنه قال:

«العلم أفضل من المال بسبعة: الأول: إنه ميراث الأنبياء والمال ميراث الفراعنة. الثاني: إن العلم لا ينقص بالنفقة والمال ينقص بها. الثالث: يحتاج المال إلى الحافظ والعلم يحفظ صاحبه. الرابع: العلم

---

(١) بحار الأنوار: ج ١، ص ١٦٦.
(٢) الكافي: ج ١، ص ٣٠.
(٣) روى الصفار نحوه في البصائر.
(٤) رواه الصدوق في الخصال: ج ١، ص ٨٧.

يدخل في الكفن ويبقى المال. الخامس: المال يحصل للمؤمن والكافر والعلم لا يحصل إلا للمؤمن خاصة. السادس: جميع الناس يحتاجون إلى صاحب العلم في أمور دينهم ولا يحتاجون إلى صاحب المال. السابع: العلم يقوّي الرجل على المرور على الصراط والمال يمنعه»[١].

وعن الإمام علي عليه السلام أيضاً أنه قال:

«قيمة كل امرء ما يعلمه»[٢].

وعن الإمام زين العابدين عليه السلام أنه قال:

«لو يعلم الناس ما في طلب العلم لطلبوه ولو بسفك المهج وخوض اللجج[٣]، إن الله تعالى أوحى إلى دانيال: إنّ أمقت عبادي إليّ الجاهل المستخف بحق أهل العلم، التارك للاقتداء بهم، وإن أحب عبادي عندي التقي الطالب للثواب الجزيل، اللازم للعلماء، التابع للحلماء، القائل عن الحكماء»[٤].

وعن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال:

«من علّم باب هدى فله مثل أجر من عمل به ولا ينقص أولئك من أجورهم شيئاً، ومن علّم باب ضلالة كان عليه مثل أوزار من عمل به، ولا ينقص أولئك

---

(١) منية المريد.

(٢) نهج البلاغة: أبواب الحكم، رقم ٨١.

(٣) المهج: جمع مهجة أي الدم أو دم القلب خاصة. أي بما يتضمن إراقة دمائهم. واللجج: جمع لجة: وهي معظم الماء.

(٤) الكافي: ج ١، ص ٣٥.

من أوزارهم شيئاً»[1].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«عليكم بالتفقّه في دين الله تعالى، ولا تكونوا أعراباً فإنه من لم يتفقّه في دين الله تعالى لم ينظر الله تعالى إليه يوم القيامة، ولم يزكّ له عملاً»[2].

وعنه عليه السلام أيضاً أنه قال:

«لوددت أن أصحابي ضربت رؤوسهم بالسياط حتى يتفقهوا»[3].

وعنه عليه السلام أيضاً:

«إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا درهماً ولا ديناراً وإنما ورّثوا أحاديث من أحاديثهم، فمن أخذ بشيء منها فقد أخذ حظاً وافراً، فانظروا علمكم هذا عمن تأخذونه، فإنّه فينا أهل البيت في كل خلف عدولاً ينفون عنه تحريف المغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين»[4].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«ما من أحد يموت من المؤمنين أحب إلى إبليس ـ لعنه الله ـ من موت فقيه»[5].

---

(١) الكافي: ج ١، ص ٣٥.
(٢) الكافي: ج ١، ص ٣١.
(٣) الكافي: ج ١، ص ٣١.
(٤) الكافي: ج ١، ص ٣٢.
(٥) الكافي: ج ١، ص ٣٢.

وعن الإمام الكاظم عليه السلام قال:

«إذا مات المؤمن بكت عليه الملائكة وبقاع الأرض التي كان يعبد الله تعالى عليها وأبواب السماء التي كان يصعد منها أعماله، وثلم في الإسلام ثلمة لا يسدّها شيء، لأن المؤمنين الفقهاء حصون الإسلام كحصن سور المدينة لها»(١).

وعن الإمام الكاظم عليه السلام أيضاً أنه قال:

«دخل رسول الله صلى الله عليه وآله المسجد فإذا جماعة قد أطافوا برجل، فقال: من هذا؟ فقيل: علاّمة. فقال: وما العلاّمة؟ فقالوا: أعلم الناس بأنساب العرب ووقائعها وأيام الجاهلية والأشعار العربية. فقال النبي صلى الله عليه وآله: ذلك علم لا يضرّ من جهله ولا ينفع من علمه. ثم قال النبي صلى الله عليه وآله: إنما العلم ثلاثة آية محكمة أو فريضة عادلة، أو سنة قائمة، ما خلاهنّ فهو فضل»(٢).

عن الإمام العسكري عليه السلام أنه قال:

«أشد من يُتم هذا اليتيم يتيم انقطع عن إمامه لا يقدر على الوصول إليه ولا يدري كيف حكمه فيما يبتلى به من شرائع دينه، ألا فمن كان من شيعتنا عالماً بعلومنا؛ وهذا الجاهل بشريعتنا المنقطع عن مشاهدتنا يتيم في حجره، ألا فمن هداه وأرشده وعلّمه شريعتنا كان معنا في الرفيق الأعلى»(٣).

---

(١) الكافي: ج ١، ص ٣٨.

(٢) الكافي: ج ١، ص ٣٨.

(٣) الكافي: ج ١، ص ٣٢.

قال الإمام الحسين عليه السلام:

«من كفل لنا يتيماً قطعته عنا محنتنا بإستتارنا؛ فواساه من علومنا التي سقطت إليه متى أرشده بهداه، قال الله عز وجل [له]: يا أيها العبد الكريم المواسي، إني أولى بهذا الكرم منك، اجعلوا له يا ملائكتي في الجنان بعدد كل حرف علّمه إياه ألف ألف قصر، وضمّوا إليها ما يليق بها من سائر النعم»(١).

وقال الإمام جعفر بن محمد عليه السلام:

«علماء شيعتنا مرابطون بالثغر الذي يلي ابليس وعفاريته يمنعونهم عن الخروج على ضعفاء شيعتنا وعن أن يتسلّط عليهم ابليس وشيعته النواصب، ألا فمن انتصب لذلك من شيعتنا كان أفضل ممن جاهد الروم والترك والخزر، ألف ألف مرّة، لأنه يدفع عن أديان محبّينا وذلك يدفع عن أبدانهم»(٢).

وعن الإمام علي بن محمد عليه السلام قال:

«لولا من يبقى بعد غيبة قائمنا من العلماء الداعين إليه، والدالين عليه، والذابين عن دينه بحجج الله تعالى، والمنقذين لضعفاء عباد الله من شباك ابليس ـ لعنه الله ـ ومردته، ومن فخاخ النواصب، لما بقي أحد إلا ارتد عن دين الله تعالى، ولكنهم الذين يمسكون أزمّة قلوب ضعفاء الشيعة كما يمسك صاحب السفينة سكانها، أولئك هم الأفضلون عند الله عز وجل»(٣).

---

(١) (٢) (٣) منية المريد.

وقال الحسن بن علي عليه السلام:

«يأتي علماء شيعتنا القوامون بضعفاء محبينا وأهل ولايتنا يوم القيامة والأنوار تسطع من تيجانهم، على رأس كل واحد منهم تاج بهاء قد انبعثت تلك الأنوار في عرصات القيامة ودورها مسيرة ثلاثمائة ألف سنة، فشعاع تيجانهم ينبثّ فيها كلها، فلا يبقى هناك يتيم قد كفلوه ومن ظلمة الجهل أنقذوه ومن حيرة التيه أخرجوه إلا تعلق بشعبة من أنوارهم فرفعتهم إلى العلوّ يحاذى بهم فوق الجنان، ثم ينزلونهم على منازلهم المعدّة في جوار أساتيذهم ومعلّميهم وبحضرة أئمتهم الذين كانوا إليهم يدعون، ولا يبقى ناصب من النواصب يصيبه من شعاع تلك التيجان إلا عميت عيناه، وصمّت أذناه، وأخرس لسانه، ويحول عليه أشد من لهب النيران فيحملهم حتى يدفعهم إلى الزبانية فيدفعوهم إلى سواء الجحيم»[1].

ومن الحكمة القديمة؛ قال لقمان لابنه:

«يا بني إختر المجالس على عينك فإن رأيت قوماً يذكرون الله تعالى فاجلس معهم، فإن تكن عالماً ينفعك علمك وإن تكن جاهلاً علّموك، ولعلّ الله تعالى أن يظلّهم برحمة فتعمك معهم. وإذا رأيت قوماً لا يذكرون الله تعالى فلا تجلس معهم فإن تكن عالماً لا ينفعك علمك وإن تكن جاهلاً يزيدوك جهلاً، ولعلّ الله أن يظلّهم بعقوبة فتعمّك معهم»[2].

---

(١) منية المريد.

(٢) الكافي: ج ١، ص ٣٩.

قال الله تعالى لموسى عليه السلام:

«عظّم الحكمة فإني لا أجعل الحكمة في قلب أحد إلا وأردت أن أغفر له فتعلّمها، ثم اعمل بها، ثم ابذلها كي تنال بذلك كرامتي في الدنيا والآخرة».

وفي الزبور:

«قل لأحبار بني إسرائيل ورهبانهم: حادثوا من الناس الأتقياء، فإن لم تجدوا فيهم تقيّاً فحادثوا العلماء، فإن لم تجدوا فيهم عالماً فحادثوا العقلاء، فإن التقى والعلم والعقل ثلاث مراتب ما جعلت واحدة منهنّ في خلقي وأنا أريد هلاكه».

وفي الإنجيل؛ قال الله تعالى في السورة السابعة عشرة منه:

«ويل لمن سمع بالعلم ولم يطلبه كيف يحشر مع الجهال إلى النار، اطلبوا العلم وتعلموه، فإن العلم إن لم يسعدكم لم يشقكم، وإن لم يرفعكم لم يضعكم، وإن لم يغنكم لم يفقركم، وإن لم ينفعكم لم يضرّكم، ولا تقولوا: نخاف أن نعلم ولا نعمل، ولكن قولوا: نرجو أن نعلم ونعمل. والعلم يشفع لصاحبه وحق على الله تعالى ألاّ يخزيه. إن الله تعالى يقول يوم القيامة:

يا معشر العلماء ما ظنّكم بربّكم؟ فيقولون: ظننا أن ترحمنا وتغفر لنا، فيقول الله تعالى: قد فعلت إني استودعتكم حكمتي لا لشرّ أردته بكم بل لخير أردته بكم فادخلوا في صالحي عبادي إلى جنتي برحمتي».

ومن كلام النبي المسيح عليه السلام:

«من علم وعمل فذاك يدعى عظيماً في ملكوت السماء».

العلم هو الهدف من خلق العالم

إن الله تعالى جعل العلم السبب الكلي لخلق العالم العلوي والسفلي، حيث قال الله تعالى في محكم الكتاب تذكرة وتبصرة لأولي الألباب:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾(1).

وكفى بهذه الآية دليلاً على شرف العلم لا سيما علم التوحيد الذي هو أساس كل علم ومدار كل معرفة. ولقد جعل الله سبحانه العلم أعلى وأشرف، وأوّل منّة امتنّ بها على آدم بعد خلقه وإبرازه من ظلم العدم إلى ضياء الوجود، حيث قال سبحانه في أوّل سورة أنزلها على نبيّه محمّد ﷺ:

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(2).

---

(1) الطلاق: ١٢.

(2) العلق: ١ ـ ٥.

فتأمل كيف افتتح الله كتابه المجيد ﴿لَا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ بنعمة الإيجاد، ثم أردفها بنعمة العلم. فلو كان هناك ثمة منّة أو توجد نعمة بعد نعمة الإيجاد هي أعلى من العلم لما خصّه الله تعالى بذلك، وصدّر به نور الهداية وطريق الدلالة على الصراط المستقيم.

وفي آية أخرى قال تعالى:

﴿وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1].

فهذه الآية تدل على أن الله سبحانه اختص الإنسان بوصف الأكرمية لأنه علّمه العلم. فلو كان هناك شيء أفضل من العلم وأنفس لكان اقترانه بالأكرمية أولى. وبنى الله سبحانه قبول الحق والأخذ به على التذكّر به، والتذكر على الخشية، وحصر الخشية في العلماء فقال:

﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠﴾[2] ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[3].

وسمّى الله تعالى العلم بالحكمة وعظّم أمر الحكمة فقال:

﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[4].

وقد فسّرت الحكمة بمواعظ القرآن والعلم والفهم والنبوة حيث قال تعالى:

﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾[5].

---

(١) العلق: ٤ ـ ٥.
(٢) الأعلى: ١٠.
(٣) فاطر: ٢٨.
(٤) البقرة: ٢٦٩.
(٥) مريم: ١٢.

﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾(1).

والكل يرجع إلى العلم، ورجح تعالى العالمين على من سواهم فقال سبحانه وتعالى:

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾(2).

وقرن الله سبحانه أولي العلم بنفسه وملائكته فقال:

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾(3).

وزاد في إكرامهم فقال عزّ اسمه:

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾(4).

وبقوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾(5).

وقال تعالى أيضاً: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾(6).

وقد خصّ الله سبحانه في كتابه العلماء بخمس مناقب:

الأول: الإيمان: حيث قال تعالى؛ ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا﴾(7).

---

(1) النساء: ٥٤.

(2) الزمر: ٩.

(3) آل عمران: ١٨.

(4) آل عمران: ٧.

(5) الرعد: ٤٣.

(6) المجادلة: ١١.

(7) آل عمران: ٧.

الثاني: التوحيد: بقوله تعالى؛ ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾.

الثالث: البكاء والحزن: بقوله؛ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ - إلى قوله - وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾.

الرابع: الخشوع: بقوله تعالى؛ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ... وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾(١).

الخامس: الخشية: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾.

وأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يطلب منه زيادة مع ما آتاه من العلم والحكمة فقال:

﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾(٢).

وقال تعالى في آية أخرى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾(٣).

وقال عز وجل أيضاً: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾(٤).

---

(١) الإسراء: ١٠٧ و١٠٩.
(٢) طه: ١١٤.
(٣) العنكبوت: ٤٩.
(٤) العنكبوت: ٤٣.

العلم مطلوب لذاته ولغيره

إن للعلم فضيلة في ذاته، إن أخذته بالإضافة إلى سائر الأوصاف. فهو وصف كمال الله سبحانه، وبه شرف الملائكة والأنبياء. وإن الشيء النفيس المرغوب فيه ينقسم إلى:

١ ـ ما يطلب لذاته.

٢ ـ ما يطلب لغيره.

٣ ـ ما يطلب لذاته وغيره.

فما يطلب لذاته أشرف وأفضل مما يطلب لغيره. وما يطلب لذاته وغيره أشرف مما يطلب لذاته فحسب.

فالمطلوب لغيره كالدراهم والدنانير، فهما حجران لا منفعة فيهما، ولولا أن الله عز وجل يسّر قضاء الحاجات بهما لكانا والحصى بمنزلة واحدة.

أما الذي يطلب لذاته فكالسعادة في الآخرة. والذي يطلب لذاته ولغيره فكسلامة البدن؛ فإن سلامة الرجل مثلاً مطلوبة من حيث إنه سلامة من الألم، ومطلوبة للمشي، والتوصل بها إلى المآرب والحاجات.

وبهذا الاعتبار إذا نظرت إلى العلم رأيته لذيذاً في نفسه فيكون

مطلوباً لذاته، ووجدته وسيلة إلى دار الآخرة وسعادتها، وذريعة إلى القرب من الله تعالى؛ فيكون مطلوباً لغيره.

فأصل السعادة في الدنيا والآخرة هو العلم، فهو إذن أفضل الأعمال، وكيف لا؟.

وفضيلة الشيء تعرف بشرف ثمرته، وقد عرفت أن ثمرة العلم القرب من رب العالمين، والالتحاق بأفق الملائكة ومقارنة الملأ الأعلى هذا في الآخرة.

أما في الدنيا فالعزّ والوقار والاحترام و..

وإن كان العلم من أفضل الأمور صار تعلّمه طلباً للأفضل وكان تعليمه إفادة للأفضل. والمعلم متصرّف في قلوب البشر ونفوسهم، وأشرف موجود على الأرض جنس الإنسان، وأشرف جزء من جوهر الإنسان قلبه. والمعلم مشتغل بتكميله وتحليته وتطهيره وسياقته إلى القرب من الله عز وجل.

فتعليم العلم من وجه هو عبادة لله عز وجل، ومن وجه هو خلافة لله عز وجل، وهو أجلّ خلافة. فإن الله تعالى قد فتح على قلب العالم العلم الذي هو أخصّ صفاته، فهو كالخازن لأنفس خزائنه، ثم هو مأذون له في الإنفاق على كل من هو محتاج إليه.

فأية رتبة أجل من كون العبد واسطة بين ربّه سبحانه وبين خلقه في تقريبهم إلى الله عز وجل زلفى وسياقتهم إلى جنة المأوى؟!.

العلم الذي هو واجب عيني على الجميع

قال رسول الله ﷺ:

«طلب العلم فريضة على كل مسلم».

وقال ﷺ:

«اطلبوا العلم ولو في الصين».

واختلف الناس في العلم الذي هو فرض عين على كل مسلم، فكل فرقة تنزّل العلم الذي هي بصدده. فقال المتكلمون: هو علم الكلام، إذ به يدرك التوحيد ويعلم ذات الله سبحانه وصفاته. وقال الفقهاء: هو علم الفقه، إذ به تعرف العبادات والحلال والحرام. وقال المفسرون والمحدثون: هو علم الكتاب والسنة، إذ بهما يتوصّل إلى العلوم كلها. وقال المتصوّفة: هو علم العبد بحاله ومقامه من الله عز وجل.

وقال بعضهم: هو العلم بالإخلاص وآفات النفوس وتمييز لمّة الملك من لمّة الشيطان.

وقال بعضهم: هو علم الباطن...

والذي ينبغي أن يقطع به المحصّل. لا يستريب فيه هو أن العلم ينقسم إلى قسمين:

١ ـ علم معاملة.

٢ ـ علم مكاشفة.

وليس المراد بهذا العلم إلا علم المعاملة. والمعاملة التي كلّف بها العبد البالغ العاقل فيها ثلاثة أقسام:

١ ـ اعتقاد.

٢ ـ فعل.

٣ ـ ترك.

فإذا بلغ الرجل العاقل، وجب عليه تعلّم كلمتي الشهادة وفهم معناهما وهو قول: لا إله إلا الله محمد رسول الله؛ ويضيف إليه مجمل الاعتقاد بما يجب من الكمال لله وما يمتنع عليه من النقصان، بالإضافة إلى الإذعان بالإمامة للأئمةﷺ، والتصديق بما جاء به النبي وأهل بيته صلوات الله عليهم أجمعين من أحوال الدنيا والآخرة مما ثبت عنهم تواتراً.

بالإضافة إلى الإيمان بالجنة والنار والحشر والنشر حتى يؤمن به ويصدّق وهو تتمة كلمتي الشهادة. فإنه بعد التصديق بكونهﷺ رسولاً ينبغي أن يفهم معنى الرسالة التي هو مبلّغها؛ وهو انه من أطاع الله عز وجل ورسولهﷺ وأهل بيتهﷺ فله الجنة ومن عصاهم فله النار.

ولا يجب على المكلف تحصيل ذلك بالنظر والبحث وتحرير الأدلة، بل يكفيه أن يصدّق بهذه الأمور ويعتقد بها جزماً من غير اختلاج ريب واضطراب نفس.

وذلك قد يحصل بمجرّد التقليد والسماع من غير بحث وبرهان. فقد اكتفى النبيﷺ من اجلاف العرب بهذا التصديق والإقرار من غير تعلّم دليل.

وإذا فعل المكلف ذلك فقد أدّى الواجب المطلوب منه، وكان العلم الذي هو فرض عليه هو تعلم تلك الأمور ومعرفتها على سبيل الإجمال، فلا يلزمه أمرٌ وراء ذلك، بدليل أنه لو مات عقيب ذلك كان مطيعاً لله تعالى غير عاص.

فإذا انتبهت لهذا التدريج علمت أن هذا هو المذهب الحق، وتحقق أن كل عبد هو في مجاري أحواله في يومه وليلته لا يخلو عن وقائع وحوادث في عباداته ومعاملاته تجدد عليه لوازمه، فيجب عندها السؤال عن كل ما يقع له من النوادر ويجب المبادرة إلى تعلم ما يتوقع وقوعه.

فإذاً تبين أن النبيﷺ إنما أراد بالعلم في قوله: «طلب العلم فريضة» العلم الذي هو مشهور الوجوب على المسلمين.

بيان العلم الذي هو واجب كفائي

إن العلوم تنقسم إلى قسمين:

١ ـ علوم شرعية.

٢ ـ علوم غير شرعية.

ـ المقصود بالعلوم الشرعية ما يستفاد من الأنبياء صلوات الله عليهم فلا يرشد العقل إليها مثل الحساب والهندسة، ولا التجربة مثل الطب، ولا السماع مثل اللغة.

العلوم غير الشرعية:

تنقسم العلوم غير الشرعية إلى: ١ ـ ما هو محمود ٢ ـ ما هو مذموم ٣ ـ ما هو مباح.

١ ـ العلوم غير الشرعية المحمودة:

وهي ما ترتبط به مصالح الدنيا؛ كالطب والحساب. وهي تنقسم إلى:

أ ـ ما هو فرض كفاية: وهو كل علم لا يستغنى عنه في قوام أمور الدنيا، كالطب، إذ هو ضروريٌّ لإبقاء الأبدان على الصحة. وكالحساب فإنه ضروري في المعاملات وقسمة الوصايا وغيرها.

وهذه العلوم لو خلا البلد عمن يقوم بها لأدى ذلك إلى الحرج، وأما إذا قام بها واحدٌ مثلاً كفى وسقط الفرض عن الآخرين لعدم وجود الحرج. وأيضاً أصول الصناعات؛ كالفلاحة والحياكة والسياسة فهي من فروض الكفايات. بحيث انه إذا أتى بها العدد المطلوب حتى زال الحرج سقط الواجب عن الآخرين.

ب ـ ما هو فضيلة: كالتعمق في دقائق الحساب وحقائق الطب، وغير ذلك مما يُستغنى عنه، ولكنه يفيد في زيادة القوة بالقدر المحتاج إليه.

٢ ـ العلوم غير الشرعية المذمومة:

كعلم السحر والطلسمات وعلم الشعبذة والتلبيسات.

٣ ـ العلوم غير الشرعية المباحة:

كعلم الأشعار التي لا سخف فيها وتواريخ الأخبار وما يجري مجراها.

العلوم الشرعية:

أما العلوم الشرعية فهي محمودة كلها وهي تنقسم إلى:

١ ـ الأصول: وهي أربعة:

ـ كتاب الله عز وجل.

ـ سنة نبيه ﷺ.

ـ آثار أهل البيت عليهم السلام.

ـ إجماع الأمّة.

٢ ـ الفروع: وهي ما فهم من هذه الأصول لا بموجب ألفاظها بل بمعان تنبّهت لها العقول فاتّسع بسببها الفهم. والفروع على نوعين:

- أحدهما:
ما يتعلق بمصالح الدنيا ويحويه فن الفقه، والمتكفل به الفقهاء وهم علماء الدنيا.

- الثاني:
ما يتعلق بالآخرة، وهو علم أحوال القلب وأخلاقه المذمومة والمحمودة، وما هو مرضي عند الله عز وجل وما هو مكروه و. .

٣ - المقدمات: وهي التي تجري مجرى الآلات كعلم اللّغة والنحو، فإنهما آلات لعلم كتاب الله سبحانه وسنّة رسولهﷺ. وليست اللغة والنحو من العلوم الشرعية في أنفسها، ولكن لأن الشريعة جاءت بلغة العرب فصار تعلم اللغة وسيلة وآلة. ومن الآلات أيضاً علم كتابة الخط وغيرها. . .

٤ - المتممات: وتنقسم إلى:

١ - المتممات في علم القرآن: وهي على ثلاثة أقسام:

١ - ما يتعلق باللفظ: كعلم القراءات ومخارج الحروف.

٢ - ما يتعلق بالمعنى: كالتفسير.

٣ - ما يتعلق بأحكامه: كمعرفة الناسخ والمنسوخ، والخاص والعام، والنص والظاهر.

٢ - المتممات في الأخبار: كالعلم بالرجال وأسمائهم وبأسماء أصحاب النبي وأهل البيتعليهم السلام وصفاتهم، والعلم بالعدالة في الرواة، والعلم بأحوالهم ليتميّز الضعيف عن القوي.

فهذه هي العلوم الشرعية وكلها محمودة بل كلها من فروض الكفايات. ولا بد من الإشارة إلى أن الواجب في كلا علمي القرآن

والسنّة أن يؤخذ من أهله وليس أهله إلا الذين أوصى النبيﷺ بالتمسك بهم بقوله:

«إني تارك فيكم الثقلين إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»[1].

ومعنى عدم الافتراق أن علم القرآن عندهم فمن تمسك بهم تمسك بهما، وهم أولي الأمر الذين قال الله فيهم:

﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾[2].

وقال سبحانه فيهم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[3].

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده: ج ٣، ص ١٤.

(٢) النساء: ٨٣.

(٣) النساء: ٥٩.

علم الفقه[1]

إن الله عز وجل أخرج آدمعليه السلام من التراب وأخرج ذريته من سلالة من طين ومن ماء دافق، فأخرجهم من الأصلاب إلى الأرحام ومنها إلى الدنيا ثم إلى القبر ثم إلى العرض ثم إلى الجنّة أو النار، فهذا مبدؤهم وهذه غايتهم وهذه منازلهم. وخلق الدنيا زاداً للمعاد ليتناول منها ما يصلح للتزوّد. فلو تناولها بالعدل انقطعت الخصومات ولكنهم تناولوها بالشهوات فتولدت منها الخصومات فمست الحاجة إلى سلطان يسوسهم وإلى قانون يسوسهم هذا السلطان به.

فالفقيه هو العالم بقانون السياسة وبطريق التوسط بين الخلق إذا تنازعوا بحكم الشهوات، فكان الفقيه مرشداً إلى طريق سياسة الخلق وضبطهم لينتظم باستقامتهم أمورهم في الدنيا. ولعمري هذا أيضاً متعلّق بالدين ولكن لا بنفسه بل بواسطة الدنيا، فإن الدنيا مزرعة الآخرة ولا يتم الدين إلا بالدنيا.

وإن أقرب ما يتكلم الفقيه فيه من الأعمال التي هي من أعمال الآخرة ثلاثة:

- الإسلام.

---

(١) الفقيه: هو المجتهد القادر على استنباط الأحكام الشرعية من مصادرها الأساسية.

ـ الصلاة.

ـ الحلال والحرام.

فإذا تأملت منتهى نظر الفقيه فيها علمت أنه لا يجاوز حدود الدنيا إلى الآخرة، وإذا عرفت هذا في هذه الثلاثة فهي في غيرها أظهر.

ـ **أما الإسلام**: فيتكلم فيه الفقيه فيما يصح منه وما يفسد وفي شروطه، وليس يلتفت فيه إلا إلى اللسان، أما القلب فخارج عن ولاية الفقيه.

لذلك قال رسول الله ﷺ:

«أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها فقد عَصموا مني دماءهم وأموالهم»[1].

أما الآخرة فلا ينفع فيها الأقوال بل ينفع فيها أنوار القلوب وأسرارها وأخلاقها وليس ذلك من فنّ الفقيه.

ـ **أما الصلاة**: فالفقيه يفتي بالصحة إذا أتى بصورة الأعمال مع ظاهر الشروط بشكل صحيح، وإن كان غافلاً في صلاته في أوّلها إلى آخرها، مشغولاً بالتفكر في حساب معاملاته في السوق إلا عند تكبيرة الإحرام.

وهذه الصلاة لا تنفع في الآخرة كثير نفع، كما أن القول باللسان في الإسلام لا ينفع. ولكن الفقيه رغم ذلك يفتي بالصحة، بمعنى أن ما فعله حصل به امتثال الأمر الإلهي ورفع عنه القتل أو التعزير.

أما الخشوع وإحضار القلب الذي هو عمل الآخرة فلا يتعرض له الفقيه، ولو تعرض له لكان خارجاً عن فنه.

---

(١) أبو داود في سننه: ج ٢، ص ٤١.

ولا تقل؛ إن الفقيه يجعل النية شرطاً في صحة الصلاة ويحكم ببطلانها إذا خلت منها، والنية أمر قلبي إذاً فقد تجاوز نظر الفقيه في الصلاة من الدنيا إلى الآخرة!

لأن النية في الحقيقة هي ما يبعث المكلف على الفعل ويحمله على الإتيان به. وذلك أمر لا يخلو عنه فاعل ذو شعور يصدر عنه فعل ما. إذاً فلا يصح أن يتعلق به التكليف لخروجه عن الاختيار. ولهذا قال بعض العلماء: لو كلّف الله بإيقاع العبادات من دون نيّة لكان تكليفاً بما لا يطاق. نعم يتعلق التكليف بعوارضها وخصوصياتها من الإخلاص والرياء ونحوهما مما يبحث عنه في علم الأخلاق، وهو من وظيفة علماء الآخرة وأطباء القلوب وليس من وظيفة الفقيه.

- **أما الحلال والحرام**: إن الورع عن الحرام من الدين ولكن للورع أربع مراتب:

الأولى: الورع الذي يشترط في عدالة الشهادة؛ وهو الاحتراز عن الحرام الظاهر.

الثانية: ورع الصالحين؛ وهو التوقّي من الشبهات. قال النبي ﷺ: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»(١).

الثالثة: ورع المتقين؛ وهو ترك الحلال الذي يخاف منه أداؤه إلى الحرام.

قال النبي ﷺ: «لا يكون الرجل من المتقين حتى يدع ما لا بأس به مخافة مما به بأس»(٢).

وذلك مثل التورّع عن التحدث بأحوال الناس مخافة الانجرار إلى الغيبة، والتورع عن أكل الشهوات مخافة البطر المؤدي إلى مقارفة المحظورات.

---

(١) مسند أحمد: ج ١، ص ٢٠٠.

(٢) أخرجه الترمذي وابن ماجة.

الرابعة: ورع الصديقين؛ وهو الإعراض عما سوى الله سبحانه خوفاً من صرف ولو ساعة من عمره في غير ما يقرّبه إلى الله.

فهذه الدرجات كلها خارجة عن نظر الفقيه إلا الدرجة الأولى؛ وهو ورع الشهود والقضاة وما يقدح في العدالة.

إذاً فنظر الفقيه مرتبط بالدنيا التي بها صلاح طريق الآخرة. فعلم الفقه علم شريف إلهي نبوي، مستفاد من الوحي ليساق به العباد إلى الله عز وجل، وبه يترقّى العبد إلى كل مقام سنيّ، فتحصيل الأخلاق المحمودة لا يتيسّر إلا بأعمال الجوارح على وفق الشريعة الغراء من غير بدعة، وتحصيل علوم المكاشفة لا يتيسّر إلا بتهذيب الأخلاق وتنوير القلب بنور الشرع وضوء العقل، وذلك لا يتيسّر إلا بالعلم بما يقرّب إلى الله عز وجل من الطاعات المأخوذة من الوحي لكي يؤديها، والعلم بما يبعّد عن الله تعالى من المعاصي ليتجنب عنها.

والمتكفل بهذين العلمين إنما هو علم الفقه، وهو من أقدم العلوم وأهمها، وقد ورد عن أهل البيت عليهم السلام أنه ثلث القرآن، لذا صار بهذا المعنى من علوم الآخرة. وبالجملة يجب على كل مكلّف أن يحصل من علم الفقه ما يحتاج إليه بنفسه بفرض العين وما يحتاج إليه غيره بفرض الكفاية.

ومما يدل على شرافة علم الفقه قول الإمام الصادق عليه السلام:

«إن آية الكذاب بأن يخبرك خبر السماء والأرض والمشرق والمغرب فإذا سألته عن حرام الله وحلاله لم يكن عنده شيء»[1].

(١) الكافي: ج ٢، ص ٢٤٠.

علم الآخرة

ينقسم علم الآخرة إلى قسمين:

١ ـ علم مكاشفة.

٢ ـ علم معاملة.

١ ـ علم المكاشفة:

وهو علم الباطن وهو غاية العلوم، حتى أن بعض العارفين قال: من لم يكن له نصيب من هذا العلم أخاف عليه سوء الخاتمة، وأدنى نصيب منه التصديق به وتسليمه لأهله. وأقل عقوبة من ينكره أن لا يرزق منه شيئاً وهو علم الصديقين والمقربين.

وعلم المكاشفة عبارة عن نور يظهر في القلب عند تطهيره وتزكيته من الصفات المذمومة، فينكشف بهذا النور أمور كان يسمع من قبل بأسمائها فقط، ويتوهم لها معاني مجملة غير متضحة، فيتضح له ذلك حتى تحصل له المعرفة الحقيقية بذات الله سبحانه، وبصفاته التامة وبأفعاله، وبحكمته في خلق الدنيا والآخرة، والمعرفة بمعنى النبوّة والنبي ومعرفة معنى الإمامة والوحي، ومعنى الملائكة والشياطين، وكيفية معاداة الشيطان للإنسان، والمعرفة بملكوت السماوات والأرض، ومعرفة القلب وكيفية تصادم جنود الملائكة والشياطين فيه، ومعرفة الفرق بين لمّة الملك ولمّة الشيطان، ومعرفة الآخرة والجنة والنار وعذاب القبر

والصراط والميزان والحساب، ومعنى قوله تعالى: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[1] ومعنى قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[2]. ومعنى لقاء الله عز وجل والنظر إلى وجهه الكريم، ومعنى القرب منه والنزول في جواره، ومعنى حصول السعادة برفقة الملأ الأعلى ومقاربة الملائكة والنبيين، ومعنى تفاوت درجات أهل الجنة، إلى غير ذلك مما يطول تفصيله..

إذاً فالمقصود بعلم المكاشفة أن يرتفع الغطاء حتى يتضح له جليّة الحق في هذه الأمور إيضاحاً يجري مجرى العيان الذي لا يشك فيه. وهذا ممكن في جوهر الإنسان إلا أن مرآة القلب قد تراكم صدأها وخبثها بقاذورات الدنيا. والعلم بطريق الآخرة هو العلم بكيفية تصقيل هذه المرآة عن هذه الخبائث التي هي حجاب يحجب القلب عن الله سبحانه وعن معرفته ومعرفة صفاته وأفعاله. أما تصفية القلوب وتطهيرها فيتحقق بالكفّ عن الشهوات والاقتداء بالأنبياء عليهم السلام في جميع أحوالهم، حتى يتجلّى الحق تعالى فيه. ولا سبيل إلى ذلك إلا بالرياضة الشرعية وتهذيب النفس.

وهذا هو العلم الخفي الذي أراده النبي ﷺ بقوله:

«إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا أهل المعرفة بالله، فإذا نطقوا به لم يجهله إلا أهل الاغترار بالله عز وجل، ولم يتحمّله إلا أهل الاعتراف بالله، فلا تحقروا عالماً آتاه الله علماً، فإن الله تعالى لم يحقره إذ آتاه إياه»[3].

---

(١) الإسراء: ١٤.

(٢) العنكبوت: ٦٤.

(٣) بحار الأنوار: ج ٢، ص ٤٤.

وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال:

«إن من أحبّ عباد الله إليه عبداً أعانه الله على نفسه، فاستشعر الحزن، وتجلبب الخوف، فزهر مصباح الهدى في قلبه - إلى أن قال -: قد خلع سرابيل الشهوات، وتخلّى من الهموم إلا هماً واحداً انفرد به فخرج من صفة العمى ومشاركة أهل الهدى، وصار من مفاتيح أبواب الهدى ومغاليق أبواب الردى، قد أبصر طريقه، وسلك سبيله، وعرف مناره، وقطع غماره، واستمسك من العرى بأوثقها، ومن الجبال بأمتنها، فهو من اليقين على مثل ضوء الشمس»[1].

وفي كلام آخر له عليه السلام يقول:

«قد أحيا قلبه، وأمات نفسه، حتى دقّ جليله، ولطف غليظه، وبرق له لامع كثير البرق، فأبان له الطريق، وسلك به السبيل، وتدافعته الأبواب إلى باب السلامة، ودار الإقامة، وثبتت رجلاه بطمأنينة بدنه في قرار الأمن والراحة بما استعمل قلبه وأرضى ربّه»[2].

وقال علي عليه السلام أيضاً:

«اندمجت على مكنون علم لو بحت به لاضطربتم اضطراب الأرشية في الطويّ البعيدة»[3].

---

(١) نهج البلاغة: خطبة: ٨٤.

(٢) نهج البلاغة: خطبة: ٢١٨.

(٣) نهج البلاغة: خطبة: ٥. الرشاء: الحبل؛ الطوي: البئر المطوية.

وقال عليه السلام أيضاً:

«تعلمت من رسول الله صلى الله عليه وآله ألف باب من العلم، ففتح لي بكل باب ألف باب»[1].

وسأل كميل بن زياد النخعي أمير المؤمنين علي عليه السلام عن الحقيقة فقال عليه السلام:

«مالك والحقيقة؟ قال: أولست صاحب سرّك؟ قال عليه السلام: بلى ولكن يرشّح عليك ما يطفح منّي. ثم أجابه عما سأل».

وروي عن كميل أنه قال: أخذ علي عليه السلام بيدي وأخرجني إلى الجبان فلما أصحر تنفس الصعداء ثم قال لي:

«يا كميل بن زياد؛ ان هذه القلوب أوعية فخيرها أوعاها، فاحفظ عني ما أقول لك، الناس ثلاثة: فعالم رباني، ومتعلّم على سبيل نجاة، وهمج رعاع اتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق - إلى أن قال -: هاه إنّ ههنا لعلماً جمّاً - وأشار إلى صدره - لو أصبت له حملة؟ بلى أصبت لقنا[2] غير مأمون عليه مستعملاً آلة الدين للدنيا، ومستظهراً بنعم الله على عباده وبحججه على أوليائه، أو منقاداً لحملة الحق لا بصيرة له في احنائه[3] ينقدح الشك في قلبه لأوّل عارض من شبهة، ألا لاذا ولا ذاك، أو منهوماً

---

(١) بحار الأنوار: ج ٩.

(٢) لقناً: أي سريع الفهم.

(٣) الاحناء: الأطراف وذلك لعدم علمه بالبرهان والحجة.

باللذّة، سلس القياد للشهوة، أو مغرماً بالجمع والادخار، ليسا من رعاة الدّين في شيء، أقرب شيء شبهاً بهما الأنعام السائمة. كذلك يموت العلم بموت حامليه، اللهم بلى لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة إما ظاهراً مشهوراً أو خائفاً مغموراً، لئلا تبطل حجج الله وبيناته، وكم ذا؟ وأين أولئك؟ أولئك والله الأقلون عدداً والأعظمون قدراً، بهم يحفظ الله حججه وبيّناته حتى يودعها نظراءها، ويزرعوها في قلوب أشباههم، وهجم بهم العلم على حقيقة البصيرة، وباشروا روح اليقين، واستلانوا ما استوعره المترفون[1]، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحلّ الأعلى أولئك خلفاء الله في أرضه، والدعاة إلى دينه، آه، آه شوقاً إلى رؤيتهم»[2].

وعن الإمام زين العابدين أنه قال:

«والله لو علم أبو ذر ما في قلب سلمان لقتله، ولقد آخا رسول الله بينهما فما ظنكم بسائر الخلق. إن علم العلماء صعب مستصعب لا يحتمله إلا ملك مقرّب أو نبي مرسل أو عبد مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان.

قال: وإنما صار سلمان من العلماء لأنه امرء منا أهل البيت، فلذلك نسبته إلى العلماء»[3].

---

(١) استوعره المترفون: أي ما استصعبوه في خشونة المطعم وجشوبة المضجع والملبس ومصابرة الصيام والسهر، فاستوحش من ذلك الجاهلون.
(٢) نهج البلاغة: أبواب الحكم: ١٤٧.
(٣) الكافي: ج ١، ص ٤٠١.

وفي الحديث النبوي قال النبيﷺ:

«سلمان منا أهل البيت»[1].

وقال الإمام الصادقعليه السلام:

«إن أمرنا سرّ مستور في سرّ مقنّع بالميثاق من هتكه أذله الله»[2].

وقالعليه السلام مشيراً إلى كتمان هذا السرّ:

«التقيّة ديني ودين آبائي، فمن لا تقية له لا دين له»[3].

وقالعليه السلام:

«خالطوا الناس بما يعرفون ودعوهم مما ينكرون، ولا تحمّلوا على أنفسكم وعلينا، إن أمرنا صعب مستصعب لا يحتمله إلا ملك مقرّب أو نبي مرسل، أو مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان»[4].

٢ ـ علم المعاملة:

وهو علم أحوال القلب وهو على نوعين:

١ ـ ما يحمد من الأحوال:

كالصبر والشكر والخوف والرجاء والرضا والزهد والتقوى والقناعة والكرم، ومعرفة أن المنّة لله في جميع الأحوال، والإحسان، وحسن

(١) سفينة البحار: ج ١، ص ٦٤٦.

(٢) بصائر الدرجات: ص ٩.

(٣) الكافي: ج ٢، ص ٢١٩.

(٤) بصائر الدرجات: ص ٩.

الظن وحسن الخلق وحسن المعاشرة والصدق والإخلاص وغيرها...

فمعرفة حقائق هذه الأحوال وحدودها وأسبابها التي بها تكتسب وثمراتها وعلاماتها ومعالجة ما ضعف منها وما زال، هي من شؤون علم المعاملة وهي من علم الآخرة.

٢ ـ ما يذمّ من الأحوال:

كخوف الفقر والسخط على المقدور، والحقد والحسد والكبر والعجب وطلب العلو والغضب والاستكبار والاشتغال بعيوب الناس والغفلة عن عيوب النفس وزوال الحزن من القلب وخروج الخشية منه وشدة الانتصار للنفس إذا نالها ذلّ وضعف الانتصار للحق والطمع والبخل وتعظيم الأغنياء والفخر وحب الثناء والخوض فيما لا يعني وحب كثرة الكلام وطول الأمل والمخادعة والعجلة وقلة الحياء وغيرها الكثير من صفات القلب ومغارس الفواحش ومنابت الأعمال المحظورة، بعكس الأخلاق المحمودة التي هي منبع الطاعات والقربات.

فالعلم بحدود هذه الأمور وحقائقها وأسبابها وثمراتها وعلاجها هو علم الآخرة، وهو فرض عين في فتوى علماء الآخرة، والمعرض عنها هالك بسطوة ملك الملوك في الآخرة.

قال النبي ﷺ:

«الخشية ميزان العلم، والعلم شعاع المعرفة وقلب الإيمان، ومن حرِم الخشية لا يكون عالماً وإن شقّ الشعر في متشابهات العلم قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ وآفة العلماء: الطمع، والبخل، والرياء، والعصبية، وحب المدح، والخوض فيما لم يصلوا إلى حقيقته، والتكلّف في تزيين الكلام بزوائد

الألفاظ، وقلة الحياء من الله، والافتخار وترك العمل بما علموا».

قال عيسى ابن مريم عليه السلام:

«أشقى الناس من هو معروف عند الناس بعلمه مجهول بعمله».

قال النبي صلى الله عليه وآله:

«لا تجلسوا عند كل داع مدّع يدعوكم من اليقين إلى الشك ومن الإخلاص إلى الرياء ومن التواضع إلى الكبر، ومن النصيحة إلى العداوة، ومن الزهد إلى الرغبة. وتقربوا إلى عالم يدعوكم من الكبر إلى التواضع، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الشك إلى اليقين، ومن الرغبة إلى الزهد، ومن العداوة إلى النصيحة».

ولا يصلح لموعظة الخلق إلا من خاف هذه الآفات بصدق، وعرف الصحيح من السقيم، وعلل الخواطر وفتن النفس والهوى.

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام:

«كن كالطبيب الشفيق الذي يضع الدواء حيث ينفع».

علم الفلسفة والكلام

علم الفلسفة علم شريف جامع لجميع العلوم العقلية والحقيقية التي لا تتغيّر بتغيّر الأزمان ولا تتبدل بتبدل الأديان، وتسمى في عرفهم بالحكمة ويفسّر بأنه العلم بحقائق الأشياء على ما هي عليه بقدر طاقة البشر.

ومسائل هذا العلم أكثرها مأخوذة من الوحي النازل على الأنبياء ﷺ، وبعضه مستفاد من الإلهامات الواردة على القلوب المنوّرة والنفوس المرتاضة لأولي الخلوات والمجاهدات.

إلا أن الفلاسفة لم يبلغوا في شيء من علومهم مبلغ الأنبياء بل كانوا قاصرين في أكثرها خصوصاً فيما يتعلق منها بالمكاشفة، فإنه بقي لهم من العلم بالله واليوم الآخر أمور كثيرة أتمّها لهم الرسل صلوات الله عليهم، وذلك لأن نظر الأنبياء ﷺ أوسع وأحدُّ، ومعرفتهم بالغة إلى جزئيات الأمور، وتعيين الأعمال المقربة إلى الله تعالى، كما هي بالغة إلى كلياتها، ولهم قدرة النزول في المعارف الإلهية ومعرفة الله إلى العامي الضعيف الرأي بما يصلح بذلك عقله ويناسبه، وإلى الكبير العقل والصحيح النظر بما يصلح بذلك عقله أيضاً ويناسبه.

وهم أعلم خلق الله فيما غاب عنهم، وهمتهم في معرفة حقائق أمور النشأة الآخرة أكثر منها في معرفة أمور هذه النشأة. بل لا

يخوضون من الفانية إلا فيما هو وسيلة إلى الباقية، ولهذا لما سئل نبيّنا ﷺ عن التشكلات البدرية والهلالية للقمر أمر بالإعراض عن الجواب إلى أمر آخر تنبيهاً إلى أن هذا السؤال ليس بمهمّ، وإنما المهم ما يقرّب إلى الله سبحانه والنشأة الآخرة. أما أولو العقول الصرفة فلم يؤتوا من العلم والقدرة والنظر ما أوتي النبيّون، ولم تصل أفكارهم إلى النشأة الآخرة كما ينبغي. ومع ذلك لا يجوز التقصير في حقهم والتفريط في شأنهم على وجه يفضي إلى الإزدراء بهم وبإيمانهم وحاشاهم عن ذلك.

نعم لما كان ما ينفع في الآخرة من علومهم موجوداً في الشرائع خصوصاً في شريعتنا التامة، الكاملة، البيضاء، على وجه أتمّ وأكمل وطريقة أيسر وأسهل، وما لا ينفع في الآخرة منها فلا حاجة إليه في سلوك سبيل الله عز وجل، بل هو عائق عن السلوك في أغلب الأحيان ومبعّد عن الله تعالى.

وكذلك ما لم يأتِ ذكره في الشرع بشكل مفصّل، وكان له مدخل في معرفة الله تعالى ككيفية صفات الله عز وجل وعلم الهيئة وغير ذلك، لا حاجة فيه إلى التفصيل، بل يكفي فيه المجملات والمرموزات التي وردت في الشرائع، وطريقة الفلاسفة كثيرة الخطر والمهالك ولهذا ضلّ فيها كثير من الأذكياء وتاهوا عن الحق والهدى، وقد تطرّق إلى علومهم تحريفات من المتأخرين بسبب سوء أفهامهم والإخلال بشرائط تحصيلهم، فما هو الموجود منها بين الناس اليوم ليس بعينه ما كان بين القدماء بل اختلّ بعضها، فالأولى الإعراض عن علومهم وعدم الخوض في طريقتهم إلا لمن أحكم العلوم الدينية كلّها وفرغ منها جميعاً وأراد أن يستطلع على مقاصدهم ويطلب العثور على مطالبهم فلا بأس له بذلك.

فالمتكلم إذا تجرّد للمناظرة والمدافعة ولكن لم يسلك طريق

الآخرة ولم يشتغل بتعهد القلب وإصلاحه لم يكن من جملة علماء الدين أصلاً. إذ ليس عند المتكلم من الدين إلا العقيدة التي يشاركه سائر العوام فيها، وهي من جملة أعمال ظاهر القلب واللسان، وإنما تميّز عن العامي بصنعة المجادلة والحراسة. أما معنى معرفة الله سبحانه وصفاته وأفعاله وجميع ما أشرنا إليه في علم المكاشفة فلا يحصل من علم الكلام والفلسفة، بل يكاد يكون علم الكلام حجاباً ومانعاً منه، وإنما الوصول إليه بالمجاهدة التي جعلها الله تعالى مقدمة للهداية حيث قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾(1).

فعلماء الدين ما كانوا متجرّدين لعلم الفقه بل كانوا مشتغلين بعلم القلوب مراقبين لها، ففضيلة علماء الدين ليست باعتبار فقههم ومعرفتهم بالفلسفة والكلام، بل باعتبار معرفتهم بدقائق علوم الباطن وعملهم بمقتضى علمهم. وإرادتهم بالفقه وجه الله وزهدهم في الدنيا ونحو ذلك، وإن كانت شهرتهم باعتبار الفقه والكلام (بالمعنى الشائع والمعروف). فما ينال به الفضل عند الله شيء، وما ينال به الشهرة عند الناس شيء آخر.

ورد عن جابر عن أبي جعفرعليه السلام: قال: قال لي عليه السلام:

«يا جابر أيكفي من انتحل التشيّع أن يقول بحبنا أهل البيت، فوالله ما شيعتنا إلا من اتقى الله وأطاعه وما كانوا يُعرفون يا جابر إلا بالتواضع والتخشع والأمانة وكثرة ذكر الله والصوم والصلاة والبر بالوالدين والتعهد للجيران من الفقراء وأهل المسكنة والغارمين والأيتام

---

(1) العنكبوت: ٦٩.

وصدق الحديث وتلاوة القرآن وكف الألسن عن الناس إلا من خير، وكانوا أمناء عشائرهم في الأشياء. قال جابر: فقلت: يا بن رسول الله ما نعرف اليوم أحداً بهذه الصفة، فقال عليه السلام: يا جابر لا تذهبنّ بك المذاهب، حسب الرجل أن يقول أحب علياً وأتولاه ثم لا يكون مع ذلك فعّالاً فلو قال: إني أحب رسول الله صلى الله عليه وآله فرسول الله خير من عليّ ثم لا يتّبع سيرته ولا يعمل بسنّته ما نفعه حبّه إياه شيئاً. فاتقوا الله واعملوا لما عند الله، ليس بين الله وبين أحد قرابة، أحب العباد إلى الله وأكرمهم عليه تعالى أتقاهم وأعملهم بطاعته. يا جابر والله ما يتقرّب إلى الله تعالى إلا بالطاعة، ما معنا براءة من النار ولا على الله لأحد من حجّة، من كان لله مطيعاً فهو لنا ولي ومن كان لله عاصياً فهو لنا عدو، وما تنال ولايتنا إلا بالعمل والورع»[1].

(١) الكافي: ج ٢، ص ٧٤.

العلوم المذمومة وأسباب ذمها

إن العلم لا يذم لعينه وإنما يذم في حق العباد لأحد أسباب ثلاثة:

السبب الأول:

أن يكون هذا العلم مؤدياً إلى الضرر بصاحبه أو بغيره، كما يذم علم السحر والطلسمات، حيث شهد بذلك القرآن.

فقد يتوصل بهذا العلم إلى التفريق بين الزوجين، وقد سحر رسول الله ﷺ ومرض بسببه حتى أخبره جبرئيل بذلك وأخرج السحر من تحت الحجر في قعر بئر.

وهو نوع علم يستفاد من العلم بخواص الجواهر وبأمور حسابية في مطالع النجوم، فيتخذ من تلك الجواهر هيكل على صورة الشخص المسحور، ويترصد له وقت مخصوص في المطالع ويقترن به كلمات يتلفظ بها من الكفر والفحش المخالف للشرع، ويتوصل بها إلى الاستعانة بالشياطين. ويحصل من مجموع ذلك أحوال غريبة في الشخص المسحور. ومعرفة هذه الأسباب من حيث انها معرفة ليست مذمومة، ولكنها لا تصلح إلا للإضرار بالخلق، فما كان وسيلة إلى الشرّ فهو شر أيضاً، ولهذا السبب كان هذا العلم مذموماً. فمن اتبع وليّاً من أولياء الله ليقتله وقد اختفى منه في موضع ما فسأل عنه، لم يجز تنبيهه أو دلّه عليه بل وجب الكذب عليه، فذكر مكانه مذموم لأدائه إلى الضرر.

السبب الثاني:

أن يكون مضراً بصاحبه في غالب الأمر كعلم النجوم، فإنه في نفسه غير مذموم إذ هو قسمان:

١ ـ قسم حسابي، نطق القرآن به؛ حيث أشار إلى أن مسير الكواكب محسوب فقال عز وجل:

﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥﴾[١].

وقال تعالى أيضاً: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ۝٣٩﴾[٢].

٢ ـ قسم الأحكام: وحاصله يرجع إلى الاستدلال على الحوادث بالأسباب، وهو يضاهي استدلال الطبيب بالنبض على ما سيحدث من المرض، وهو معرفة بمجاري سنّة الله تعالى وعادته في خلقه، وهو مذموم شرعاً. حيث قال النبيﷺ:

«إذا ذكر القدر فأمسكوا وإذا ذكر النجوم فأمسكوا»[٣].

وقالﷺ:

«أخاف على أمتي بعدي ثلاثاً: حيف الأئمة وإيمان بالنجوم وتكذيب بالقدر»[٤].

وعن أمير المؤمنين عليعليه السلام أنه قال له بعض أصحابه لما عزم على المسير إلى الخوارج فقال له:

«يا أمير المؤمنين: إن سرت في هذا الوقت خشيت

---

(١) الرحمن: ٥.
(٢) يس: ٣٩.
(٣) أخرجه الطبراني في الكبير.
(٤) أخرجه ابن عبد البر في العلم، كما في المختصر ص ١١٧.

عليك أن لا تظفر بمرادك من طريق علم النجوم فقال له عليه السلام:

أتزعم أنك تهدي إلى السعة التي من سار فيها صرف عنه السوء، وتخوّف من الساعة التي من سار فيها حاق به الضرُّ، فمن صدّقك بهذا فقد كذّب القرآن، واستغنى عن الاستعانة بالله في نيل المحبوب ودفع المكروه، وتبتغي في قولك أن يولّيك الحمد دون الله لأنك بزعمك أنت هديته إلى الساعة التي نال فيها النفع وأمن فيها الضرر، ثم أقبل عليه السلام إلى الناس فقال: أيها الناس إياكم وتعلّم النجوم إلا ما يهتدى به في برّ أو بحر، فإنها تدعو إلى الكهانة، والمنجم كالكاهن والكاهن كالساحر والساحر كالكافر والكافر في النار»[1].

وعن إبن أعين قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام:

«إني قد ابتليت بهذا العلم فأريد الحاجة، فإذا نظرت إلى الطالع ورأيت الطالع الشر جلست ولم أذهب فيها، وإذا رأيت الطالع الخير ذهبت في الحاجة؟ فقال لي عليه السلام: تقضي؟ قلت نعم، قال عليه السلام: احرق كتابك»[2].

أما سبب الزجر عن التنجيم أمور:

١ ـ إنه مضرّ بأكثر الخلق، فإنه إذا ألقي إليهم ان هذه الآثار

(١) نهج البلاغة: خطبة ٧٧.

(٢) تقضي: أي تحكم، من لا يحضره الفقيه: كتاب الحج.

تحدث عقيب سير الكواكب وقع في نفوسهم ان الكواكب هي المؤثرة وانها الآلهة المدبّرة، فيعظم وقعها في النفوس فيبقى القلب ملتفتاً إليها ويرى الخير والشر محذوراً من جهتها ومرجواً منها، فينمحي ذكر الله تعالى من القلب، ويكون أكثر نظر الخلق مقصوراً على الأسباب الغريبة مقطوع عن الترقي إلى مسبب الأسباب.

٢ ـ إن أحكام النجوم تخمين محض، فالحكم به حكم بجهل ولذلك كان مذموماً.

أما ما قد يتفق من إصابة المنجّم فهو في حالات نادرة، لأنه قد يطّلع على بعض الأسباب ولا يحصل المسبب عقيبها إلا بعد شروط كثيرة ليس في قدرة البشر الاطلاع عليها، فإن اتفق أن قدّر الله تعالى بقية الأسباب وقعت الإصابة وإن لم يقدّر أخطأ، ويكون ذلك كتخمين الإنسان في السماء بأنها ستمطر بعد أن رأى اجتماع الغيم، ولكن ربما تظهر الشمس مجدداً ويتبدد الغيم، فيكون الأمر بخلاف ما حكم به، لأن مجرّد الغيم ليس كافياً في مجيء المطر بل هناك أسباب أخرى كثيرة غير معروفة.

وقد قال الإمام الصادقعليه السلام في هذا العلم:

«إن كثيره لا يدرك وقليله لا ينفع»[1].

وقالعليه السلام أيضاً:

«إنه علم الأنبياء وان عليّ بن أبي طالبعليه السلام أعلم الناس به»[2].

---

(١) الكافي: ج ٨، ص ١٩٥.

(٢) بحار الأنوار: ج ١٤، ص ١٤٧.

وقال عليه السلام أيضاً:

«لا يعلمه إلا أهل بيت من العرب وأهل بيت بالهند»[1].

٣ ـ إنه لا فائدة فيه، فأقلّ أحواله انه خوض في فضول لا يعني وتضييع العمر الذي هو أنفس بضاعة الإنسان بغير فائدة، وذلك غاية الخسران.

٤ ـ إن الأحكام النجومية إخبارات عن أمور ستكون في المستقبل وهي تشبه الاطلاع على الأمور الغيبية، وأكثر الخلق لا يميّزون بينها وبين علم الغيب. فكان تعلم تلك الأحكام والحكم بها سبباً لإخلال كثير من الخلق ووهناً لاعتقاداتهم في المعجزات.

وقد قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾[3].

السبب الثالث:

أن يخوض الخائض في علم لا يستفاد منه؛ كتعلم دقيق العلوم قبل جليلها، وخفيّها قبل جليّها، وكالبحث عن بعض الأسرار الإلهية التي لا يطلع عليها ولا يستقل بها وبالوقوف على طرقها إلا الأنبياء صلوات الله عليهم والأولياء، حيث يجب كفّ الناس عن البحث عنها، وردّهم إلى ما نطق الشرع به. فكم من شخص خاض في العلوم وتضرّر بها، ولو لم يخض فيها لكانت حاله في الدين أحسن مما صار إليه. لذلك قال النبي صلى الله عليه وآله:

---

(١) الكافي: ج ٨، ص ٣٣١.

(٢) النمل: ٦٥.

(٣) الأنعام: ٥٩.

«نعوذ بالله من علم لا ينفع».

إذاً فلا تكن باحثاً عن علوم ذمّها الشرع وزجر عنها، ولا تكثر التبجح برأيك ومعقولك ودليلك وبرهانك وزعمك أنك تبحث عن الأشياء لمعرفتها على ما هي عليه.

فإن ما يعود عليك من ضرر هذه العلوم أكثر من نفعها، فكم من شيء تطلع عليه فيضرّك اطلاعك عليه ضرراً يكاد يهلكك في الآخرة إن لم يتداركك الله سبحانه برحمته. ولذلك قال النبي ﷺ:

«إن من العلم جهلاً وإن من القول عيّاً»(١).

ومن المعلوم أن العلم لا يكون جهلاً ولكنه يؤثر تأثير الجهل في الإضرار. وقال ﷺ:

«قليل من التوفيق خير من كثير من العلم».

وقال عيسى عليه السلام:

«ما أكثر الشجر وليس كلها مثمر، وما أكثر الثمر وليس كلها طيّب، وما أكثر العلوم وليس كلها بنافع»(٢).

---

(١) أخرجه أبو داود.

(٢) تحف العقول: ص ٥٠٣.

بيان ما بدّل من ألفاظ العلوم

إن منشأ التباس العلوم المذمومة بالعلوم الشرعية هو تحريف الأسامي المحمودة وتبديلها ونقلها إلى معان أخرى غير ما كانت عليه في الأصل. وهي:

١ ـ الفقه

٢ ـ العلم

٣ ـ التوحيد

٤ ـ الذكر

اللفظ الأول: الفقه

إذ تم تخصيصه بمعرفة الفروع في الفتاوى، والوقوف على دقائق عللها، واستكثار الكلام فيها، وحفظ المقالات المتعلقة بها. فمن كان أشد تعمقاً فيها وأكثر اشتغالاً بها يقال عنه: انه هو الأفقه.

ولقد كان اسم الفقه في العصر الأول يطلق على علم طريق الآخرة، ومعرفة دقائق آفات النفوس، ومفسدات الأعمال، وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا، وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة، واستيلاء الخوف على القلب.

ويدلك على ذلك قول الله عز وجل:

﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾(١).

وما به الإنذار والتخويف هو هذا العلم وهذا الفقه دون تفريعات الطلاق واللّعان، والسّلم والإجارة، فهذا لا يحصل به إنذار ولا تخويف، بل على العكس فإن التجرّد له على الدوام يقسي القلب وينزع الخشية منه كما قال الله تعالى:

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾(٢).

وقال عز من قائل:

﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾(٣).

فأحال قلّة خوفهم من الله عز وجل واستعظامهم سطوة الخلق إلى قلة الفقه.

وقد قال النبي ﷺ:

«ألا أنبّئكم بالفقيه كل الفقيه؟ قالوا: بلى، قال ﷺ: من لم يقنّط الناس من رحمة الله سبحانه، ولم يؤمنهم من مكر الله عز وجل، ولم يؤيسهم من روح الله عز وجل، ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى ما سواه»(٤).

اللفظ الثاني: العلم

وقد كان يطلق على العلم بالله تعالى وبآياته وأفعاله في عباده وخلقه، فتصدقوا فيه وخصصوه بمن يشتغل بالمناظرة مع الخصوم في

---

(١) التوبة: ١٢٢.
(٢) الأعراف: ١٧٩.
(٣) الحشر: ١٣.
(٤) سنن الدارمي: ج ١، ص ٨٩.

المسائل الفقهية وغيرها. فيقال: هذا هو العالم على الحقيقة ومن لم يمارس ذلك ولم يشتغل به يعد من جملة الضعفاء ولا يعدّونه من زمرة أهل العلم. علماً أن ما ورد في فضائل العلم والعلماء أكثره في العلم بالله عز وجل وبأحكامه وأفعاله وصفاته. أما اليوم فقد صار يطلق على من لا يحيط بشيء من علوم الشرع سوى رسوم جدليّة في مسائل خلافية، فيعد بذلك من فحول العلماء مع جهله بالتفسير والأخبار حتى صار ذلك سبباً مهلكاً لخلق كثير من طلبة العلم.

اللفظ الثالث: التوحيد

وقد صار الآن عبارة عن صناعة الكلام ومعرفة طريق المجادلة والإحاطة بمناقضات الخصوم والقدرة على التشدّق فيها بتكثير الأسئلة وإثارة الشبهات حتى لقبت طوائف منهم أنفسها بأهل العدل والتوحيد، مع أن جميع ما هو خاصة هذه الصناعة لم يكن معروفاً في الصدر الأول، بل كان يشتد النكير منهم على من كان يفتح باباً من الجدل والمماراة.

أما التوحيد فهو عبارة عن أمر آخر لا يفهمه أكثر المتكلمين، وإن فهموه لم يتصفوا به، وهو أن يرى الإنسان الأمور كلها من الله عز وجل رؤية تقطع إلتفاته عن الأسباب والوسائط. وهذا مقام شريف إحدى ثمراته التوكّل، ومن ثمراته أيضاً ترك شكاية الخلق وترك الغضب والرضا والتسليم بحكم الله.

فالتوحيد جوهر نفيس له قشران أحدهما أبعد عن اللب من الآخر. فخصص الناس إسم التوحيد بالقشر وأهملوا اللب بالكامل. فالقشر الأول: هو أن تقول بلسانك لا إله إلا الله وهذا يسمى توحيداً مناقضاً للتثليث الذي صرّح به النصارى، ولكنه قد يصدر عن المنافق الذي يخالف سرّه جهره.

القشر الثاني: أن لا يكون في القلب مخالفة وإنكار لمفهوم التوحيد، بل ان القلب يعتقد بذلك ويصدق به. وهو توحيد عوام الخلق، والمتكلمون حرّاس هذا القشر عن تشويش المبتدعة.

أما اللّب: فأن يرى الإنسان أن الأمور كلها من الله عز وجل؛ رؤية تقطع التفاته عن الوسائط وأن يعبده عبادة يفرده بها فلا يعبد غيره، فيخرج بذلك عن اتباع الهوى لأن كل متبع لهواه قد اتخذ في الحقيقة هواه معبوداً، كما قال الله تعالى:

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[1].

وقول رسوله ﷺ: «أبغض إله عبد في الأرض عند الله هو الهوى»[2].

فكل من تأمل عرف أن عابد الصنم ليس يعبد الصنم وإنما يعبد هواه، إذ نفسه مائلة إلى دين آبائه، فيقوم باتباع هذا الميل الذي يعبّر عنه بالهوى.

والموحّد لا يسخط على الخلق ولا يلتفت إليهم، فإن من يرى الكل من الله عز وجل كيف يتسخّط على غيره.

إذاً فقد كان التوحيد عبارة عن هذا المقام، وهو من مقامات الصدّيقين، فانظر إلى ماذا حوّل وبأي قشر قنع وكيف اتخذ هذا معتصماً في التمدّح والتفاخر.

إن الموحّد هو الذي لا يرى إلا الواحد ولا يتوجه وجهه إلا إليه عز وجل، وهو امتثال قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾[3]، وليس المراد به القول باللسان، إنما اللسان ترجمان يصدق مرة ويكذب أخرى، وإنما

---

(١) الجاثية: ٢٣.
(٢) أخرجه الطبراني في المغني.
(٣) الأنعام: ٩١.

موقع نظر الله تعالى هو القلب، فهو معدن التوحيد ومنبعه.

اللفظ الرابع: الذكر

فقد قال الله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥﴾[(١)].

وقد ورد في الثناء على مجالس الذكر والتذكير أخبار كثيرة كقول النبيﷺ:

«إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا فيها قيل: وما رياض الجنة؟ قالﷺ: مجالس الذكر»[(٢)].

وفي الحديث:

«إن لله عز وجل ملائكة سياحين في الهواء سوى ملائكة الخلق إذا رأوا مجالس الذكر ينادي بعضهم بعضاً ألا هلمّوا إلى بغيتكم، فيأتونهم ويحفّون بهم ويستمعون، ألا فاذكروا الله وذكّروا أنفسكم».

فنقل هذا المعنى للذكر إلى ما ترى أكثر الوعّاظ في هذا الزمان يواظبون عليه، من القصص والأشعار والشطح والطامات.

١ ـ القصص:

أما القصص فهي بدعة وقد أخرج عليعليه السلام القصاص من مسجد البصرة.

فالتذكير المحمود هو الذي ورد الحث عليه في حديث أبي ذر حيث قال:

---

(١) الذاريات: ٥٥.

(٢) أخرجه الترمذي.

«حضور مجلس الذكر أفضل من صلاة ألف ركعة، وحضور مجلس علم أفضل من عيادة ألف مريض، قيل: يا رسول الله ومن قراءة القرآن؟ فقالﷺ: وهل ينفع قراءة القرآن إلا بالعلم»[1].

إذن فقد اتخذ المزخرفون هذه الأحاديث حجّة على تزكية أنفسهم، ونقلوا اسم التذكير إلى خرافاتهم وذهلوا عن طريق الذكر المحمود واشتغلوا بالقصص التي يتطرق إليها الاختلاف والزيادة والنقصان وتخرج عن حدود القصص الواردة في القرآن وتزيد عليها. فإن من هذه القصص ما ينفع سماعه ومنها ما يضرّ وإن كان صدقاً، لذا فإن من فتح ذلك الباب على نفسه اختلط عليه الصدق بالكذب والنافع بالضار، ولهذا نهي عنه.

فينبغي الحذر من القصص الكاذبة وحكاية أحوال تومي إلى هفوات أو مسهلات يقصر فهم العامي عن درك معانيها فتكون بالنسبة له عذراً وحجة لارتكاب المعاصي. أما إذا قلت القصة عن هذه المحاذير فلا بأس ويرجع عندها إلى القصص المحمودة وإلى ما يشتمل عليه القرآن وصحّ من الأخبار والروايات.

سئل الإمام الصادق عن القصاص أيحلّ الاستماع لهم؟ فقالعليه السلام:

«لا ، وقال: من أصغى إلى ناطق فقد عبده، فإن كان الناطق عن الله، فقد عبد الله، وإن كان الناطق عن إبليس فقد عبد إبليس».

٢ ـ الشعر:

أما الأشعار فتكثيرها في المواعظ مذموم. قال الله تعالى:

---

(١) جامع الأخبار: الفصل العشرون.

﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾﴾.

وقال عز وجل:

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾.

وان أكثر ما اعتاد عليه الوعاظ من الأشعار متعلق بالتواصف في العشق وجمال المعشوق وروح الوصال وألم الفراق ومجلس الوعظ لا يحوي إلا اجلاف العوام المشحونة بواطنهم بالشهوات وقلوبهم غير منفكّة عن الالتفات إلى الصور الجميلة، فلا تحرك الأشعار في قلوبهم إلا ما هو مستكّن فيها، فتشتعل فيها نيران الشهوة فيزعقون ويتواجدون فيؤدي ذلك إلى ما يؤدي من الفساد.

لذا لا ينبغي أن يستعمل من الشعر إلا ما فيه موعظة وحكمة على سبيل الاستشهاد أو الاستيناس، فقد قال النبيﷺ: «إن من الشعر لحكمة»(١).

٢ ـ الشطح:

ونعني به صنفين من الكلام أحدثه بعض الصوفية:

الأول: الدعاوى الطويلة العريضة في العشق مع الله سبحانه والوصال المغني عن الأعمال الظاهرة، حتى ينتهي قوم إلى دعوى الاتحاد وارتفاع الحجاب والمشاهدة بالرؤية والمشافهة بالخطاب. ويتشبهون فيه بالحسين الحلاّج الذي صلب لإطلاقه كلمات من هذا النوع، حيث قال: أنا الحق.

وبما يحكون عن أبي زيد البسطامي أنه قال: سبحاني، سبحاني.

---

(١) أخرجه الترمذي: ج ١٠، ص ٢٧٨.

وهذا فن من الكلام عظم ضرره على العوام، حتى ترك جماعة من أهل الفلاحة فلاحتهم وأظهروا مثل هذه الدعاوى.

وهذا الكلام يستلذّه الطبع إذ فيه البطالة وترك الأعمال، مع تزكية النفس بدرك المقامات والأحوال. وإذا أنكر ذلك عليهم قالوا: هذا إنكار مصدره العلم والجدل، والعلم حجاب، والجدل عمل النفس، وهذا الحديث «الذي يتحدثون به» لا يلوح إلا من الباطن بمكاشفة نور الحق.

وهذا الكلام مما قد استطار في البلاد شرّه، وعظم ضرره، أما ما حكي عن البسطامي فلا يصح عنه وإن سمع ذلك منه، فلعله كان يحكيه عن الله عز وجل بكلام يُردّده في نفسه، كما لو سمع وهو يقول: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى﴾ فإنه ما كان ينبغي أن يفهم منه ذلك إلا على سبيل الحكاية.

الثاني: الصنف الثاني من الشطح هو عبارة عن كلمات غير مفهومة لها ظواهر رائقة وفيها عبارات هائلة وليس وراءها طائل. وذلك إما أن تكون غير مفهومة عند قائلها بل يصدرها عن خبط في عقله وتشويش في خياله لقلّة إحاطته بمعنى كلام قرع سمعه، وهذا هو الأكثر، وإما أن تكون مفهومة له ولكنه لا يقدر على تفهيمها وإيرادها بعبارة تدل على ما في ضميره لقلة ممارسته للعلم، ولعدم تعلّمه طريق التعبير عن المعاني بالألفاظ الرشيقة. ولا فائدة لهذا الجنس من الكلام إلا أنه يشوش القلوب ويدهش العقول ويحيّر الأذهان، أو يحمل على أن يفهم منها معاني غير ما أريدت له، فيكون فهم كل واحد على مقتضى هواه وطبعه. وقد قال النبيﷺ:

«ما حدّث أحدكم قوماً بحديث لا يفهمونه إلا كان فتنة عليهم»(١).

(١) أخرجه مسلم: ج ١، ص ٩.

وقال ﷺ:

«كلموا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون، أتريدون أن يكذّب الله ورسوله»[1].

وقال عيسى عليه السلام:

«لا تضعوا الحكمة عند غير أهلها فتظلموها ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم، كونوا كالطبيب الرفيق يضع الدواء في موضع الداء»[2].

وفي لفظ آخر:

«من وضع الحكمة في غير أهلها جهلها، ومن منعها أهلها ظلم، إن للحكمة حقاً وإن لها أهلاً، فأعط كل ذي حق حقّه».

٣ ـ الطامّات:

وهو صرف ألفاظ الشرع عن ظواهرها المفهومة إلى أمور باطنة لم يسبق منها إلى الأفهام شيء، كدأب الباطنية في التأويلات. وهذا أيضاً حرام وضرره عظيم. فإن الألفاظ إذا صرفت عن مقتضى ظواهرها اقتضى ذلك بطلان الثقة بالألفاظ، وتسقط بذلك الفائدة من كلام الله عز وجل وكلام رسوله ﷺ، فإن ما يسبق منه إلى الفهم لا يوثق به والباطن لا ضبط له حيث يمكن تنزيله على وجوه شتى. وهذا أيضاً من البدع الشائعة العظيم ضررها. وبهذا الطريق يتوصل الباطنية إلى هدم جميع الشرائع من خلال تأويل ظواهرها وتنزيلها على مقتضى رأيهم.

---

(١) صحيح بخاري: ج ١، ص ٤٣.

(٢) بحار الأنوار: ج ٢، ص ٦٦.

ومثال على هذه التأويلات قولهم بأن تأويل قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾[1] أنه أشار إلى قلبه. وتأويل قوله تعالى: ﴿أَلْقِ عَصَاكَ﴾[2] أي ألق كل ما تتوكأ عليه وتعتمده مما سوى الله تعالى.

وفي قول الرسول ﷺ: «تسحّروا فإن في السحور بركة»[3] قالوا ان المراد بالسحور الاستغفار بالأسحار. وأمثال ذلك حتى يحرّفوا القرآن عن ظاهره، وبعض هذه التأويلات معلوم بطلانها قطعاً، كتنزيل معنى فرعون على القلب، فإن فرعون شخص محسوس تواتر إلينا وجوده ودعوة موسى له، وليس هو من جنس الملائكة والشياطين.

وكذلك حمل التسحر على الاستغفار، فإن الرسول ﷺ كان يتناول الطعام ويقول: «تسحروا فإن في السحور بركة».

فهذه أمور يدرك بالتواتر والحس بطلانها، وكل ذلك حرام وضلالة وإفساد للدين. وهذا هو معنى قول رسول الله ﷺ: «من فسّر القرآن برأيه فليتبوّأ مقعده من النار» ولا ينبغي أن يفهم منه أنه يجب أن لا يفسّر القرآن بالاستنباط والفكر.

ومن يستجيز من أهل الطامات مثل هذه التأويلات مع علمه بأنها غير مرادة من الألفاظ ويزعم أنه يقصد بذلك دعوة الخلق إلى الحق، فإنه يضاهي بذلك من يستجيز الاختراع والوضع على رسول الله ﷺ. وهذا ظلم وضلال ودخول في الوعيد المفهوم من قوله ﷺ:

«من كذّب عليّ متعمداً فليتبوّأ مقعده من النار».

فانظر إذاً كيف نقلت الألفاظ وغيّرت معانيها، واحترز من الاغترار

---

(١) طه: ٢٤.

(٢) الأعراف: ١١٧.

(٣) صحيح البخاري: ج ٣، ص ٣٦.

بتلبيسات علماء السوء، فإن شرّهم أعظم على الدين من شر إبليس، إذ ان الشيطان بواسطتهم يتذرّع إلى انتزاع الدين من قلوب الخلق، ولهذا لما سئل رسول الله ﷺ عن شر الخلق أبى وقال: «اللهم غفراً - فكرّر عليه - حتى قال ﷺ: هم علماء السوء»[1] إذاً فما ارتضاه السلف من العلوم قد اندرس، وما أكب الناس عليه أكثره مبتدعٌ ومحدث والنبي ﷺ الذي يقول فيه:

«بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء. فقيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال ﷺ: الذين يصلحون ما أفسده الناس من سنّتي والذين يحيون ما أماتوه من سنتي»[2].

(١) مجمع الزوائد: ج ١، ص ١٨٥.

(٢) الترمذي: ج ١٠، ص ٩٦.

سبب إقبال الناس على المناظرة

لما أعرض الناس عن أهل البيت عليهم السلام، وافضت الخلافة بعد الرسول صلى الله عليه وآله إلى أقوام لم يعلموا شيئاً، اضطروا عندها إلى الاستعانة بالفقهاء وإلى استصحابهم في جميع أحوالهم لاستفتائهم في جميع مجاري أحكامهم وإلى طلبهم لتولية القضاء والحكومات. فرأى أهل تلك الأعصار عزّ العلماء وإقبال الولاة والحكام عليهم، فاشرأبوا لطلب العلم توصلاً إلى نيل العزّ ودرك الجاه من قبل الولاة، فأكبوا على الفتاوي وعرضوا أنفسهم على الولاة وتعرّفوا إليهم وطلبوا الولايات والصلات منهم، فمنهم من حرم ومنهم من أنجح، والمنجح لم يخل من ذلّ الطلب ومهانة الابتذال، فأصبح الفقهاء بعد أن كانوا مطلوبين طالبين، وبعد أن كانوا أعزّة بالإعراض عن السلاطين أذلّة بالإقبال عليهم إلا من وفّقه الله في كل عصر من علماء دينه. ثم ظهر بعدهم من سمع مقالات الناس في قواعد العقائد فمالت نفسه إلى سماع الحجج فيها وقويت رغبته في المناظرة والمجادلة في الكلام، فانكب الناس إلى علم الكلام وأكثروا فيها التصانيف، ورتبوا فيها طرق المجادلات، واستخرجوا فنون المناقضات في المقالات، وزعموا أنّ غرضهم الذبّ عن دين الله، والنضال عن السنّة وقمع البدعة.

ثم ظهر بعد ذلك من لم يستصوب الخوض في الكلام وفتح باب المناظرة فيه لما تولّد من فتح هذا الباب من التبغضات والخصومات

المفضية إلى تخريب البلاد، فمالت نفسه إلى المناظرة في الفقه وبيان الأولى من مذاهب المجتهدين، فترك الناس الكلام وفنون العلم وأقبلوا على المسائل الخلافية في الفقه، وزعموا أن غرضهم استنباط دقائق الشرع وتمهيد أصول الفتاوى، حتى أكثروا فيها التصانيف والاستنباطات، ورتبوا فيها أنواع المجادلات وهم مستمرون عليه إلى الآن، وليس يدرى ما الذي قدّر الله فيما بعدنا من الأعصار.

فهذا هو الباعث على الانكباب إلى المناظرة في الخلافيات. ولو مالت نفوس أرباب الدنيا إلى علم آخر من العلوم لمالوا أيضاً ولم يسكتوا عن التعلّل والاعتذار بأن ما اشتغلوا به هو علم الدين، وأنّ لا مطلب لهم سوى التقرّب إلى رب العالمين!.

شروط المناظرة وآدابها

إن المناظرة في أحكام الدين من الدين، ولكن لها شروط ومحل ووقت. فمن اشتغل بها على وجهها وقام بشروطها فقد قام بحدودها، وكانت مناظرته لله ولطلب ما هو حق عند الله. ولمن يناظر لله وفي الله شروط وآداب هي:

الأول: أن يقصد بها إصابة الحق وطلب ظهوره كيف اتفق، لا ظهور صوابه وغزارة علمه وصحّة نظره، فإن ذلك مراء منهي عنه بالنهي الأكيد. ومن علامات هذا القصد ألا يوقعها إلا مع رجاء التأثير. أما إذا علم عدم قبول المناظر للحق وأنه لا يرجع عن رأيه وإن تبيّن له خطأه؛ فمناظرته غير جائزة لترتب الآفات - التي سنذكرها في الفصل القادم - عليها، وعدم حصول الغاية المطلوبة منها.

الثاني: أن لا يكون هناك ثمة شيء ما هو أهم من المناظرة، لأن المناظرة إذا وقعت على وجهها الشرعي وكانت واجبة فهي من فروض الكفايات. فإذا كان هناك ثمّة واجب عيني أو كفائي هو أهم من المناظرة لم يكن الاشتغال بها سائغاً. فمن جملة الفرائض التي لا يعمل بها في هذا الزمان؛ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فقد يكون المناظر في مجلس مناظرته مرتكباً لعدة أفعال منكرة كما لا يخفى على من سبر الأحوال والأفعال المفروضة والمحرمة. ثم هو يناظر فيما لا يتفق أو يتفق نادراً من الدقائق العلمية والفروع الشرعية حتى يجري منه

ومن غيره من الإيذاء والتقصير ما كان من المفترض عليه بالأصل رعايته من النصيحة للمسلمين والمحبّة والمودّة لهم.

الثالث: أن يكون المناظر مجتهداً، حتى إذا بان له الحق على لسان خصمه انتقل إليه. أما غير المجتهد فليس له أن يخالف من يقلّده، فأي فائدة له في المناظرة؟

الرابع: أن يناظر في واقعة مهمة أو في مسألة قريبة من الوقوع. والمهم أن يعيّن الحق ويشخصه جيداً، ولا يطول الكلام زيادة على ما يحتاج إليه عند سعيه لإحقاق الحق. ولا يغترّ بأن المناظرة في تلك المسائل النادرة توجب رياضة الفكر وملكة الاستدلال والتحقيق، كما يحصل ذلك كثيراً لقاصدي حظوظ النفس في إظهار المعرفة، فيتناظرون في التعريفات وما يشتمل عليه من النقوض والتزييفات ونحو ذلك، ولو اختبروا حالهم حق الاختبار لوجدوا أن مقصدهم على غير ذلك الاعتبار.

الخامس: أن تكون المناظرة في الخلوة أحب إليه منها في المحفل، فإن الخلوة أجمع للهمّ وأحرى لصفاء الفكر ودرك الحق، لأن في حضور الخلق ما يحرّك دواعي الرياء والحرص على الإفحام ولو بالباطل. فأصحاب المقاصد الفاسدة يتكاسلون عن الجواب عن المسألة في الخلوة وينشطون ويتنافسون للجواب عنها في المحافل.

السادس: أن يكون في طلب الحق كمنشد ضالة يكون شاكراً متى وجدها. ولا يفرّق بين أن يظهر هذا الحق على يده أو يد غيره، بحيث يرى رفيقه معيناً لا خصماً، ويشكره إذا عرّفه الخطأ وأظهر له الحق. فالحق ضالة المؤمن، وحقّه إذا ظهر الحق على لسان غيره أن يفرح به ويشكره لا أن يخجل ويسوّد وجهه.

السابع: أن لا يمتنع عن إعطاء الدليل ويفسح في المجال للسؤال

والاستفسار. حتى يمكن السائل من إيراد ما يحضره ويخرج من كلامه ما يحتاج إليه في إصابة الحق. فإن كثيراً ما ترى المناظرات في المحافل تنقضي بمحض المجادلات حتى إذا طلب المعترض الدليل منع عنه رغم العلم به، فينقضي المجلس على ذلك الإنكار والإصرار على العناد. وهذا هو عين الفساد والخيانة للشرع المطهر والدخول في ذم من كتم علمه.

الثامن: أن يناظر من هو عالم ومعروف بالعلم لكي يستفيد منه إن كان يطلب الحق. ولكن الأغلب من المناظرين يحترزون عن مناظرة العلماء والأكابر، خوفاً من ظهور الحق على لسانهم، فيرغبون فيمن دونهم طمعاً في ترويج الباطل.

ووراء هذه الشروط والآداب شروط أخرى وآداب دقيقة، لكن فيما ذكرنا يهديك إلى معرفة كيفية المناظرة لله، ومن هو المناظر لله تعالى ومن هو المناظر لغيره؟.

آفات المناظرة

إن المناظرة الموضوعة لقصد الغلبة والإفحام وإظهار الفضل والشرف، وقصد المباهاة والمماراة واستمالة وجوه الناس هي منبع جميع الأخلاق المذمومة عند الله تعالى، المحمودة عند عدو الله إبليس، ونسبتها إلى الفواحش الباطنة من الكبر والعجب والرياء والحسد والمنافسة وتزكية النفس وحب الجاه وغيرها نسبة شرب الخمر إلى الفواحش الظاهرة من الزنى والقذف والقتل والسرقة. فكما أن من خيّر بين الشرب وسائر الفواحش استصغر الشرب فأقدم عليه حتى دعاه ذلك إلى ارتكاب بقية الفواحش أثناء سكره، فكذلك من غلب عليه حبّ الإفحام والغلبة في المناظرة وطلب الجاه والمباهاة دعاه ذلك أيضاً إلى إضمار الخبائث كلها في النفس فتتولّد فيه جميع الأخلاق المذمومة التي منها:

١ ـ الحسد:

قال رسول الله ﷺ: «الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»[1].

والمناظر لا ينفك عن الحسد، فهو تارة يَغلب وأخرى يُغلب،

---

(١) أخرجه ابن ماجة: رقم ٤٢١٠.

وتارة يحمد كلامه وأخرى يحمد كلام غيره. فما دام يوجد في الدنيا شخص واحد يذكر بقوة العلم والنظر، أو يظن المناظر أنه أحسن منه كلاماً وأقوى نظراً، فلا بد أن يحسده ويحب زوال النعمة عنه، وانصراف الوجوه والقلوب عنه وتوجهها إليه.

والحسد نار محرقة من ابتلي به فهو في العذاب الأليم في الدنيا، ولعذاب الآخرة أشد وأعظم.

٢ ـ الكبر والترفع عن الناس:

قال رسول الله ﷺ: «من تكبّر وضعه الله ومن تواضع رفعه الله»[1].

وقال ﷺ حكاية عن الله عز وجل:

«العظمة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني فيهما قصمته»[2].

والمناظر لا ينفك عن التكبّر على الأمثال والأقران والترفع عليهم، حتى أنهم يقاتلون على مجلس من المجالس ويتنافسون فيها لنيل الرفعة والقرب من وسادة الصدر وغيرها... وربما يتعلل بأنه يبغي صيانة نفسه وأن المؤمن منهي عن إذلال نفسه، فيعبّر عن التواضع الذي أثنى الله تعالى عليه وسائر أنبيائه بالذل، وعن التكبّر الممقوت عند الله عز وجل بعزّ الدين، تحريفاً للإسم وإضلالاً للخلق.

٣ ـ الحقد:

وهو أيضاً لا يكاد المناظر يخلو عنه، وقد قال النبي ﷺ: «المؤمن ليس بحقود»[3].

---

(١) الكافي: ج ٢، ص ١٢١.

(٢) أخرجه ابن ماجة: رقم ٤١٧٥.

(٣) مضمونه مروي في الكافي: ج ٢، ص ٢٢٦.

وقد ورد في ذم الحقد ما لا يخفى، ولا ترى مناظراً لا يضمر الحقد لخصمه، وإنما يخفيه ويظهر تماسكه في الظاهر وهذا هو النفاق بعينه. وكيف ينفك عنه الحقد ولا يتصوّر اتفاق جميع المستمعين على ترجيح كلامه، ثم لو صدر من خصمه أدنى تشبيب[1] فيه أو قلة مبالاة بكلامه، انغرس في صدره حقد لا تقلعه يد الدهر إلى آخر العمر.

٤ ـ الغيبة:

وقد شبهها الله عز وجل بأكل الميتة، ولا يزال المناظر مثابراً على أكل الميتة، فلا ينفك عن حكاية كلام خصمه ومذمته، فيحكي عنه ما يدل على قصور كلامه وعجزه ونقصان فضله، وهو الغيبة.

٥ ـ تزكية النفس:

قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾[2].

وقيل لحكيم: ما الصدق القبيح، قال: ثناء المرء على نفسه. والمناظر لا يخلو عن الثناء على نفسه بالقوة والغلبة والتقدم والفضل على الأقران. ولا ينفك في أثناء المناظرة عن قوله: لست ممن يخفى عليه أمثال هذه الأمور، وأنا المتفنّن في العلوم والمستقل بالأصول وحفظ الأحاديث.

وغير ذلك مما يتمدّح به تارة على سبيل الصلف[3] وأخرى للحاجة إلى ترويج كلامه. ومن المعلوم أن كلاً من الصلف والتفاخر مذموم شرعاً وعقلاً.

---

(١) التشبيب: شبّب قصيدته أي حسنها وزينها بذكر النساء.

(٢) النجم: ٣٢.

(٣) الصلف: التكلم بما يكرهه صاحبك والتمدح بما ليس عندك.

٦ ـ التجسس وتتبع عورات الناس:

وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾[1].

والمناظر لا ينفك عن طلب عثرات أقرانه وتتبع عورات خصومه، حتى أنه ليخبر عن ورود مناظر إلى البلد فيطلب من يخبره ببواطن أحواله ويستخرج بالسؤال مقابحه ويعد ذلك ذخيرة لنفسه لأجل إفضاحه وتخجيله إذا مسّت إلى ذلك الحاجة، حتى أنه ليستكشف عن أحوال صباه وعن عيوب بدنه إذ عساه يعثر على هفوة أو عيب ما. حتى إذا أحس بأدنى غلبة من جهته عرّض به وفضحه.

٧ ـ الفرح بمساءة الناس والغم بما يسرّهم:

إن كل من لا يحب لأخيه ما يحب لنفسه فهو بعيد عن أخلاق المؤمنين، وكل من طلب المباهاة بإظهار الفضل يسرّه لا محالة ما يسوء أقرانه. حتى يصبح بين المتناظرين هو السمة الغالبة كما يحصل بين الضرائر. فكما أن إحدى الضرائر إذا رأت صاحبتها من بعيد ارتعدت فرائصها واصفرّ لونها، فكذلك ترى المناظر إذا رأى مناظراً مثله اضطرب فكره وكأنه شاهد شيطاناً أو سبعاً ضارياً.

فأين الاستيناس الذي كان يجري بين علماء الدين عند اللقاء، وما نقل عنهم من المؤاخاة والتناصر والتساهم في السرّاء والضرّاء، حتى قيل: العلم بين أهل العقل رحم متّصل.

ويكفي في هذا الخلق مفسدة أن يؤدي بصاحبه إلى النفاق، فيكون من زمرة المنافقين الذين هم متوادّون بالألسنة متباغضون بالقلوب، نعوذ بالله من ذلك، وقد قال رسول الله ﷺ:

«إذا تعلّم الناس العلم وتركوا العمل وتحابّوا بالألسن

---

(١) الحجرات: ١٢.

وتباغضوا بالقلوب وتقاطعوا في الأرحام لعنهم الله عند ذلك فأصمهم وأعمى أبصارهم»(١).

٨ ـ الاستكبار عن الحق وكراهته والحرص على المماراة:

إن أبغض شيء إلى المناظر أن يظهر الحق على لسان خصمه، فإذا ظهر شمر عن ساعد الهمّة وأنكره بأقصى جهده وبذل غاية إمكانه في المخادعة والمكر والحيلة لدفعه حتى تصبح المماراة في طبيعته، فلا يسمع كلاماً إلا وينبعث من طبعه داعية إلى الاعتراض عليه حتى يغلب ذلك على قلبه.

وقد حذر الرسولﷺ من المماراة ودعا إلى تركها حيث قالﷺ:

«من ترك المراء وهو مبطلٌ بنى الله له بيتاً في ربض الجنة، ومن ترك المراء وهو محقٌ بنى الله له بيتاً في أعلى الجنّة»(٢).

وقد قال الله تعالى:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾(٣).

وقال عز وجل أيضاً:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾(٤).

---

(١) أخرجه الطبراني.
(٢) الترغيب: ج ١، ص ١٣٠.
(٣) العنكبوت: ٦٨.
(٤) الزمر: ٣٢.

٩ ـ الرياء:

وهو ملاحظة الخلق والجهد في استمالة قلوبهم وصرف وجوههم إليه. والرياء هو الداء العضال الذي يدعو إلى أكبر الكبائر، والمناظر لا يقصد إلا الظهور عند الخلق وإطلاق ألسنتهم بالثناء عليه.

فهذه إذاً تسع آفات هي من أمهات الفواحش الباطنية. ثم قد ينشعب من هذه الخصال الفاسدة رذائل أخرى لم نطوّل بذكرها مثل: الأنفة والغضب والبغضاء والطمع وحب المال والجاه والمباهاة والأشر والبطر وتعظيم الأغنياء والسلاطين واستحقار الناس بالفخر والخيلاء والخوض فيما لا يعني وكثرة الكلام وخروج الخشية من القلب واستيلاء الغفلة عليه واستغراق العمر في العلوم التي لا تنفع في الآخرة، وغير ذلك من أمور لا تحصى والمناظرون يتفاوتون فيها بحسب درجاتهم. وقد ورد في ذمة المناظرة والخصومة في الدين روايات كثيرة منها ما جاء عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال: «من طلب الدين بالجدل تزندق»[(١)].

وروي أن رجلاً قال للحسين بن علي عليه السلام: اجلس حتى نتناظر في الدين، فقال عليه السلام:

> «يا هذا أنا بصير بديني، مكشوف عليّ هداي، فإن كنت جاهلاً بدينك فاذهب فاطلبه ما لي وللمماراة»[(٢)].

وعن أبي عبيدة عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال:

> «قال لي: يا أبا عبيدة إياك وأصحاب الخصومات والكذابين علينا فإنهم تركوا ما أمروا بعلمه وتكلفوا ما

---

(١) كتاب الاعتقادات: ص ٧٤.

(٢) مصباح الشريعة: ٤٨.

لم يؤمروا بعلمه حتى تكلّفوا علم السماء، يا أبا عبيدة خالقوا الناس بأخلاقهم وزايلوهم بأعمالهم، إنا لا نعدّ الرجل فقيهاً عاقلاً حتى يعرف لحن القول، ثم قرأ هذه الآية: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾»[1].

وعن أبي جعفرعليه السلام أيضاً قال:

«الخصومة تمحق الدين وتحبط العمل وتورث الشك»[2].

وعن الإمام الصادقعليه السلام قال:

«لا يخاصم إلا شاك أو من لا ورع له»[3].

وعن أبي الحسنعليه السلام أنه قال لعليّ بن يقطين:

«مر أصحابك أن يكفّوا من ألسنتهم ويدعوا الخصومة في الدين ويجتهدوا في عبادة الله عز وجل»[4].

سأل أحدهم أبا الحسنعليه السلام: إنهم نهوا عن الكلام في الدين، فتأوّل مواليك المتكلمون بأنه إنما نهى من لا يحسن أن يتكلم فيه، فأما من يحسن أن يتكلم فيه فلم ينهه، فهل ذلك كما تأوّلوا أو لا؟

فكتبعليه السلام: «المحسن وغير المحسن لا يتكلم فيه، فإن إثمه أكبر من نفعه»[5].

إذاً فهذه الرذائل لازمة للمشتغل بالتذكير والوعظ إذا كان قصده

(١) توحيد الصدوق: ص ٤٧٦.

(٢) أصول الكافي.

(٣) أصول الكافي.

(٤) أصول الكافي.

(٥) التوحيد: ص ٤٧٧.

طلب القبول وإقامة الجاه ونيل الثروة والعزّ وكذلك هي أيضاً لازمة للمشتغل بعلم المذهب والفتاوى إذا كان قصده طلب القضاء وولاية الأوقاف والتقدم على الأقران، وبالجملة هي لازمة لكل من يطلب بالعلم غير ثواب الآخرة. فالعلم لا يهمل العالم بل يهلكه هلاك الأبد أو يحييه حياة الأبد، ولذلك قال النبيﷺ:

«أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لا ينفعه الله تعالى بعلمه»[1].

فخطر العلم عظيم وطالبه طالب آلة الملك المؤبد والنعيم السرمد، لذا لا ينفك طالبه عن الملك أو الهلاك.

والعالم الطالب للرئاسة هالك رغم أنه قد يصلح بسببه غيره إن كان يدعو إلى ترك الدنيا، وذلك فيمن كان حاله في ظاهر الأمر حال العلماء ولكنه يضمر قصد الجاه في الباطن؛ فمثاله مثال الشمعة التي تحرق نفسها ليستضيء بها غيرها فيكون صلاح غيره في هلاكه. أما إذا كان يدعو إلى طلب الدنيا فمثاله النار المحرقة التي تأكل نفسها وغيرها معاً. وقد قال فيهم رسول اللهﷺ:

«إن الله عز وجل يؤيّد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم»[2].

وقالﷺ أيضاً:

«إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»[3].

فالعلماء ثلاثة:

---

(١) أخرجه الطبراني في الصغير.
(٢) الجامع الصغير.
(٣) مسند أحمد: ج ٢، ص ٣٠٩.

١ ـ إما مهلك نفسه وغيره وهم المصرّحون بطلب الدنيا والمقبلون عليها.

٢ ـ إما مسعد نفسه وغيره وهم الداعون إلى الله عز وجل المعرضون عن الدنيا ظاهراً وباطناً.

٣ ـ إما مهلك نفسه مسعد غيره وهو الذي يدعو إلى الآخرة وقد رفض الدنيا في ظاهره وقصده في الباطن رضا الخلق والجاه.

فانظر من أي الأقسام أنت وما الذي اشتغلت بالإعداد له؟ ولا تظنن أن الله سبحانه يقبل غير الخالص لوجهه من العلم والعمل.

آداب المتعلّم ووظائفه

إن آداب المتعلم ووظائفه كثيرة ولكن يمكن أن تختصر بتسع:

الأولى: تقديم طهارة النفس عن رذائل الأخلاق ومذموم الأوصاف. إذ العلم عبادة القلب وصلاة السرّ وقرب الباطن إلى الله عز وجل. فكما لا تصح الصلاة التي هي وظيفة الجوارح الظاهرية إلا بتطهير الظاهر من الأحداث والأخباث، فكذلك لا تصح عبادة الباطن وعمارة القلب بالعلم إلا بعد طهارته من الأخلاق الخبيثة والأوصاف المذمومة.

قال النبي ﷺ «بني الإسلام على النظافة»، وهو كذلك ظاهراً وباطناً.

وقال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾[1] تنبيهاً للعقول على أن الطهارة والنجاسة ليست مقصورة على الظواهر المدركة بالحواس.

فالمشرك قد يكون نظيف الثوب والبدن ولكنه نجس الجوهر، أي أن باطنه ملطخ بالخبائث. والنجاسة عبارة عما يجتنب ويطلب البعد عنه، وخبائث صفات الباطن أهم بالاجتناب فإنها مع خبثها في الحال مهلكات في المآل. ولذلك قال النبي ﷺ:

---

(١) التوبة: ٢٨.

«لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب»[1].

والقلب هو منزل الملائكة ومهبط أثرهم ومحلّ استقرارهم، والصفات المذمومة مثل الغضب والشهوة والحقد والحسد والكبر والعجب وأخواتها؛ كلاب نابحة، فأنى تدخل الملائكة إلى مثل هذا البيت، ونور العلم لا يقذفه الله عز وجل في القلب إلا بواسطة الملائكة، حيث قال عز وجل:

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾[2].

وهكذا فإنه ما يرسل إلى القلوب من رحمة العلوم إنما تتولاها الملائكة الموكلون بها، وهم المقدسون المطهّرون المبرّؤون عن المذمومات، فلا يلاحظون إلا طيباً ولا يعمرون بما عندهم من خزائن رحمة الله سبحانه إلا طاهراً. أما القلب المشحون بالغضب والشره إلى الدنيا والتكالب عليها والحرص على تمزيق أعراض الناس؛ فهو قلب في الصورة الظاهرية ولكنه كلب في المعنى والباطن. ونور البصيرة والعلم يلاحظ المعاني دون الصور، والصور في هذا العالم المادي غالبة على المعاني والمعاني باطنة فيها، أما في الآخرة فإن الصور تتبع المعاني وتكون المعاني هي الغالبة، لذلك يحشر كل إنسان على صورته المعنوية. فيحشر الممزّق لأعراض الناس على صورة كلب ضارٍ، والشره على أمواله على صورة ذئب، والمتكبر يحشر على صورة نمر، وطالب الرئاسة على صورة أسد، وقد وردت بذلك الأخبار وشهد به الاعتبار عند ذوي البصائر والأبصار.

نعم قد تقول: ولكننا نرى جماعة من الفقهاء المحققين برزوا في

---

(١) رواه الصدوق في الفقيه: ج ١، ص ١٥٩.

(٢) الشورى: ٥١.

الأصول والفروع وعدّوا من جملة الفحول ولكن أخلاقهم ذميمة لم يتطهروا منها. والصحيح أنك إذا عرفت مراتب العلوم وعرفت علم الآخرة استبان لك أن ما اشتغلوا به قليل الغناء من حيث كونه علماً، وإنما غناؤه من حيث كونه عملاً لله تعالى إذا قصد به التقرّب إلى الله سبحانه.

الثانية: أن يقلل من تعلقه بمشاغل الدنيا ويبعد عن الوطن والأهل، فإن العلائق شاغلة وصارفة و﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾[1] ولذلك قيل: العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلّك، فإذا أعطيته كلّك فأنت من إعطائه إياك بعضه على خطر.

الثالثة: أن لا يتكبّر على العلم ولا يتأمّر على المعلّم، بل يلقي إليه زمام أمره بالكامل في كل تفصيل، ويذعن لنصحه إذعان المريض الجاهل للطبيب المشفق الحاذق. وينبغي أن يتواضع لمعلّمه ويطلب الثواب والشرف بخدمته.

قال النبيﷺ: «وليس من أخلاق المؤمن التملّق إلا في طلب العلم»[2].

فلا ينبغي لطالب العلم أن يتكبّر على العلوم. ومن تكبّره على العلم أن يستنكف عن الاستفادة إلا من المرموقين والمشهورين، وهو عين الحماقة. فإن العلم سبب النجاة والسعادة ومن طلب مهرباً من سبع ضار يفترسه لم يفرّق بين أن يرشده إلى المهرب مشهور، أو خامل. فالحكمة ضالة المؤمن يغتنمها حيث يظفر بها.

إذاً فلا ينال العلم إلا بالتواضع وإلقاء السمع. قال الله تعالى:

---

(١) الأحزاب: ٤.

(٢) المختصر: ص ٦٤.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾[1].

ومعنى كون الإنسان ذا قلب؛ أن يكون قابلاً للعلم والفهم. ثم لا تغنيه القدرة على الفهم حتى يلقي السمع وهو شهيد حاضر القلب، يستقبل كل ما ألقي إليه بحسن الإصغاء والضراعة والشكر والفرح وقبول المنّة لله تعالى.

فليكن المتعلم لمعلّمه كأرض دمثة نالت مطراً غزيراً حتى شربت جميع أجزائها.

ومهما أشار إليه المعلّم بطريق في التعلم فليقلّده وليدع رأيه، فإن خطأ مرشده أنفع له من صوابه في نفسه.

وقد نبّه الله عز وجل بقصة الخضر وموسى صلوات الله عليهما حيث قال الخضر: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾[2].

ثم شرط عليه السكوت والتسليم فقال:

﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾.

ثم لم يصبر، ولم يزل في مراودته إلى أن كان ذلك سبب الفراق بينهما. وبالجملة كل متعلّم استبقى لنفسه رأياً واختياراً وراء اختيار المعلّم، فاحكُم عليه بالإخفاق والخسران.

---

(١) سورة ق: ٣٧.

(٢) الكهف: ٦٧ و٦٨.

أما معنى قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1]، فاعلم أن السؤال مأمور به ولكن فيما يأذن به المعلم. فالسؤال عما لم تبلغ رتبتك إلى فهمه مذموم، ولذلك منع الخضر موسى عليه السلام من السؤال. بمعنى آخر؛ دع السؤال الذي لم يحن أوانه بعد، فالمعلم أعلم بما أنت أهله وبأوان كشفه. فما لم يحن موعد الكشف لم يدخل أوان السؤال عنه أيضاً.

وقد قال أمير المؤمنين علي عليه السلام:

«إن من حق العالم أن لا تكثر عليه بالسؤال، ولا تعنّته في الجواب، ولا تلحّ عليه إذا كسل، ولا تأخذ بثوبه إذا نهض، ولا تفش له سراً، ولا تغتابنّ عنده أحداً، ولا تطلبنّ عثرته، وإن زلّ قبلت معذرته، وعليك أن توقّره وتعظّمه لله ما دام يحفظ أمر الله، ولا تجلس أمامه، وإن كانت له حاجة سبقت القوم إلى خدمته»[2].

الرابعة: أن يحترز الخائض في العلم في بادئ الأمر من الإصغاء إلى اختلافات الناس، سواء ما كان يخوض فيه من علوم الدنيا أو من علوم الآخرة. فإن ذلك يدهش عقله، ويحيّر ذهنه، ويفتر رأيه، ويؤيسه من الإدراك والاطلاع.

بل ينبغي أن يتقن أولاً الطريقة الواحدة المحمودة المرضية عند أستاذه، ثم بعد ذلك يصغي إلى المذاهب الأخرى. وإن لم يكن أستاذه مستقلاً باختيار رأي واحد وإنما عادته نقل آراء المذاهب وما قيل فيها فليتحرز منه، فإن إضلاله أكثر من إرشاده.

---

(١) النحل: ٤٣.

(٢) رواه الشيخ المفيد في الإرشاد: ص ١١١.

ومنع المبتدئ عن الإصغاء إلى الغير يضاهي منع الحديث العهد بالإسلام عن مخالطة الكفار. وندب القوي إلى النظر في الاختلافات يضاهي حث القوي على مخالطة الكفار. ولذلك يمنع العاجز عن التهجّم على صف الكفار وينتدب الشجاع إلى ذلك.

ومن الغفلة عن هذه الدقيقة ظن بعض الضعفاء أن الإقتداء بالأقوياء فيما ينقل عنهم من المسهلات جائز، ولم يدر أن وظائف الأقوياء تخالف وظائف الضعفاء. ولذلك قال بعضهم: من رآني في البداية صار صديقاً ومن رآني في النهاية صار زنديقاً. إذ في النهاية تردّ الأعمال إلى الباطن وتسكّن الجوارح إلا عن رواتب الفرائض، فيتراءى إلى الناظر أنها بطالة وكسل وإهمال، وهيهات فذلك مرابطة للقلب في عين الشهود والحضور، وملازمة للذكر الذي هو أفضل الأعمال على الدوام. وبمثل هذا جوّز للنبيﷺ ما لم يجوّز لغيره، حتى أبيح له تسع نسوة، إذ كانﷺ من القوّة ما يمكنه من العدل بين نسائه وإن كثرن، وأما غيره فلا يقدر على العدل، بل يتعدى حتى ينجرّ إلى معصية الله تعالى في طلب رضاهنّ، فما أفلح من قاس الملائكة بالحدادين.

الخامسة: أن لا يدع طالب العلم فناً من العلوم المحمودة ولا نوعاً من أنواعها إلا وينظر فيه نظراً يطّلع منه على مقصد ذلك العلم وغايته. ثم إن ساعده العمر طلب التبحّر فيه، وإلا اشتغل بالأهم منه وترك البقية.

فالعلوم على درجاتها إما سالكة بالعبد إلى الله تعالى، وإما معينة على السلوك نوعاً من الإعانة، ولها منازل مرتبة في القرب والبعد عن المقصود، والقوّام بها حفظة كحفظة الثغور، ولكل واحد رتبة وله بحسب درجته أجرٌ في الآخرة إن قصد به وجه الله تعالى جلّ جلاله.

السادسة: أن لا يخوض في فنٍ من فنون العلم دفعة واحدة بل يراعي القريبة، فإن العمر إذا كان لا يتّسع لجميع العلوم غالباً فالحزم أن

يأخذ من كل شيء أحسنه ويكتفي منه بشمّه، ويصرف جمام قوته في الميسور من العلم ليصل إلى كمال العلم الذي هو علم الآخرة، أي علم المعاملة والمكاشفة. فغاية المعاملة المكاشفة وغاية المكاشفة معرفة الله تعالى. هذه المعرفة التي هي اليقين، وهي ثمرة نور يقذفه الله تعالى في قلب عبد طهّر بالمجاهدة باطنه من الخبائث. فأشرف العلوم وغايتها معرفة الله عز وجل، وهو بحر لا يدرك منتهى غوره، وأقصى درجات البشر رتبة الأنبياء صلوات الله عليهم، ثم الأولياء، ثم الذين يلونهم.

قال الإمام صادق عليه السلام:

«لو يعلم الناس ما في فضل معرفة الله تعالى ما مدّوا أعينهم إلى ما متّع الله به الأعداء من زهرة الحياة الدنيا ونعيمها. وكانت دنياهم أقلّ عندهم مما يطؤونه بأرجلهم ولنعموا بمعرفة الله تعالى وتلذّذوا بها تلذّذ من لم يزل في روضات الجنان مع أولياء الله، إن معرفة الله تعالى آنس من كل وحشة وصاحب من كل وحدة، ونور من كل ظلمة، وقوّة من كل ضعف، وشفاء من كل سقم، ثم قال: قد كان قبلكم قوم يقتلون ويحرقون وينشرون بالمناشير وتضيق عليهم الأرض برحبها فما يردّهم عما هم عليه شيء مما هم فيه من البلاء غير ترة وتروا[1] من فعل ذلك بهم ولا أذى بل ما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد، فسلوا ربكم درجاتهم، واصبروا على نوائب دهركم تدركوا سعيكم»[2].

---

(١) وتر الرجل: أفزعه وأدركه بمكروه. ووتره ماله: نقصه إياه.

(٢) الكافي: ج ٨، ص ٢٤٧.

السابعة: أن يعرف الأسباب التي بها يدرك شرف العلوم وان ذلك يراد به شيئان:

١ ـ شرف الثمرة.

٢ ـ وثاقة الدليل وقوته.

وذلك كعلم الدين وعلم الطب، فإن ثمرة أحدهما الحياة الأبدية وثمرة الآخر الحياة الفانية، فيكون علم الدين أشرف. ومثل علم الحساب وعلم الطب، فإن الحساب أشرف لوثاقة أدلته وقوتها. وإذا نسب الحساب إلى الطب كان الطب أشرف باعتبار ثمرته، والحساب أشرف باعتبار أدلته وملاحظة الثمرة أولى ولذلك كان علم الطب أشرف.

وبهذا يتبين أن أشرف العلوم العلم بالله سبحانه وتعالى وملائكته وكتبه ورسله والعلم بالطريق الموصل إلى هذه العلوم. فإياك أن ترغب إلا فيها وتحرص إلا عليها.

الثامنة: أن يكون قصد المتعلم في الحال تحلية باطنه وتجميله بالفضيلة، وفي المآل القرب من الله عز وجل والترقي إلى جوار الملأ الأعلى من الملائكة المقربين. فلا يكون قصده من التعلم الرئاسة والمال ومماراة السفهاء ومباهاة الأقران.

ولكن لا ينبغي له مع هذا أن ينظر بعين الحقارة إلى العلوم الأخرى؛ كعلم الفتاوى وعلم النحو واللّغة المتعلقين بالكتاب والسنة وغيرهما مما أوردناه في المقدمات والمتممات من ضروب العلم التي هي فرض كفاية.

ولا تفهمنّ غلوّنا في الثناء على علم الآخرة تهجين هذه العلوم، فالمتكفلون بالعلوم كالمتكفلين بالثغور والمرابطين لها، بحيث انه لا

ينفك واحد منهم عن الأجر إذا كان قصده فقط إعلاء كلمة الله تعالى. فقد قال الله تعالى:

﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۢ﴾(١).

وقال عز وجل: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾(٢).

والفضيلة نسبية واستحقارنا للصيارفة عند قياسهم بالملوك لا يدل على حقارتهم إذا ما قيسوا بالكناسين. ولا تظنن أن ما كان دون الرتبة القصوى فهو ساقط القدر، بل الرتبة العليا للأنبياء صلوات الله عليهم، ثم للأولياء ثم للعلماء الراسخين، ثم للصالحين على تفاوت درجاتهم، وبالجملة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧﴾ ومن قصد الله عز وجل بالعلم أي علم كان نفعه ورفعه لا محالة.

التاسعة: أن يعلم نسبة العلوم إلى المقصد كي لا يؤثر القريب على البعيد، والمهم على غيره. ومعنى المهمّ ما يهمّك ولا يهمّك إلا شأنك في الدنيا والآخرة، وإذا لم تتمكن من الجمع بين ملاذ الدنيا ونعيم الآخرة كما نطق به القرآن وشهد له من نور البصائر ما يجري مجرى العيان، فالأهم ما يبقى أبد الآباد.

وعند ذلك تصير الدنيا منزلاً والبدن موكباً والأعمال سعياً إلى المقصد، ولا مقصد إلا لقاء الله عز وجل. ففيه النعيم كلّه وإن كان لا يعرف في هذا العالم قدره إلا الواصلون وهم الأقلّون. والعلوم بالإضافة إلى سعادة لقاء الله عز وجل والنظر إلى وجهه الكريم على ثلاث مراتب:

الأول: القسم الأول يجري مجرى إعداد الزاد والراحلة؛ وهو

---

(١) المجادلة: ١١.

(٢) آل عمران: ١٦٣.

علم الطب والفقه وما يتعلق بمصالح البدن في الدنيا.

الثاني: قسم يجري مجرى سلوك البوادي وقطع العقبات وهو تطهير الباطن وتهذيبه من الصفات المذمومة.

الثالث: وهو العلم بالله عز وجل وصفاته وأفعاله وملائكته. وههنا النجاة والفوز بالسعادة. فالنجاة حاصلة لكل سالك للطريق إذا كان غرضه المقصد وهو السلامة. وأما الفوز بالسعادة فلا يناله إلا العارفون، فهم المقرّبون والمنعمون في جوار الله عز وجل بالرّوح والريحان وجنّة النعيم.

أما الممنوعون عن ذروة الكمال فلهم النجاة والسلامة كما قال الله تعالى:

﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾[١].

أما من لم يتوجّه إلى المقصد ولم ينهض له أو نهض له ولكن لا على قصد الامتثال والعبودية، بل لغرض عاجل فهو من أصحاب الشمال الضالين فله:

﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾[٢].

---

(١) الواقعة: ٨٨ ـ ٩١.

(٢) الواقعة: ٩٣ ـ ٩٤.

أداب المعلّم ووظائفه

إن للعلم:

١ ـ حال طلب واكتساب.

٢ ـ حال تحصيل يغني عن السؤال.

٣ ـ حال استبصار وهو التفكر في المحصل والتمتع به.

٤ ـ حال تبصير وهو أشرف الأحوال.

فمن علم وعمل فذلك يُدعى عظيماً في ملكوت السماوات، وهو كالشمس تضيء لغيرها وهي مضيئة. أما من يعلم ولا يعمل فهو كالشمعة تضيء لغيرها وتحترق في نفسها. وكل من اشتغل بالتعليم فقد تقلّد أمراً عظيماً وخطراً جسيماً، فليحفظ آدابه ووظائفه وهي:

الأولى: الشفقة على المتعلمين. وأن يجريهم مجرى نبيه. فقد قال رسول الله ﷺ: «إنما أنا لكم مثل الوالد لولده»(١).

فقصد المعلم إنقاذ المتعلمين من نار الآخرة وذلك أهم من إنقاذ الوالدين ولدهما من نار الدنيا، ولذلك صار حق المعلّم أعظم من حق الوالدين. فإن الوالد سبب الوجود الحاضر والحياة الفانية، والمعلم

---

(١) أخرجه الدارمي: ج ١، ص ١٧٢.

سبب الحياة الباقية بشرط أن يكون قصده الآخرة، أما إذا كان قصده من التعليم تحصيل الدنيا فهو هلاك وإهلاك، نعوذ بالله منه.

وكما أن حق أبناء الرجل الواحد أن يتحابوا ويتعاونوا على إنجاز الأعمال، فحق تلامذة المعلم أيضاً التحاب، وهذا لا يكون إلا إن كان مقصودهم هو الآخرة فقط. أما إن كان مقصودهم الدنيا فلا يكون بينهم إلا التحاسد والتباغض.

فالعلماء وأبناء الآخرة مسافرون إلى الله عز وجل، وسالكون إليه، والدنيا وسنوّها وشهورها منازل الطريق، والترافق في الطريق بين المسافرين سبب التواد والتحاب، فكيف بالسفر إلى الفردوس الأعلى والترافق في طريقه. ولأنه لا ضيق في سعادة الآخرة فلذلك لا يكون بين أبناء الآخرة تنازع. قال الله تعالى:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[1].

الثانية: أن يقتدي بصاحب الشرعﷺ، فلا يطلب على إفاضة العلم أجراً، ولا يقصد به جزاءً ولا شكوراً. بل يعلّم لوجه الله تعالى وطلباً للتقرّب إليه، فلا يرى لنفسه منّة عليهم وإن كانت المنّة لازمة عليهم، بل يرى الفضل لهم إذ هذّبوا قلوبهم لأن يتقرّب إلى الله تعالى بزراعة العلوم فيها. وقد قال الله تعالى:

﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾[2].

الثالثة: أن لا يدّخر في نصح المتعلّم شيئاً، وذلك بأن يمنعه من التصدي لرتبة قبل استحقاقها، والانشغال بعلم خفي قبل الفراغ من الجليّ. ثم ينبّهه ان مطلب العلوم والغاية منها القرب من الله تعالى دون

---

(١) الحجرات: ١٠.

(٢) الأنعام: ٩٠.

الرئاسة والمباهاة والمنافسة، ويقرّر ذلك ويثبته في نفسه بأقصى ما يمكن. فإن علم ان باطن المتعلم لا يطلب العلم إلا للدنيا، نظر إلى العلم الذي يطلبه، فإن كان من علوم الدنيا المتعلقة بالدين منعه عن ذلك، وإن كان من علوم الآخرة ولكن قصد بها الدنيا فلا بأس أن يتركه إذ لعله يتعظ بما يعظ به غيره فيعود إلى جادة الصواب. وقد فعل الله عز وجل ذلك بعباده إذ جعل الشهوة ليصل الخلق بها إلى بقاء النسل، وخلق أيضاً حب الجاه ليكون سبباً لإحياء العلوم.

الرابعة: وهي من دقائق صناعة التعليم؛ وهو أن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق بطريق التعريض[١] ما أمكن من غير أن يصرّح بذلك. وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ. فإن التصريح يهتك حجاب الهيبة ويورث الجرأة على الهجوم بالخلاف، ويهيّج الحرص على الإصرار. فقد قال رسول الله ﷺ وهو مرشد كل معلّم:

«لو منع الناس عن فت البعر لفتّوه وقالوا: ما نهينا عنه إلا وفيه شيء».

أما التعريض فيحمل النفوس الفاضلة والأذهان الزكية إلى استنباط معاني كلام المعلم ومقصوده. فيؤدي فرح التفطّن لمعنى كلام المعلم ومقصوده إلى العمل به، لأن ترك العمل بنصيحة المعلم وزجره لا يعزب عن فتنة.

الخامسة: إن المتكفّل ببعض العلوم لا ينبغي أن يقبح العلوم الأخرى في نفس المتعلّم، كمعلم اللغة إذ عادته تقبيح الفقه، ومعلم الفقه عادته تقبيح الحديث والتفسير ومعلم الكلام ينفر من الفقه. فإن هذا التصرف من شأن العجائز ومن لا عقل لهم، وهي أخلاق مذمومة

---

(١) التعريض في الكلام: ما تفهم به السامع مرادك من غير تصريح.

للمعلّمين ينبغي أن يتجنبوا عنها. بل ان المتكفل بعلم من العلوم عليه أن يوسع على المتعلم طريق التعلّم من غيره. وإن كان متكفلاً بعدة علوم فينبغي أن يراعي التدريج في ترقية المتعلّم من رتبة إلى رتبة أخرى.

السادسة: أن يقتصر على قدر فهم المتعلّم فلا يلقي إليه ما لا يبلغه عقله فينفّره أو يفسد عليه عقله، اقتداءً بسيد البشر محمدﷺ حيث قال:

«نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن ننزّل الناس منازلهم ونكلّم الناس على قدر عقولهم»(١).

وقالﷺ:

«ما أحد يحدّث قوماً بحديث لا يبلغه عقولهم إلا كان فتنة على بعضهم»(٢).

وقال أمير المؤمنين عليعليه السلام:

«إنّ ههنا علوماً جمّة، لو وجدت لها حملة»(٣).

صدق أمير المؤمنينعليه السلام، فقلوب الأبرار قبور الأسرار، فلا ينبغي أن يفشي العالم كل ما يعلمه إلى كل أحد. هذا إذا كان المتعلّم يفهمه ولكن لم يكن أهلاً للانتفاع به، فكيف فيما لا يفهمه!

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾(٤) تنبيه؛ على أن حفظ العلم ممّن يفسده ويضرّه أولى وأهم، وليس الظلم في إعطاء غير المستحق بأقل من الظلم في منع المستحق. كما قيل:

---

(١) الصدوق في الأمالي: ص ٢٥٠.

(٢) صحيح مسلم: ص ٩، المقدمة.

(٣) النساء: ٥.

ومن منح الجهال علماً أضاعه ومن منع المستوجبين فقد ظلم

السابعة: إن المتعلّم قاصرٌ، لذا ينبغي أن يلقى عليه ما هو جليّ ولائق به، فلا يذكر له أنّ وراء هذا القول تدقيقاً وانه يدّخره عنه. فإن ذلك يفتر رغبته فيما هو واضح وجلي ويشوش قلبه ويوهم إليه البخل به عنه، إذ يظن انه أهل لكل علم دقيق، وهو راضٍ عن الله عز وجل في كمال عقله. علماً أن أشد الناس حماقة وأضعفهم عقلاً هو أفرحهم بكمال عقله.

وبهذا يعلم أن من تقيّد من العوام بقيد الشرع ورسخت في نفسه العقائد المأثورة عن السلف لم يحتمل عقله أكثر من ذلك، فلا ينبغي أن يشوش عليه اعتقاده، بل ينبغي أن يخلّى واعتقاداته فإنه لو ذكرت له تأويلات الظواهر وحقيقتها لانحلّت عنه صفة العوام ولكن دون الدخول في صفة الخواص، فيرتفع السّد الذي بينه وبين المعاصي وينقلب شيطاناً مريداً يهلك نفسه وغيره. لذا لا ينبغي أن يخاض مع العوام في حقائق العلوم الدقيقة بل يقتصر معهم على تعليم العبادات وتعليم الأمانة في الحرفة التي هو بصددها، ويملأ قلبه من الرغبة والرهبة بالجنة والنار، كما نطق به القرآن الكريم، ولا يحرّك عليه شبهة فإنه ربما تعلق الشبهة في قلبه ويعسر عليه حلها، فيشقى ويهلك.

وبالجملة لا ينبغي أن يفتح باب البحث للعوام، فإنه يعطّل عليهم مهنتهم التي بها قوام الخلق، ودوام عيش الخواص.

الثامنة: أن يكون المعلّم عاملاً بعلمه، فلا يكذّب قوله بفعله. فإذا خالف العمل العلم منع الرشد، وقد قال الله تعالى:

﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾[1]. ولذلك كان وزر العالِم في

---

(١) البقرة: ٤٤.

معاصيه أكبر إذ يزل بزلّته أناس كثيرون يقتدون به.

«ومن سنّ سنّة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها»[1].

ولذلك قال أمير المؤمنين علي عليه السلام:

«قصم ظهري رجلان: عالم متهتّك وجاهل متنسّك، فالجاهل يغرّ الناس بتنسّكه، والعالم ينفّرهم بتهتّكه»[2].

(١) أخرجه ابن ماجة: رقم ٢٠٣.

(٢) غوالي اللئالئ.

علماء السوء في الآيات والروايات

وردت في علماء السوء تشديدات عظيمة دلّت على أنهم أشد الخلق عذاباً يوم القيامة، لذا كانت معرفة العلامات الفارقة بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة من المهمات العظيمة. ونعني بعلماء الدنيا؛ العلماء السوء الذين يقصدون من العلم التنعّم بالدنيا والتوصل إلى الجاه والمنزلة عند أهلها.

وقد وردت روايات كثيرة تتحدث عن هذه الفئة من الناس منها: قول النبي ﷺ:

«أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه»[١].

وروي عن الرسول ﷺ أيضاً أنه قال:

«لا يكون المرء عالماً حتى يكون بعلمه عاملاً»[٢].

وقال النبي ﷺ أيضاً:

«العلم علمان؛ علم على اللسان فذلك حجّة الله عز

---

(١) أخرجه الطبراني في الصغير.

(٢) أخرجه ابن حبان في كتاب روضة العقلاء.

وجل على ابن آدم، وعلم في القلب فذلك العلم النافع»[1].

وقال ﷺ:

«يكون في آخر الزمان عبّاد جهّال وعلماء فسّاق»[2].

وقال ﷺ:

«لا تتعلموا العلم لتباهوا به العلماء ولتماروا به السفهاء ولتصرفوا وجوه الناس إليكم، فمن فعل ذلك فهو في النار»[3].

وقال ﷺ)

«من كتم علماً عنده أُلجم بلجام من نار»[4].

وقال ﷺ:

«من ازداد علماً ولم يزدد هدى لم يزدد من الله إلا بعداً»[5].

عن أمير المؤمنين علي عليه السلام، أن رسول الله ﷺ قال:

«العلماء رجلان؛ رجل عالم آخذ بعلمه فهذا ناج، وعالم تارك لعلمه فهذا هالك. وإن أهل النار ليتأذّون من ريح العالم التارك لعلمه، وإن أشد أهل النار ندامة وحسرة رجل دعا عبداً إلى الله فاستجاب له وقبل منه فأطاع الله وأدخله الله الجنة، وأدخل الداعي النار

---

(١) الدارمي: ج ١، ص ١٠٢.

(٢) أخرجه الحاكم من حديث أنس.

(٣) الدر المنثور: ج ١، ص ١٠٤.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك: ج ١، ص ١٠٢.

(٥) أخرجه الديلمي في الفردوس.

بتركه علمه وإتباعه الهوى وطول الأمل، أما اتباع الهوى فيصدّ عن الحق وأما طول الأمل ينسي الآخرة»[1].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«منهومان لا يشبعان: طالب علم وطالب دنيا، فمن اقتصر من الدنيا على ما أحلّ الله له سلم، ومن تناولها من غير حلّها هلك، إلا أن يتوب أو يراجع، ومن أخذ العلم من أهله وعمل بعلمه نجا، ومن أراد به الدنيا فهي حظّه»[2].

وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام في كلام له خطب به على المنبر:

«أيها الناس؛ إذا علمتم فاعملوا بما علمتم لعلكم تهتدون. إن العالم العامل بغيره كالجاهل الحائر الذي لا يستفيق عن جهله، بل قد رأيت أن الحجّة عليه أعظم والحسرة أدوم على هذا العالم المنسلخ من علمه منها على هذا الجاهل المتحيّر في جهله، وكلاهما حائر بائر. لا ترتابوا فتشكوا ولا تشكوا فتكفروا، ولا ترخّصوا لأنفسكم فتدهنوا، ولا تدهنوا في الحق فتخسروا، وإن من الحق أن تفقّهوا، ومن الفقه أن لا تغترّوا، وأنّ أنصحكم لنفسه أطوعكم لربّه، وأغشّكم لنفسه أعصاكم لربّه، ومن يطع الله يأمن ويستبشر، ومن يعص الله يخب ويندم»[3].

(١) الكافي: ج ١، ص ٤٤، رقم ١.
(٢) الكافي: ج ١، ص ٤٦، رقم ١.
(٣) الكافي: ج ١، ص ٤٥، رقم ٦.

وعن علي بن الحسين عليه السلام قال:

«جاء رجل فسأله عن مسائل فأجاب، ثم عاد ليسأل عن مثلها فقال علي بن الحسين عليه السلام: مكتوب في الإنجيل لا تطلبوا علم ما لا تعلمون ولمّا تعملوا بما علمتم، فإن العلم إذا لم يعمل به لم يزدد صاحبه إلا كفراً ولم يزدد من الله إلا بعداً»[1].

وعن الإمام الباقر عليه السلام قال:

«من طلب العلم ليباهي به العلماء، أو يماري به السفهاء، أو يصرف به وجوه الناس إليه، فليتبوّأ من النار إن الرئاسة لا تصلح إلا لأهلها»[2].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«العلم مقرون بالعمل، فمن علم عمل ومن عمل علم، والعلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل عنه»[3].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً أنه قال:

«إن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلّت موعظته عن القلوب كما يزلّ المطر عن الصفا»[4].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«من أراد الحديث لمنفعة الدنيا لم يكن له في الآخرة

---

(١) الكافي: ج ١، ص ٤٤، رقم ٤.
(٢) المصدر السابق: ص ٤٧، رقم ٦.
(٣) المصدر السابق: ص ٤٤، رقم ٢.
(٤) المصدر السابق: ص ٤٤، رقم ٣.

نصيب، ومن أراد به خير الآخرة أعطاه الله خير الدنيا والآخرة»[1].

وعنه عليه السلام أيضاً أنه قال:

«إذا رأيتم العالم محبّاً لدنياه، فاتّهموه على دينكم فإن كل محب للشيء يحوط ما أحب»[2].

وعنه عليه السلام قال:

«أوحى الله إلى داود عليه السلام: لا تجعل بيني وبينك عالماً مفتوناً بالدنيا فيصدّك عن طريق محبتي، فإن أولئك قطاع طريق عبادي المريدين، إن أدنى ما أنا صانع بهم أن أنزع حلاوة مناجاتي عن قلوبهن»[3].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً أنه قال:

«قال رسول الله صلى الله عليه وآله: الفقهاء أمناء الرسل ما لم يدخلوا في الدنيا. قيل: يا رسول الله وما دخولهم في الدنيا؟ قال صلى الله عليه وآله: اتّباع السلطان، فإذا فعلوا ذلك فاحذروهم على دينكم»[4].

وعنه عليه السلام قال:

«طلبة العلم ثلاثة فأعرفهم بأعيانهم وصفاتهم: صنف يطلبه للجهل والمراء، وصنف يطلبه للاستطالة والختل، وصنف يطلبه للفقه والعقل. فصاحب الجهل

---

(١) الكافي: ج ١، ص ٤٦، رقم ٢.
(٢) الكافي: ج ١، ص ٤٦، رقم ٤.
(٣) الكافي: ج ١، ص ٤٦.
(٤) الكافي: ج ١، ص ٤٦، رقم ٥.

والمراء مؤذ ممار متعرّض للمقال في أندية الرجال بتذاكر العلم وصفة الحلم، قد تسربل بالخشوع وتخلى عن الورع، فدق الله من هذا خيشومه وقطع منه حيزومه. وصاحب الاستطالة والختل ذو خِبٍّ وملق يستطيل على مثله من أشباهه ويتواضع للأغنياء من دونه، فهو لحلوائهم هاضم ولدينه حاطم، فأعمى الله على هذا خبره وقطع من آثار العلماء أثره. وصاحب الفقه والعقل ذو كآبة وحزون وسهر قد تحنّك في برنسه وقام الليل في حندسه، يعمل ويخشى وجلاً داعياً مشفقاً مقبلاً على شأنه، عارفاً بأهل زمانه، مستوحشاً من أوثق إخوانه، فشدّ الله من هذا أركانه وأعطاه يوم القيامة أمانه»[1].

وعنه عليه السلام أنه قال:

«يغفر للجاهل سبعون ذنباً قبل أن يغفر للعالم ذنب واحد»[2].

وعنه عليه السلام أنه قال:

«قال عيسى ابن مريم عليه السلام: ويل للعلماء السوء كيف تلظّى عليهم النار»[3].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً أنه قال:

«إن من العلماء من يحب أن يجمع علمه ولا يحب أن

---

(١) الكافي ج ١، ص ٤٩، رقم ٥.
(٢) الكافي: ج ١، ص ٤٧، رقم ١.
(٣) المصدر السابق: رقم ٢.

يؤخذ عنه فذاك في الدرك الأوّل من النار، ومن العلماء من إذا وُعِظ أنف وإذا وعَظَ عنّف فذاك في الدرك الثاني من النار، ومن العلماء من يرى أن يضع العلم عند ذوي الثروة والشرف ولا يرى له في المساكين وضعاً فذاك في الدرك الثالث من النار. ومن العلماء من يذهب في علمه مذهب الجبابرة والسلاطين فإن ردّ عليه من قوله أو قصّر في شيء من أمره غضب فذاك في الدرك الرابع من النار. ومن العلماء من يطلب أحاديث اليهود والنصارى ليغزر به علمه ويكثر به حديثه فذاك في الدرك الخامس من النار. ومن العلماء من يضع نفسه للفتيا ويقول: سلوني، ولعلّه لا يصيب حرفاً واحداً، والله لا يحبّ المتكلّفين فذاك في الدرك السادس من النار، ومن العلماء من يتّخذ العلم مروّة وعقلاً فذاك في الدرك السابع من النار»(١).

وإنما يضاعف عذاب العالِم في معصيته لأنه عصى عن علمٍ ولذلك قال الله عز وجل:

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾(٢).

لأنهم جحدوا بعد العلم. وجعل اليهود شرّاً من النصارى مع أنهم جعلوا لله سبحانه ولداً، لأنهم (أي اليهود) أنكروا بعد المعرفة، إذ قال الله تعالى:

﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾(٣).

---

(١) الصدوق: كتاب الخصال.

(٢) النساء: ١٤٥.

(٣) البقرة: ١٤٦.

وقال عز وجل: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾[1].

وقال تعالى في قصة بلعم بن باعورا:

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2].

فبلعم مثال للعالم الفاجر الذي أوتي كتاب الله عز وجل فأخلد إلى الشهوات، فشبهه الله تعالى بالكلب اللاهث خلف الشهوات.

وقال نبي الله عيسى عليه السلام:

«مثل علماء السوء مثل صخرة وقعت على فم النهر لا هي تشرب الماء ولا هي تترك الماء يخلص إلى الزرع، ومثل علماء السوء كمثل قناة الحشّ[3] ظاهرها جصٌّ وباطنها نتن، ومثل القبور ظاهرها عامر وباطنها عظام الموتى».

فهذه الأخبار والآثار تبيّن أن العالم الذي هو من أبناء الدنيا أخسُّ حالاً وأشد عذاباً من الجاهل.

---

(١) البقرة: ٨٩.

(٢) الأعراف: ١٧٥ ـ ١٧٦.

(٣) الحش: الكنيف وموضع قضاء الحاجة.

علامات علماء الآخرة

إن الفائزين والمقربين هم علماء الآخرة ولهم علامات يعرفون بها وهي:

١ ـ أن لا يطلب الدنيا بعلمه:

فإن أقل درجات العالم أن يدرك حقارة الدنيا وخستها وكدورتها وانصرامها، وعظم الآخرة ودوامها وصفاء نعيمها وجلالة ملكها، ويعلم أن الدنيا والآخرة متضادتان، وأنهما كالضرتين كلما أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى، وإنهما ككفتي ميزان كلما رجحت إحداهما خفّت الأخرى، وانهما كالمشرق والمغرب متى قربت من أحدهما بعدت عن الآخر.

فإن من لا يعلم حقارة الدنيا وكدورتها وامتزاج لذّتها بألمها وانصرام ما يصفو منها فهو فاسد العقل. فالمشاهدة والتجربة ترشد إلى ذلك، فكيف يكون من العلماء من لا عقل له؟! ومن لا يعلم عظم أمر الآخرة ودوامها فهو كافر [بالنعمة] مسلوب الإيمان، فكيف يكون من العلماء من لا إيمان له؟!

ومن لا يعلم تضاد الدنيا والآخرة وان الجمع بينهما طمع في غير مطمع فهو جاهل بشرائع الأنبياء كلهم بل هو كافر بالقرآن من أوّله إلى آخره، فكيف يعد من زمرة العلماء إذاً؟! ومن علم هذا كلّه ثم لم يؤثر

الآخرة على الدنيا فهو أسير الشيطان، وقد أهلكته شهوته وغلبت عليه شقوته، فكيف يعدّ من أحزاب العلماء من هذه درجته؟!

وفي أخبار داودعليه السلام:

«إن أدنى ما أصنع بالعالم إذا آثر شهواته على محبتي أن أحرمه لذيذ مناجاتي، يا داود لا تسألنّ عني عالماً قد أسكرته الدنيا فيصدّك عن طريق محبتي أولئك قطاع الطريق على عبادي»[1].

ولذلك قيل: عقوبة العلماء موت قلوبهم، وموت قلوبهم طلب الدنيا بعمل الآخرة. وقيل لبعض العارفين: أترى أن من تكون المعاصي قرّة عينه لا يعرف الله؟ قال: لا أشك أن من تكون الدنيا عنده آثر من الآخرة انه لا يعرف الله تعالى وهذا دون ذلك بكثير، ولا تظنن أن ترك المال يكفي في اللّحوق بعلماء الآخرة، فإن الجاه أضرّ من المال.

وقال عيسىعليه السلام:

«كيف يكون من أهل العلم من يكون مسيره إلى آخرته وهو مقبل على دنياه؟ وكيف يكون من أهل العلم من يطلب العلم ليخبر به لا ليعمل به»[2].

وعن النبيصلى الله عليه وآله أنه قال:

«من طلب علماً مما يبتغى به وجه الله تعالى ليصيب به عرضاً من الدنيا، لم يجد عرف الجنة يوم القيامة»[3].

وقد وصف الله عز وجل عالم السوء بأكل الدنيا بالعلم، ووصف عالم الآخرة بالخشوع والزهد فقال عز وجل في علماء الدنيا:

---

(١) بحار الأنوار: ج ٢، ص ١٠٧.

(٢) سنن الدارمي: ج ١، ص ١٠٣.

(٣) سنن أبو داود: ج ٢، ص ٢٩٠.

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾[1].

وقال عز وجل في علماء الآخرة:

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[2].

وعن النبي ﷺ قال:

«أوحى الله تعالى إلى بعض الأنبياء عليهم السلام: قل للذين يتفقهون لغير الدين ويتعلمون لغير العمل ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة ويلبسون للناس مسوك الكباش وقلوبهم كقلوب الذئاب وألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم أمرّ من الصبر، إيّاي يخادعون وبي يستهزؤون: لأتيحنّ لهم فتنة تذر الحليم حيران»[3].

٢ ـ أن لا يخالف قوله فعله:

فلا يأمر بالشيء ما لم يكن هو أوّل عامل به: قال الله تعالى:

﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾[4].

وقال عز وجل: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾[5].

---

(١) آل عمران: ١٨٧.

(٢) آل عمران: ١٩٩.

(٣) المختصر: ص ٩٠.

(٤) البقرة: ٤٤.

(٥) الصف: ٣.

وقال عز وجل في قصة شعيب عليه السلام: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾[1].

وقال تعالى في آيات أخرى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾[2] ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾[3] ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ﴾[4].

وقال الله عز وجل لعيسى عليه السلام:

«يا بن مريم عظ نفسك فإن اتّعظت فعظ الناس وإلا فاستحي مني».

وقال رسول الله ﷺ:

«مررت ليلة أسري بي بقوم كانت تقرض شفاههم بمقاريض من نار، فقلت: من أنتم؟ فقالوا: إنا كنّا نأمر بالخير ولا نفعله، وننهى عن الشرّ ونفعله»[5].

وقال ﷺ:

«هلاّل أمتي عالم فاجر وعابد جاهل، وشرّ الشرار شرار العلماء، وخير الخيار خيار العلماء»[6].

وقال ﷺ:

«تعلموا ما شئتم أن تعلموا، فلن يأجركم الله حتى تعملوا»[7].

---

(١) هود: ٨٨.

(٢) البقرة: ٢٨٢.

(٣) البقرة: ١٩٦.

(٤) المائدة: ١٠٨.

(٥) أخرجه ابن حبان في حديث أنس.

(٦) المختصر: ص ٩١.

(٧) المختصر: ص ٩٧.

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«إن رواة الكتاب كثير وان رعاته قليل، وكم من مستنصح للحديث مستغشّ للكتاب، فالعلماء يحزنهم ترك الرعاية والجهال يحزنهم حفظ الرواية، فراع يرعى حياته وراع يرعى هلكته، فعند ذلك اختلف الراعيان وتغاير الفريقان»[1].

وقال نبي الله عيسى عليه السلام:

«مثل الذي يتعلم العلم ولا يعمل به كمثل امرأة زنت في السرّ فحملت فظهر حملها فافتضحت، فكذلك من لا يعمل بعلمه يفضحه الله تبارك وتعالى يوم القيامة على رؤوس الأشهاد».

وقال الإمام الصادق عليه السلام في تفسير قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[2] قال:

«يعني بالعلماء، من صدّق فعله قوله، ومن لم يصدق فعله قوله فليس بعالم»[3].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«أوحى الله عز وجل إلى داود عليه السلام: أنّ أهون ما أنا صانع بعالم غير عامل بعلمه أشدّ من سبعين عقوبة باطنية؛ أن أخرج من قلبه حلاوة ذكري»[4].

---

(١) الكافي: ج ١، ص ٤٩، رقم ٦.

(٢) فاطر: ٢٨.

(٣) الكافي: ج ١، ص ٣٦، رقم ٢.

(٤) مصباح الشريعة: الباب ٦٢، ص ٤١.

٣ ـ أن تكون عنايته بتحصيل العلم النافع في الآخرة:

فعالم الآخرة همّه تحصيل العلم النافع في الآخرة، المرغب في الطاعة، متجنباً العلوم التي يقلّ نفعها ويكثر فيها الجدال والقيل والقال.

بل ينبغي أن يكون التعلم من جنس ما روي عن بعضهم أنه قال له أستاذه: منذ كم صحبتني؟ فقال: منذ ثلاث وثلاثين سنة. قال الأستاذ: فما تعلّمت مني في هذه المدة؟ فقال: ثمان مسائل. فقال الأستاذ: إنا لله وإنا إليه راجعون، ذهب عمري معك ولم تتعلم إلا ثمان مسائل! قال: يا أستاذ لم أتعلم غيرها ولا أحب أن أكذب. فقال الأستاذ له: هات الثمان مسائل حتى أسمعها؟ قال:

ـ **الأولى**: نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل واحد يحبّ محبوباً؛ فهو مع محبوبه إلى القبر، فإذا وصل إليه فارقه، فجعلت الحسنات محبوبي فإذا دخلت القبر دخل محبوبي معي.

ـ **الثانية**: نظرت في قول الله عز وجل: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾[1]، فعلمت أن قول الله سبحانه هو الحق فأجهدت نفسي في دفع الهوى حتى استقرّت عليّ طاعة الله تعالى.

ـ **الثالثة**: اني نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل من معه شيء له قيمة عنده ومقدار رفعه وحفظه، ثم نظرت في قول الله عز وجل: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾[2] فكلما وقع معي شيء له قيمة ومقدار وجّهته إليه عز وجل ليبقى لي عنده.

ـ **الرابعة**: اني نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل واحد منهم يرجع

---

(١) النازعات: ٤٠ و٤١.

(٢) النحل: ٩٦.

إلى المال والحسب والشرف والنسب، فنظرت فإذا هي لا شيء، ثم نظرت إلى قول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾(1)، فعملت في التقوى حتى أكون عند الله عز وجل كريماً.

ـ **الخامسة**: نظرت إلى هذا الخلق وهم يطعن بعضهم في بعض، ويلعن بعضهم بعضاً، وأصل هذا كله الحسد، ثم نظرت فرجعت إلى قول الله سبحانه: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾(2). فتركت الحسد واجتنبت الخلق وعلمت أن القسمة من عند الله سبحانه وتركت عداوة الخلق عني.

ـ **السادسة**: نظرت إلى هذا الخلق يبغي بعضهم على بعض ويقاتل بعضهم بعضاً، فرجعت إلى قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾(3)، فعاديته وحده، واجتهدت في أخذ حذري منه لأن الله تعالى شهد عليه انه عدوي، فتركت عداوة الخلق.

ـ **السابعة**: نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل واحد منهم يطلب هذه الكسرة فيذلّ نفسه ويدخل فيما لا يحلّ له، ثم نظرت إلى قول الله تعالى:

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾(4) فعلمت أني واحد من هذه الدواب التي على الله رزقها، فاشتغلت بما لله عليّ، وتركت مالي عنده.

ـ **الثامنة**: نظرت إلى هذا الخلق فرأيتهم متوكلين هذا على ضيعته، وهذا على تجارته، وهذا على صناعته، وهذا على صحة بدنه، وكل

---

(1) الحجرات: ١٣.
(2) الزخرف: ٣٢.
(3) فاطر: ٦.
(4) هود: ٦.

مخلوق يتوكّل على مخلوق، فرجعت إلى قول الله عز وجل: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾(١)، فتوكلت على الله، فهو حسبي ونعم الوكيل.

ثم قال الأستاذ: وفقك الله، اني نظرت في علم التوراة والإنجيل والزبور والفرقان العظيم؛ وهي تدور حول هذه المسائل الثمانية، فمن استعملها فقد استعمل الكتب الأربعة.

وهذا الفن من العلم يهتم بإدراكه والتفطّن له علماء الآخرة فقط. أما علماء الدنيا فيشتغلون باكتساب المال والجاه ويهملون أمثال هذه العلوم التي بها بعث الله الأنبياء عليهم السلام.

٤ ـ أن يؤثر الاقتصاد ويترك الترفه والتنعم:

إن ميزة عالم طريق الآخرة أنه غير مائل إلى الترفّه في المطعم والتنعم في الملبس، والتجمل بالأثاث والمسكن، بل يؤثر الاقتصاد في جميع ذلك، ويميل إلى الاكتفاء بالأقل في جميع ذلك. وكلما زاد إلى طرف القلّة ميله ازداد من الله سبحانه قربه، وارتفعت في علماء الآخرة درجته.

ويشهد لذلك ما روي في كتاب نهج البلاغة عن مولى الموحدين علي عليه السلام أنه قال:

«من عظمت الدنيا في عينه وكبر موقعها من قلبه آثرها على الله، فانقطع إليها، وصار عبداً لها. ولقد كان في رسول الله صلى الله عليه وآله كاف لك في الأسوة، ودليل لك على ذم الدنيا وعيبها، وكثرة مخازيها ومساويها، إذ قبضت عنه أطرافها، ووطّئت لغيره أكنافها، وفطم عن

(١) الطلاق: ٣.

رضاعها، وزوي عن زخارفها، وإن شئت ثنّيت بموسى كليم الله عليه السلام إذ يقول: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ والله ما سأله إلا خبزاً يأكله لأنه كان يأكل بقلة الأرض، ولقد كانت خضرة البقل ترى من شفيف صفاق بطنه لهزاله وتشذّب لحمه[1]، وإن شئت ثلّثت بداود صاحب المزامير وقارئ أهل الجنة، فلقد كان يعمل سفائف الخوص[2] بيده ويقول لجلسائه: أيّكم يكفيني بيعها ويأكل قرص الشعير من ثمنها، وإن شئت قلت في عيسى ابن مريم عليه السلام، فلقد كان يتوسّد الحجر ويلبس الخشن ويأكل الجشب، وكان إدامه الجوع[3]، وسراجه بالليل القمر، وظلاله في الشتاء مشارق الأرض ومغاربها[4]، وفاكهته وريحانه ما تنبت الأرض للبهائم، ولم تكن له زوجة تفتنه، ولا ولد يحزنه، ولا مال يلفته، ولا طمع يذلّه، دابّته رجلاه، وخادمه يداه، فتأسَّ بنبيّك الأطيب الأطهر صلى الله عليه وآله فإن فيه أسوة لمن تأسّى، وعزاء لمن تعزّى، وأحبُّ العباد إلى الله المتأسي بنبيّه، والمقتصُّ لأثره، قضم الدنيا قضماً[5]، ولم يعرها طرفاً، أهضم أهل الدنيا كشحاً، وأخمصهم من الدنيا بطناً[6]، عرضت عليه الدنيا فأبى أن يقبلها،

---

(١) شفت: رقّ. الصفاق: الجلد الأسفل. التشذب: التفرّق وانهضام اللحم.

(٢) السفائف: المنسوجات.

(٣) أي لا يأكل من الخبز ما يرفع الجوع.

(٤) ظلاله: أي مأواه أو مكمنه من البرد.

(٥) المقتصّ: المتّبع. قضم: أكل بأطراف أسنانه.

(٦) الهضم: انضمام الجنبين وخمص البطن. الكشح: ما بين الخاصرة إلى الضلع الخلفي. أخمصهم: أخلاهم.

وعلم أن الله سبحانه أبغض شيئاً فأبغضه، وحقّر شيئاً فحقّره، وصغّر شيئاً فصغّره، ولو لم يكن فينا إلا حبنا ما أبغض الله و رسوله؛ وتعظيمنا ما صغّر الله ورسوله لكفى به شقاقاً لله ومحادّة عن أمر الله، ولقد كانﷺ يأكل على الأرض ويجلس جلسة العبد، ويخصف بيده نعله، ويرقع بيده ثوبه، ويركب الحمار العاري ويردف خلفه، ويكون الستر على باب بيته، فيكون فيه التصاوير فيقول: يا فلانة ـ لإحدى أزواجه ـ غيّبيه عني فإني إذا نظرت إليه ذكرت الدنيا وزخارفها، فأعرض عن الدنيا بقلبه، وأمات ذكرها من نفسه، وأحب أن تغيب زينتها عن عينه، لكيلا يتّخذ منها رياشاً، ولا يعتقدها قراراً، ولا يرجو فيها مقاماً، فأخرجها من النفس، وأشخصها عن القلب، وغيّبها عن البصر، وكذلك من أبغض شيئاً أبغض أن ينظر إليه، وأن يذكر عنده، ولقد كان في رسول اللهﷺ ما يدلّك على مساوىء الدنيا وعيوبها؛ إذ جاع فيها مع خاصّته وزُويت عنه زخارفها مع عظيم زلفته، فلينظر ناظر بعقله أأكرم الله محمداً بذلك أم أهانه؟ فإن قال: أهانه فقد كذب و[الله] العظيم [وأتى بالإفك العظيم] وإن قال: أكرمه، فليعلم أن الله قد أهان غيره حيث بسط الدنيا له، وزواها عن أقرب الناس منه، فتأسى متأسٍ بنبيّه[1] واقتصّ أثره، وولج مولجه، وإلا فلا يأمن الهلكة فإن الله جعل محمداًﷺ علماً للساعة، ومبشراً

(١) أي فليقتد مقتد بنبيّه.

بالجنّة، ومنذراً بالعقوبة، خرج من الدنيا خميصاً، وورد الآخرة سليماً، لم يضع حجراً على حجر حتى مضى لسبيله وأجاب داعي ربّه، فما أعظم منّة الله عندنا حين أنعم علينا به سلفاً نتّبعه وقائداً نطأ عقبه. والله لقد رقعت مدرعتي هذه حتى استحييت من راقعها، ولقد قال لي قائل ألا تنبذها؟ فقلت: أغرب عني فعند الصباح يحمد القوم السرى»[1].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«كلما ازداد العبد إيماناً ازداد ضيقاً في معيشته»[2].

٥ ـ عدم اتباع السلاطين ومخالطتهم:

من علامات طالب الآخرة المهمة أن لا يكون مخالطاً للسلاطين، فلا يدخل عليهم البتة ما دام يجد إلى الفرار عنهم سبيلاً، بل ينبغي أن يحترز من مخالطتهم وإن جاؤوا إليه. فإن الدنيا حلوة خضرة وزمامها بأيدي السلاطين، والمخالط لهم لا يخلو عن تكلّف في طلب مرضاتهم واستمالة قلوبهم مع أنهم ظلمة ويجب على كل متدين الإنكار عليهم وتضييق صدورهم بإظهار ظلمهم وتقبيح فعلهم.

فالداخل عليهم إما أن يلتفت إلى تجمّلهم فيزدري نعمة الله عز وجل عليه، أو يسكت عن الإنكار عليهم فيكون مداهناً، أو يتكلّف في كلامه لمرضاتهم وتحسين حالهم وذلك هو البهت الصريح، أو يطمع في أن ينال من دنياهم وذلك هو السحت.

وعلى الجملة فمخالطتهم مفتاح لعدة شرور وعلماء الآخرة طريقهم الاحتياط. وقد قال النبي صلى الله عليه وآله:

---

(١) السرى: السير بالليل.

(٢) الكافي: ج ٢، ص ٢٦١، رقم: ٤.

«من بدا جفا (أي من سكن البادية) ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتى السلطان إفتتن»[١].

وقال النبي ﷺ:

«العلماء أمناء الرسل على عباد الله عز وجل ما لم يخالطوا السلطان فإذا فعلوا ذلك فقد خانوا الرسل فاحذروهم واعتزلوهم»[٢].

وقال ﷺ:

«شرار العلماء الذين يأتون الأمراء، وخيار الأمراء الذين يأتون العلماء»[٣].

وإن القدر المذموم من ذلك ليس مجرّد اتباع السلطان كيف اتفق، بل اتباعه ليكون توطئة له ووسيلة إلى رفعة شأنه والترفع على الأقران وعظم الجاه والمقدار وحب الدنيا والرئاسة ونحو ذلك..

أما لو تبعه ليجعله وصلة إلى إقامة نظام النوع، وإعلاء كلمة الدين، وترويج الحق، وقمع أهل البدع، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونحو ذلك، فهو من أفضل الأعمال، فضلاً عن كونه مرخّصاً وجائزاً.

وبهذا يجمع بين ما ورد من الذم وما ورد أيضاً من الترخيص والجواز في ذلك. بل قد فعل ذلك جماعة من الأعيان من أصحاب الأئمة عليهم السلام؛ كعلي بن يقطين، وعبد الله النجاشي وأبي القاسم ابن روح (أحد نوّاب صاحب الطلعة الشريفة) وغيرهم.. ومن الفقهاء مثل

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير.

(٢) المختصر: ص ٨٧.

(٣) المختصر: ص ٨٨.

السيدين الأجلين المرتضى والرضي وأبيهما، والخواجة نصير الدين الطوسي، والعلامة بحر العلوم جمال الدين بن المطهّر وغيرهم..

وقد روي عن الإمام الرضاعليه السلام أنه قال:

«إن لله تعالى بأبواب الظالمين من نوّر الله به البرهان ومكّن له في البلاد ليدفع به عن أوليائه ويصلح الله به أمور المسلمين، لأنه ملجأ المؤمنين من الضرر وإليه يفزع ذو الحاجة من شيعتنا. بهم يؤمن الله تعالى روعة المؤمن في دار الظلمة أولئك هم المؤمنون حقاً، أولئك أمناء الله في أرضه، أولئك نور الله تعالى في رعيتهم يوم القيامة، ويزهر نورهم لأهل السماوات كما تزهر الكواكب الزاهرة لأهل الأرض، أولئك من نورهم نور القيامة، تضيء منهم القيامة، خلقوا والله للجنة وخلقت الجنة لهم، فهنيئاً لهم، ما على أحدكم أن لو شاء لنال هذا كلّه، قال: فقلت: بماذا جعلني الله فداك؟ قال: يكون معهم فيسرّنا بإدخال السرور على المؤمنين من شيعتنا فكن منهم يا محمد»[1].

إن هذا الثواب كريم ولكنه موضع الخطر الوخيم والغرور العظيم، فإن زهرة الدنيا وحب الرئاسة والاستعلاء إذا نبتا في القلب غطّيا عليه كثيراً من طرق الصواب والمقاصد الصحيحة الموجبة للثواب فلا بد من التيقظ والانتباه.

وعليه فالمعيار في هذا الأمر أن يكون القلب معرضاً عن السلطان ساخطاً عليه بقدر ظلمه وطغيانه، وإن قضى له حجة أو قرّبه أو أحسن

---

(١) رواه النجاشي في رجاله.

إليه، وأن لا تتغيّر كيفية معاشرته للناس بعد التقرّب إليه والله المستعان.

ولكن في الجملة هذه فتنة عظيمة وذريعة صعبة للشيطان على العلماء. لا سيما من له لهجة مقبولة وكلام حلو، إذ لا يزال الشيطان يلقي إليه أن في وعظك لهم - السلاطين - ودخولك عليهم ما يزجرهم عن الظلم، إلى أن يخيّل إليه ان الدخول عليهم من الدين. ثم إذا دخل لم يلبث أن يتلطف في الكلام ويداهن ويخوض في الثناء والإطراء الذي فيه هلاك الدين.

٦ ـ أن لا يكون متسارعاً في الإفتاء:

ومن العلامات أيضاً، أن لا يكون متسارعاً إلى الفتوى بل يكون متوقفاً ومحترزاً ما وجد إلى الخلاص سبيلاً، فإن سُئل عما يعلمه تحقيقاً بنصّ كتاب الله تعالى أو بنصّ حديث أو إجماع ثابت أفتى. وإن سُئل عما يشكّ فيه قال: لا أدري. وإن سئل عما يظنه باجتهاد وتخمين احتاط ودفعه عن نفسه وأحاله على غيره. هذا هو الحزم لأن تقلّد خطر الاجتهاد عظيم، وفي الخبر:

«العلم ثلاثة: كتاب ناطق، وسنة قائمة، ولا أدري»[١].

وسئل الإمام الباقر عليه السلام؛ ما حق الله على العباد؟ قال عليه السلام:

«أن يقولوا ما يعلمون، ويقفوا عندَ ما لا يعلمون»[٢].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«إذا سئل الرجل منكم عما لا يعلم فليقل: لا أدري،

---

(١) رواه ابن ماجة.

(٢) الكافي: ج ١، ص ٤٣، رقم ٧.

ولا يقل: الله أعلم، فيوقع في قلب صاحبه شكّاً، وإذا قال المسؤول: لا أدري فلا يتّهمه السائل»[1].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً أنه قال:

«لا تحلّ الفتيا لمن لا يستفتي من الله عز وجل بصفاء سرّه، وإخلاص عمله وعلانيته، وبرهان من ربّه في كل حال، لأن من أفتى فقد حكم والحكم لا يصح إلا بإذن من الله وبرهانه، ومن حكم بالخبر بلا معاينة فهو جاهل مأخوذ بجهله مأثوم بحكمه. قال النبي صلى الله عليه وآله: أجرؤكم على الفتيا أجرؤكم على الله عز وجل، أو لا يعلم المفتي أنه هو الذي يدخل بين الله تعالى وبين عباده وهو الجائز بين الجنة والنار»[2].

٧ ـ أن يكون مهتماً بعلم الباطن:

من العلامات الأكيدة لعلماء الآخرة، اهتمامهم بعلم الباطن ومراقبة القلب ومعرفة طريق الآخرة وسلوكها، وصدق الرجاء في انكشاف ذلك من خلال المجاهدة والمراقبة. فإن المجاهدة تفضي إلى مشاهدة دقائق علم القلوب حتى تنفجر ينابيع الحكمة من القلب. أما الكتب والتعلم فلا تفضي إلى ذلك، بل الحكمة إنما تفاض بالمجاهدة والمراقبة ومباشرة الأعمال الظاهرة والباطنة، والجلوس مع الله سبحانه في الخلوة مع حضور القلب بصفاء الفكر والانقطاع إلى الله عز وجل.

فتلك هي مفاتيح الإلهام ومنبع الكشف. فكم من متعلّم طال تعلّمه ولم يقدر على مجاوزة مسموعه بكلمة، وكم من مقتصر على المهمّ في

---

(١) الكافي: ج ١، ص ٤٢، رقم ٦.

(٢) مصباح الشريعة: باب ٦٣، ص ٤١. وفي بعض النسخ: الحائر بين الجنة والنار.

التعلم ومقبل على العمل ومراقبة القلب فتح الله عز وجل له من لطائف الحكم ما تحار فيه عقول ذوي الألباب. ولذلك قال النبي ﷺ: «من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم»[١].

وفي بعض الكتب السالفة:

«يا بني إسرائيل لا تقولوا: العلم في السماء من ينزل به، ولا في تخوم الأرض من يصعد به، ولا من وراء البحار من يعبر يأتي به، العلم مجعول في قلوبكم تأدّبوا بين يديّ بآداب الروحانيّين وتخلّقوا إليّ بأخلاق الصديقين، أظهر العلم من قلوبكم حتى يغطيكم ويغمركم»[٢].

٨ ـ أن يكون شديد العناية بتقوية اليقين:

علماء الآخرة شديدو الاهتمام بتقوية يقينهم، لأن اليقين رأس المال من الدين. قال النبي ﷺ: «اليقين الإيمان كله»[٣].

لذا لا بد من تعلم علم اليقين حتى ينفتح للقلب طريقه، كما قال النبي ﷺ:

«تعلموا اليقين»[٤].

ومعناه جالسوا الموقنين واسمعوا منهم علم اليقين، وواظبوا على الاقتداء بهم ليقوى يقينكم كما قوي يقينهم. وقليل من اليقين خير من كثير من العمل. فقد قال النبي ﷺ لما قيل له رجل حسن اليقين كثير الذنوب، ورجل مجتهد في العبادة قليل اليقين، فقال ﷺ:

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية.

(٢) أخرجه البيهقي في الزهد.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في اليقين.

«ما من آدمي إلا وله ذنوب، ولكن من كان غريزته العقل وسجّيته اليقين لم تضرّه الذنوب لأنه كلما أذنب ذنباً تاب واستغفر وندم فتكفر ذنوبه ويبقى له فضل يدخل به الجنّة»(١).

ولذلك قال النبي ﷺ:

«إن من أقلّ ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر، ومن أوتي حظّه منهما لم يبال ما فاته من صيام النهار وقيام الليل»(٢).

وفي وصية لقمان لابنه:

«يا بني لا يستطاع العمل إلا باليقين، ولا يعمل المرء إلا بقدر يقينه، ولا يقصر عامل حتى ينقص يقينه».

والمراد باليقين أمران:

١ ـ نفي الشك.

٢ ـ واستيلاؤه وغلبته على القلب، حتى يكون هو المتحكّم والمتصرّف.

أما مجاري اليقين وأبوابه فهي:

١ ـ التوحيد: وهو أن يرى الأشياء كلها من مسبّب الأسباب، فلا يلتفت إلى الوسائط بل يرى الوسائط مسخّرة لا حكم لها، فالمصدّق بهذا التوحيد هو الموقن.

٢ ـ الثقة بضمان الله سبحانه للرزق، بقوله تعالى:

---

(١) رواه الترمذي الحكيم في النوادر.

(٢) الكافي: ج ٢، ص ٥١، رقم ٢.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾[1].

واليقين بأن ذلك يأتيه وأن ما قدّر له سيساق إليه. وكلما غلب ذلك على قلبه كان مجملاً في الطلب ولم يشتد حرصه وشرهه وتأسفه على ما يفوته. وأثمر هذا اليقين جملة من الطاعات والأخلاق الحميدة، من ذلك أن يغلب على قلبه أن من يعمل مثقال ذرّة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرّة شراً يره، وهو اليقين بالثواب والعقاب. وثمرة هذا اليقين صدق المراقبة في الحركات والسكنات والخطرات والمبالغة في التقوى والتحرّز عن السيئات، وكلما كان اليقين أغلب كان الاحتراز أشد والتشمّر أبلغ.

٣ ـ اليقين بأن الله تعالى مطّلع عليك في كل حال ومشاهد لهواجس ضميرك وخفايا خواطرك وفكرك. وهذا متيقن عند كل مؤمن بالمعنى الأول وهو عدم الشك، وأما بالمعنى الثاني وهو المقصود فهو عزيز جداً، بل يختص به الصديقون، وثمرته أن يكون الإنسان في خلوته متأدباً في جميع أحواله وأعماله كما لو كان جالساً بين الملأ، فتكون حاله في الباطن كما هي في أعماله الظاهرة لعلمه أن الله تعالى مطّلع على سريرته، فتكون مبالغته في عمارة الباطن وتطهيره أشد من مبالغته في تزيين ظاهره لسائر الناس. وهذا المقام في اليقين يورث الحياء والخوف والانكسار والذل والاستكانة والخضوع، وجملة من الأخلاق المحمودة، وهذه الأخلاق تورث أنواعاً من الطاعات الرفيعة. فاليقين مثل الشجرة والأخلاق مثل الأغصان المتفرعة عنها والأعمال والطاعات الصادرة من الأخلاق كالثمار المتفرعة عن الأغصان.

فاليقين هو الأساس والأصل وله مجارٍ وأبواب أكثر مما عددناه...

---

(١) هود: ٦.

٩ ـ أن يكون من أهل الخشية والسكينة:

ومن علامات عالم الآخرة أن يكون حزيناً منكسراً مطرقاً صامتاً، يظهر أثر الخشية على هيئته وكسوته وسيرته وحركته وسكونه ونطقه وسكوته، لا ينظر إليه ناظر إلا وكان نظره مذكراً لله تعالى وكانت صورته دليلاً على علمه.

فعلماء الآخرة يعرفون بسيماهم من السكينة والذلّة والتواضع. وقد قيل: ما ألبس الله عبداً لبسة أحسن من خشوع في سكينة، فهي لبسة الأنبياء صلوات الله عليهم وسيماء الصديقين والعلماء.

أما التهافت في الكلام والتشدّق والاستغراق في الضحك والحدّة في الحركة والنطق فكل ذلك من آثار البطر والأمن والغفلة عن عظيم عقاب الله سبحانه وشديد سخطه، وكل ذلك دأب أبناء الدنيا الغافلين عن الله عز وجل دون العلماء به.

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول:

«يا طالب العلم، إن العلم ذو فضائل كثيرة فرأسه التواضع، وعينه البراءة من الحسد، وأذنه الفهم، ولسانه الصدق، وحفظه الفحص، وقلبه حسن النية، وعقله معرفة الأشياء والأمور، ويده الرحمة، ورجله زيارة العلماء، وهمّته السلامة، وحكمته الورع، ومستقرّه النجاة، وقائده العافية، ومركبه الوفاء، وسلاحه لين الكلمة، وسيفه الرضا، وقوسه المداراة، وجيشه محاورة العلماء، وماله الأدب، وذخيرته اجتناب الذنوب، وزاده المعروف، ومأواه الموادعة، ودليله الهدى، ورفيقه محبة الأخيار»[١].

---

(١) الكافي: ج ١، ص ٤٨، رقم ٢.

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«اطلبوا العلم وتزينوا معه بالحلم والوقار، وتواضعوا لمن تعلّمونه العلم، وتواضعوا لمن طلبتم منه العلم، ولا تكونوا علماء جبارين فيذهب باطلكم بحقكم»[1].

وعن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال:

«إنّ من علامات الفقه الحلم والصمت»[2].

إن المتلبس بالعلم منظور إليه ومتأسّى بفعله وقوله وهيئته، فإذا حسن سمته، وصلحت أحواله، وتواضعت نفسه، وأخلص لله تعالى عمله وعلمه، انتقلت أوصافه إلى غيره من الرعيّة، وفشى الخير فيهم، وانتظمت أحوالهم.

وإذا لم يكن كذلك كان مع فساد نفسه منشأً لفساد الناس، ويا ليته إذا هلك انقطع عمله وبطل وزره، بل هو باق ما بقي من تأسى به واستنّ بسنته.

وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام في وصف من يتصدى للحكم بين الأمة وهو ليس أهلاً لذلك:

«إن أبغض الخلائق إلى الله رجلان:

١ ـ رجل وكلَه الله إلى نفسه، فهو جائر عن قصد السبيل[3] مشغوفٌ بكلام بدعة، ودعاء ضلالة، فهو فتنة لمن افتتن به، ضالٌ عن هُدى ما كان قبله، مضلّ لمن اقتدى به في حياته وبعد وفاته، حمّال خطايا غيره، رهنٌ بخطيئته.

---

(١) الكافي: ج ١، ص ٣٦، رقم ١.
(٢) الكافي: ج ١، ص ٣٦، رقم ٤.
(٣) جائر عن قصد السبيل: عادل عن جادته.

٢ ـ ورجل قَمَشَ جهلاً[١] موضعٌ في جُهَّالِ الأمّة، عاد في أغباش الفتنة[٢] عم بما في عقدِ الهدنة[٣]، قد سماه أشباه الناس عالماً وليس به، بكّر فاستكثر في جمع، ما قلّ منه خيرٌ مما كثر، حتى إذا ارتوى من ماءٍ آجنٍ[٤]، واكتنز[٥] من غير طائل، جلس بين الناس قاضياً ضامناً لتخليص ما التبس على غيره، فإن نزلت به إحدى المبهمات هيأ لها حشواً رثاً من رأيه، ثم قطع به، فهو من لبسِ الشبهات في مثل نسج العنكبوت: لا يدري أصاب أم أخطأ، فإن أصاب خاف أن يكون قد أخطأ، وإن أخطأ رجا أن يكون قد أصاب.

جاهل، خبّاط جهالات، عاشٍ ركّابُ عشوات[٦]، لم يعضّ على العلم بضرس قاطع. يذرو الروايات ذرو الريح الهشيم، لا مليّ والله بإصدار ما ورد عليه ولا أهلٌ لما قرّظ[٧] به، لا يحسب العلم في شيء مما أنكره، ولا يرى أن من وراء ما بلغ مذهباً لغيره، وإن أظلم عليه أمر اكتتم به، لما يعلمُ من جهل نفسه، تصرخ من جور قضائه الدماء، وتعجّ منه المواريث.

---

(١) قمش: جمع.

(٢) عاد: جارٍ بسرعة. اغباش: البقايا.

(٣) عم: جاهل. عقد الهدنة: الاتفاق على الصلح.

(٤) آجن: الفاسد.

(٥) اكتنز: استكثر.

(٦) خبط: سار على غير هدى. عاش: خابط في الظلام. العشوة: ركوب الأمر على غير هدى.

(٧) قرّظ: فوّض.

إلى الله أشكو من معشرٍ يعيشون جهالاً، ويموتون ضلالاً، ليس فيهم سلعة أبوَرُ من الكتاب إذا تلي حق تلاوته، ولا سلعة أنفق بيعاً ولا أغلى ثمناً من الكتاب إذا حُرِّف عن مواضعه، ولا عندهم أنكر من المعروف ولا أعرف من المنكر»[1].

لما تلا رسول الله ﷺ قوله تعالى:

«﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾، فقيل: ما هذا الشرح يا رسول الله؟ فقال ﷺ: إن النور إذا قذف في القلب انشرح له الصدر وانفسح، قيل: فهل لذلك علامة؟ قال: نعم؛ التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله»[2].

١٠ ـ أن يكون مهتماً بعلم الأعمال وطهارة القلب:

ومن العلامات أيضاً أن يكون أكثر بحثه عن علم الأعمال وما يفسدها ويشوش القلوب ويهيّج الوساوس ويثير الشرّ، فإن أصل الدين التوقي من الشرّ.

فالعناية بمقامات القلب وأحواله دأب علماء الآخرة لأن القلب هو الساعي إلى قرب الربّ عز وجل، وقد صار هذا الفن غريباً مندرساً. فأكثر الخلق يميل إلى الأسهل والأوفق لطباعهم، فإن الحق مرّ، والوقوف عليه صعب، وإدراكه شديد وطريقه مستوعر، لا سيما معرفة صفات القلب وتطهيره من الأخلاق المذمومة، فإن ذلك نزع للروح على

---

(١) نهج البلاغة: خطبة: ١٧.

(٢) الدر المنثور: ج ٣ ص ٤٤.

الدوام، وصاحبه كالذي يشرب الدواء ويصبر على مرارته رجاء الشفاء. فهو يقاسي الشدائد ليكون فرجه عند الموت.

١١ ـ أن يكون مهتماً بمعرفة الأسرار والحكم:

ومن العلامات أن يكون اعتماده في علومه على بصيرته وإدراكه من خلال صفاء قلبه، لا على الكتب ولا على تقليد ما يسمعه من غيره. إلا أن يكون القائل به صاحب الشرع ﷺ أو أهل بيته صلوات الله عليهم أجمعين، عندها ينبغي أن يكون حريصاً على فهم أسرار كلامهم عليهم السلام. فإن المقلّد إنما يفعل ذلك لأن النبي ﷺ فعله، وفعله ﷺ لا بد وأن يكون له سرّ، فينبغي أن يكون شديد البحث عن أسرار الأعمال والأقوال، فإنه إن اكتفى بحفظ ما يقال له كان وعاءً للعلم ولم يكن عالماً.

١٢ ـ أن يكون شديد الحذر من محدثات الأمور:

ومن علامات عالم الآخرة أن يكون شديد التوقّي عن محدثات الأمور، وإن اتفق عليه الجمهور فلا يغرّنه إطباق الخلق على ما أحدث بعد أهل البيت عليهم السلام. وليكن حريصاً على التفتيش عن أحوالهم عليهم السلام وسيرتهم وأعمالهم وما كان فيه أكثر همّهم. فهل كان همّهم التدريس والتصنيف والمناظرة والقضاء والولاية ومخالطة السلاطين ومجاملتهم في العشرة؟ أم كان الغالب عليهم الخوف والحزن والتفكر والمجاهدة ومراقبة الظاهر والباطن واجتناب دقيق الإثم وجليله والحرص على إدراك، خفايا شهوات النفس ومكائد الشيطان إلى غير ذلك من علوم الباطن؟..

وليعلم أن أعلم أهل الزمان وأقربهم إلى الحق أشبههم بأهل البيت عليهم السلام، وأعرفهم بطريقهم، فمنهم أخذ الدين.

فلا ينبغي أن يكترث العالم بمخالفة أهل العصر في موافقة أهل البيت عليهم السلام، فإن الناس رأوا رأياً فيما هم فيه لميل طباعهم إليه، ولم تسمح نفوسهم بالاعتراف بأن ذلك سبب الحرمان من الجنّة.

وفي خطبة للنبي صلى الله عليه وآله يقول فيها:

«طوبى لمن شغله عيوبه عن عيوب الناس، وأنفق من مال إكتسبه من غير معصية، وخالط أهل الفقه والحكمة، وجانب أهل الذلّ والمعصية، طوبى لمن ذلّ في نفسه، وحسنت خليقته، وصلحت سريرته، وعزل عن الناس شرّه، وطوبى لمن عمل بعلمه، وأنفق الفضل من ماله وأمسك الفضل من قوله، ووسعته السنّة، ولم يدعها إلى البدعة»[1].

فهذه اثنتا عشرة علامة من علامات علماء الآخرة، تجمع كل واحدة منها جملاً من أخلاق العلماء، فكن أحد رجلين إما متّصف بهذه الصفات أو معترفٌ بالتقصير مع الإقرار بها، وإياك أن تكون الثالث فتلحق بجهلك وإنكارك بزمرة الهالكين الآيسين، نعوذ بالله من خدع الشيطان، ونسأله سبحانه أن يجعلنا ممن لا تغرّه الحياة الدنيا ولا يغرّه بالله الغرور.

---

(١) الكافي: ج ٢، ص ١٤٤.

شرافة العقل في الروايات

إن بيان شرافة العقل مما لا يحتاج إلى تكلف في إظهاره لا سيما وقد ظهر شرف العلم من قبل، والعقل منبع العلم ومطلعه وأساسه، والعلم يجري منه مجرى الثمرة من الشجرة والنور من الشمس. وكيف لا يشرف ما هو وسيلة السعادة في الدنيا والآخرة!؟

وقد قال الرسول ﷺ بشأنه:

«أوّل ما خلق الله تعالى العقل فقال له: أقبل فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، ثم قال: وعزتي وجلالي، ما خلقت خلقاً أكرم عليّ منك، بك آخذ، وبك أعطي وبك أثيب وبك أعاقب»[1].

وقال النبي ﷺ أيضاً:

«أيها الناس اعقلوا عن ربّكم وتواصوا بالعقل تعرفوا به ما أمرتم به ونهيتم عنه، واعلموا أنه مجدكم عند ربّكم، واعلموا أن العاقل من أطاع الله وإن كان دميم المنظر، حقير الخطر، دنيّ المنزلة، رثّ الهيئة، وأنّ الجاهل من عصى الله وإن كان جميل المنظر، عظيم

---

(١) الكافي: ج ١، ص ٢٦، رقم ٢٦.

الخطر، شريف المنزلة، حسن الهيئة، فصوحاً نطوقاً، فالقرد والخنزير أعقل عند الله عز وجل ممن عصاه، ولا تغتروا بتعظيم أهل الدنيا، إياكم فإنكم من الخاسرين»[1].

وقال ﷺ:

«إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم، ولا يتم لرجل حسنُ خلقه حتى يتمّ عقله، فعند ذلك تمّ إيمانه وأطاع ربه تعالى وعصى عدوّه ابليس»[2].

وقال ﷺ:

«لكل شيء دعامة ودعامة المؤمن عقله، فبقدر عقله تكون عبادته، أما سمعتم قول الفجّار: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾»[3].

وقال النبي ﷺ:

«إن أحبّ المؤمنين إلى الله تعالى من نصّب نفسه في طاعة الله ونصح لعباده وكمل عقله ونصح نفسه فأبصر وعمل به أيام حياته، فأفلح وأنجح»[4].

وقال ﷺ:

«ما قسّم الله للعباد شيئاً أفضل من العقل، فنوم العاقل أفضل من سهر الجاهل، وإقامة العاقل أفضل من

---

(١) بحار الأنوار: ج ١، ص ١٦٠.
(٢) الكافي: ج ٢، ص ١٠٣، رقم ١٨.
(٣) بحار الأنوار: ج ١، ص ٩٦.
(٤) رواه ابن المحبر.

شخوص الجاهل، ولا بعث الله نبيّاً ولا رسولاً حتى يستكمل العقل ويكون عقله أفضل من جميع عقول أمته، وما يضمر النبي في نفسه أفضل من اجتهاد المجتهدين، وما أدّى العبد فرائض الله حتى عقل عنه، وما بلغ جميع العابدين في فضل عبادتهم ما بلغ العاقل، والعقلاء هم أولو الألباب الذين قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾»[1].

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام:

«العقل غطاء ستير، والفضل جمال ظاهر، فاستر خلل خلقك بفضلك، وقاتل هواك بعقلك تسلم لك المودّة وتظهر لك المحبة»[2].

وعن الإمام الباقر عليه السلام قال:

«لما خلق الله العقل استنطقه ثم قال له: أقبل فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، ثم قال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أحبّ إليّ منك، ولا أكملتك إلا فيمن أحب، أما إني إياك آمر، وإياك أنهى، وإياك أعاقب وإياك أثيب»[3].

وعن الإمام الباقر عليه السلام أيضاً أنه قال:

«إنما يداقُّ الله العباد في الحساب يوم القيامة على قدر ما آتاهم من العقول في الدنيا»[4].

---

(١) الكافي: ج ١، ص ١٣، رقم ١١.
(٢) الكافي: ج ١، ص ٢٠، رقم ١٣.
(٣) الكافي: ج ١، ص ١٠، رقم ١.
(٤) الكافي: ج ١، ص ١١، رقم ٧.

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«حجّة الله على العباد النبي، والحجة فيما بين العباد وبين الله العقل»[1].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«دعامة الإنسان العقل، والعقل منه الفطنة والفهم والحفظ والعلم، وبالعقل يكمل وهو دليله ومبصره ومفتاح أمره، فإذا كان تأييد عقله عن النور كان عالماً حافظاً ذاكراً فطناً فهماً، فعلم بذلك كيف ولم وحيث، وعرف من نصحه ومن غشّه، فإذا عرف ذلك عرف مجراه وموصوله ومفصوله، وأخلص الوحدانية لله والإقرار بالطاعة، فإذا فعل ذلك كان مستدركاً لما فات، وواردًا على ما هو آت، يعرف ما هو فيه، ولأي شيء هو ههنا ومن أين يأتيه وإلى ما هو صاير، وذلك كله من تأييد العقل»[2].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً أنه قال:

«ليس بين الإيمان والكفر إلا قلّة العقل، قيل: وكيف ذلك يا بن رسول الله؟ قال: إن العبد يرفع رغبته إلى مخلوق فلو أخلص نيّته لله لأتاه الذي يريد في أسرع من ذلك».

عن سماعة بن مهران قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام وعنده جماعة من مواليه، فجرى ذكر العقل والجهل، فقال أبو عبد الله عليه السلام:

(١) الكافي: ج ١، ص ٢٥، رقم ٢٢.
(٢) الكافي: ج ١، ص ٢٥، رقم ٢٣.

«اعرفوا العقل وجنده، والجهل وجنده تهتدوا. قال سماعة: جعلت فداك لا نعرف إلا ما عرّفتنا. فقال أبو عبد الله عليه السلام:

إن الله عز وجل خلق العقل وهو أوّل خلق من الروحانيين عن يمين العرش من نوره فقال له: أدبر فأدبر، ثم قال له: أقبل فأقبل، فقال الله تعالى: خلقتك خلقاً عظيماً وكرّمتك على جميع خلقي، قال: ثم خلق الجهل من البحر الأُجاج ظلمانيا، فقال: أدبر فأدبر، ثم قال له: أقبل فلم يقبل، فقال له: استكبرت فلعنه ثم جعل للعقل خمسة وسبعين جنداً، فلما رأى الجهل ما أكرم الله به العقل وما أعطاه أضمر له العداوة فقال الجهل: يا ربّ هذا خلق مثلي خلقته وكرّمته وقوّيته وأنا ضدّه ولا قوّة لي به فاعطني من الجند مثل ما أعطيته، فقال: نعم فإن عصيت بعد ذلك أخرجتك وجندك من رحمتي، قال: قد رضيت، فأعطاه خمسة وسبعين جنداً، فكان مما أعطى العقل من الخمسة وسبعين الجند:

الخير هو وزير العقل وجعل ضدّه الشرّ وهو وزير الجهل، والإيمان وضدّه الكفر، والتصديق وضدّه الجحود، والرجاء وضدّه القنوط، والعدل وضدّه الجور، والرضا وضدّه السخط، والشكر وضدّه الكفران، والطمع وضدّه اليأس، والتوكل وضده الحرص، والرأفة وضدها القسوة، والرحمة وضدّها الغضب، والعلم وضدّه الجهل، والفهم وضدّه الحمق، والعفّة وضدّها التهتّك، والزهد وضدّه

الرغبة، والرفق وضدّه الخرق، والرّهبة وضدها الجرأة، والتواضع وضدّه الكبر، والتُؤَدة (التأني) وضدها التسرّع، والحلم وضدّه السفه، والصمت وضدّه الهَذَر، والاستسلام وضده الاستكبار، والتسليم وضدّه الشك، والصبر وضدّه الجزع، والصفح وضدّه الانتقام، والغناء وضدّه الفقر، والتفكر وضدّه السهو، والحفظ وضدّه النسيان، والتعطف وضدّه القطيعة، والقنوع وضدّه الحرص، والمؤاساة وضدها المنع، والمودّة وضدّها العداوة، والوفاء وضدها الغدر، والطاعة وضدها المعصية، والخضوع وضدها التطاول، والسلامة وضدها البلاء، والحب وضدّه البغض، والصدق وضده الكذب، والحق وضده الباطل، والأمانة وضدها الخيانة، والإخلاص وضده الشوب، والشهامة وضدها البلادة، والفهم وضدّه الغباوة، والمعرفة وضدها الإنكار، والمداراة وضدها المكاشفة، وسلامة الغيب وضدها المماكرة، والكتمان وضده الإفشاء، والصلاة وضدها الإضاعة، والصوم وضده الإفطار، والجهاد وضده النكول، والحج وضده نبذ الميثاق، وصون الحديث وضده النميمة، وبرّ الوالدين وضده العقوق، والحقيقة وضدها الرياء، والمعروف وضده المنكر، والستر وضده التبرّج، والتقية وضدها الإذاعة، والإنصاف وضده الحمية، والتهيئة وضدها البغي، والنظافة وضدها القذر، والحياء وضده الجلع، والقصد وضده العدوان، والراحة وضدها التعب، والسهولة وضدها الصعوبة،

والبركة وضدها المحق، والعافية وضدها البلاء، والقوام وضده المكاثرة، والحكمة وضدها الهوى، والوقار وضدّه الخفة، والسعادة وضدها الشقاوة، والتوبة وضدها الإصرار، والاستغفار وضده الاغترار، والمحافظة وضدها التهاون، والدعاء وضده الاستنكاف، والنشاط وضدّه الكسل، والفرح وضده الحزن، والألفة وضدها العصبية، والسخاء وضدّه البخل.

ولا تجتمع هذه الخصال كلها في أجناد العقل إلا في نبي أو وصي نبي أو مؤمن قد امتحن الله قلبه للإيمان، وأما سائر ذلك من موالينا فإن أحدهم لا يخلو من أن يكون فيه بعض هذه الجنود حتى يستكمل وينقى من جنود الجهل، فعند ذلك يكون في الدرجة العليا مع الأنبياء والأوصياء، وإنما يدرك ذلك بمعرفة العقل وجنوده ومجانبة الجهل وجنوده، وفّقنا الله وإياكم لطاعته ومرضاته»[١].

وعن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال:

«صديق كل امرء عقله وعدوّه جهله»[٢].

(١) الكافي: ج ١، ص ٢٠، رقم ١٤.

(٢) الكافي: ج ١، ص ١١، رقم ٤.

أقسام العقل ومعانيه

إن الناس اختلفوا في حد العقل وأقسامه وحقيقته وذهل الأكثرون عن كون هذا الاسم مطلقاً على معان مختلفة فصار ذلك سبب اختلافهم. والحق الكاشف للغطاء أن العقل اسم يطلق على أربعة معان:

المعنى الأول:

هو الوصف الذي به يفارق الإنسان سائر البهائم، وهو الذي به استعدّ لقبول العلوم النظرية وتدبير الصناعات الخفية الفكرية. فهو غريزة يتهيأ بها الإنسان لإدراك العلوم النظرية وتدبير الصناعات، وكأنه نور يقذف في القلب به يستعد لإدراك الأشياء. وهذا العقل هو المراد بقوله ﷺ: «ما خلق الله خلقاً أكرم عليه من العقل»[(١)].

المعنى الثاني:

إنه عبارة عن العلوم التي يدركها الطفل المميّز من استحالة اجتماع النقيضين وإن الكل أكبر من الجزء وغيرها من الأمور الضرورية والبديهية.

(١) أخرجه الترمذي الحكيم في النوادر.

كالعلم بأن الاثنين أكثر من الواحد، وأن الشخص الواحد لا يكون في مكانين.

المعنى الثالث:

وهي عبارة عن العلوم التي تستفاد من التجارب، فإن من حنّكته التجارب وهذّبته المذاهب يقال: إنه عاقل، ومن لا يتصف بذلك يقال انه: غبي جاهل.

المعنى الرابع:

أن تنتهي قوة تلك الغريزة إلى أن يعرف عواقب الأمور، فيقمع الشهوة الداعية إلى اللذّة العاجلة ويقهرها، فإذا حصلت هذه القوة سمي صاحبها عاقلاً، بحيث إن إقدامه وإحجامه يكون بحسب ما يقتضيه النظر في العواقب لا بحكم الشهوة العاجلة. وهذه أيضاً من خواص الإنسان التي يتميّز بها عن سائر الحيوانات. وهذا العقل هو المراد بقول الرسول ﷺ لعلي عليه السلام:

«إذا تقرّب الناس بأبواب البرّ فتقرّب أنت بعقلك»(١).

وهو المراد بقول الرسول عليه السلام لأبي الدرداء:

«إزدد عقلاً تزدد من ربك قرباً، فقال: بأبي أنت وأمي وكيف لي بذلك؟ فقال النبي ﷺ: اجتنب محارم الله وأدّ فرائض الله تكن عاقلاً، واعمل الصالحات من الأعمال تزدد في عاجل الدنيا رفعة وكرامة وتنل بها من ربّك القرب والعزّ»(٢).

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية.

(٢) رواه الحكيم الترمذي في النوادر.

وقيل إن جماعة دخلوا على النبي ﷺ فقالوا:

«يا رسول الله من أعلم الناس؟ فقال: العاقل، فقالوا: فمن أعبد الناس؟ فقال ﷺ: العاقل، فقالوا: فمن أفضل الناس؟ قال: العاقل، قالوا: أليس العاقل من تمت مروّته وظهرت فصاحته وجادت كفّه وعظمت منزلته؟ فقال النبي ﷺ:

﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ وإن العاقل هو التقي وإن كان في الدنيا خسيساً دنياً»[1].

وقال ﷺ:

«إنما العقل من آمن بالله وصدّق رسله وعمل بطاعته»[2].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً:

«قال: قلت له: ما العقل؟ قال عليه السلام: ما عبد به الرحمن واكتسب به الجنان. قلت: فالذي كان في معاوية؟ فقال عليه السلام: تلك النكراء، وتلك الشيطنة وهي شبيهة بالعقل وليست بالعقل»[3].

وعن عبد الله بن سنان قال: ذكرت لأبي عبد الله عليه السلام رجلاً مبتلى بالوضوء والصلاة وقلت: هو رجل عاقل! فقال أبو عبد الله عليه السلام:

«وأيّ عقل له وهو يطيع الشيطان؟ فقلت له: وكيف

---

(١) رواه داود بن الحبر في العقل.

(٢) المصدر السابق.

(٣) الكافي: ج ١، ص ١١، رقم ٣.

يطيع الشيطان؟ فقال عليه السلام: سله هذا الذي يأتيه أي شيء هو، فإنه يقول لك: من عمل الشيطان»[1].

وهذا العقل هو عبارة عن نور البصيرة الباطنية التي بها يعرف الله تعالى، ويعرف صدق رسله، فهذا العقل هو الصفة الباطنية التي يتميّز بها الآدمي عن البهائم حتى أدرك بها حقائق الأمور.

---

(١) الكافي: ج ١، ص ١٢، رقم ١٠.

تفاوت الناس في العقل

إن الناس متفاوتون في الأقسام الأربعة للعقل، سوى القسم الثاني؛ وهو العلم الضروري والبديهي، فإن من عرف أن الاثنين أكثر من الواحد عرف أيضاً استحالة كون الشخص الواحد في مكانين وغيرها من الأمور البديهية التي يدركها كل إنسان إدراكاً محققاً من غير شك.

أما الأقسام الثلاثة الأخرى فالتفاوت يتطرق إليها:

- فالقسم الرابع: وهو استيلاء القوّة على قمع الشهوة، فلا يخفى تفاوت الناس فيه. وهذا التفاوت تارة يكون لتفاوت الشهوة، إذ قد يقدر العاقل على ترك بعض الشهوات دون البعض.

وقد يكون سببه التفاوت في العلم المعرّف لغائلة تلك الشهوة. فالعالم أقدر على ترك المعاصي من العامي لقوّة علمه بضرر المعاصي.

- أما القسم الثالث: وهو علوم التجارب، فتفاوت الناس فيها لا ينكر. فإنهم يتفاوتون بكثرة الإصابة وبسرعة الإدراك، ويكون ذلك سببه إما تفاوت في الغريزة، أو تفاوت في الممارسة.

والتفاوت في الغريزة ممّا لا سبيل إلى جحده فهو مثل نور يشرق على النفس ويطلع صبحه عند سنّ التمييز، ثم لا يزال ينمو ويزداد نمواً إلى أن يتكامل بقرب الأربعين سنة. فغريزة الشهوة لا ترتكز في الصبي عند البلوغ دفعة واحدة، بل تظهر شيئاً فشيئاً على التدريج وكذا جميع

القوى والصفات، ومن أنكر تفاوت الناس في هذه الغريزة فكأنه منخلع عن ربقة العقل.

وكيف ينكر تفاوت الغريزة ولولاه لما اختلف الناس في فهم هذه العلوم، ولما انقسموا إلى بليد لا يفهم وإلى ذكيّ يفهم بأدنى رمز وإشارة وإلى كامل تنبعث من نفسه حقائق الأمور بدون تعليم، ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ وذلك مثل الأنبياء. إذ تتضح لهم في باطنهم أمور غامضة من غير تعلّم وسماع ويعبّر عن ذلك بالإلهام. وعن مثله عبر نبينا حيث قال:

«إن روح القدس نفث في روعي أحبب ما أحببت فإنك مفارقه، وعش ما شئت فإنك ميّت، واعمل ما شئت فإنك ملاقيه»(١).

ومما يدل على تفاوت العقل من جهة النقل ما روي عن النبي أنه قال في حديث طويل في آخره وصف عظم العرش وأن الملائكة قالت:

«يا ربنا هل خلقت شيئاً أعظم من العرش؟ قال: نعم العقل، قالوا: وما بلغ من قدره؟ قال: هيهات لا يحاط بعلمه، هل لكم علم بعدد الرمال؟ قالوا: لا، قال: فإني خلقت العقل أصنافاً شتّى كعدد الرّمل، فمن الناس من أعطي حبّة ومنهم من أعطي حبتين ومنهم الثلاث والأربع ومنهم من أعطي فرقاً، ومنهم من أعطي وسقاً ومنهم أكثر من ذلك»(٢).

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط.

(٢) بحار الأنوار: ج ١٤، ص ٣٤٦.

قواعـــد العقائـــد

القسم الأول:

كيفية التخلص من بدع أهل الأهواء

علاقة الشرع بالعقل

إن العقل لن يهتدي إلا بالشرع، والشرع لن يتبيّن إلا بالعقل، والعقل كالأساس والشرع كالبناء، ولن يثبت بناء ما لم يكن هناك أساس، ولن يغني أساس ما لم يكن بناء. فالعقل كالبصر والشرع كالشعاع، ولن ينفع البصر ما لم يكن شعاع في الخارج، ولن يغني شعاع ما لم يكن هناك بصر. ولهذا قال تعالى:

﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ﴾(1).

وأيضاً العقل كالسراج والشرع كالزيت الذي يمدّه فما لم يكن هناك زيت لم يشتعل السراج، وما لم يكن هناك سراج لم يضئ الزيت. وعلى هذا نبه الله تعالى بقوله:

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ

(1) المائدة: ١٥ و١٦.

﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[1].

والشرع أيضاً عقل من خارج والعقل شرع من داخل، وهما يتعاضدان بل يتحدان. ولكون الشرع عقلاً من خارج سلب الله اسم العقل من الكافر في أكثر من موضع من القرآن نحو: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[2].

ولكون العقل شرعاً من داخل قال الله تعالى في صفة العقل:

﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[3].

فسمّى العقل ديناً، ولكونهما متحدين قال تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ أي نور العقل ونورع الشرع. ثم قال: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ فجعلهما نوراً واحداً، بحيث انه إذا فقد العقل عجز الشرع عن أكثر الأمور، كما تعجز العين عند فقد النور.

والعقل بنفسه قليل الغنى لا يكاد يتوصل إلا إلى معرفة كليات الأمور دون جزئياتها. نحو أن يعلم حسن اعتقاد الحق، وقول الصدق، وتعاطي الجميل، وملازمة العفة، ونحو ذلك..

أما الشرع فيعرف كليات الشيء وجزئياته. فالعقل مثلاً لا يعرف أن لحم الخنزير حرام وأن الدم والخمر حرام أيضاً، وانه يجب أن يتحاشى تناول الطعام في الوقت المعلوم، وأن لا ينكح ذوات المحارم،

---

(١) النور: ٣٥.

(٢) البقرة: ١٧١.

(٣) الروم: ٣٠.

وأن لا يجامع المرأة في حال الحيض. فإن أشباه ذلك لا سبيل إليه إلا بواسطة الشرع.

فالشرع نظام الاعتقادات الصحيحة والأفعال المستقيمة والدال على مصالح الدنيا والآخرة التي من عدَل عنها ضل سواء السبيل. ولأجل أن لا سبيل للعقل إلى معرفة ذلك، قال الله تعالى:

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[1].

وقال:

﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾﴾[2].

وإلى العقل والشرع أشار الله تعالى بكلمتي «الفضل والرحمة» حيث قال عز وجل:

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[3].

ومقصوده «بالقليل» هم المصطفين الأخيار.

ويصدّق هذا الكلام ما وري عن أمير المؤمنين علي عليه السلام حيث قال:

«العقلُ عقلان، مطبوعٌ ومسموعٌ، ولا ينفعُ مسموعٌ إذا لم يكُ مطبوعُ، كما لا تنفعُ الشمس، ونور العينِ ممنوعٌ».

---

(١) الإسراء: ١٥.

(٢) طه: ١٣٤.

(٣) النساء: ٨٣.

أما أصحاب العقل فقليل جداً كما قال الله عز وجل:

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[1].

وقوله عز وجل:

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾[2].

وإن من لم يهتد لنور الشرع ولم يطابقه عقله فليس من ذوي العقول في شيء. وان العقل فضل من الله ونور كما أن الشرع رحمة منه وهدى و:

﴿إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾[3].

و ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾[4].

﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾[5].

﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾[6].

---

(١) العنكبوت: ٦٣.

(٢) الفرقان: ٤٤.

(٣) آل عمران: ٧٣.

(٤) النور: ٣٥.

(٥) النور: ٤٠.

(٦) الأحزاب: ٤.

النبي هو الهادي لطريق الحق

إن أعقل العقلاء نبينا ﷺ وخير الشرائع شرعه. وإنما أرسله الله وأنزل معه الكتاب ليقوم الناس بالقسط، فصدع بأمر الله وهدى الخلق إلى الصراط المستقيم، وأرشدهم إلى معرفة صانعهم ويوم آخرتهم ببيانات وبراهين ناسبت عقولهم، ونبههم على أدلة وحجج بلغت إليها أفهامهم، وأكمل لهم أمور دينهم.

وأتى كل طائفة ما تحتاج إليه من بيّنة وبرهان وخطابة وجدال بالتي هي أحسن ومعجزة بشكل يناسب عقولهم وأفهامهم.

فأتى مع كل دعوى بحجة وبرهان ليكونوا على بصيرة من أمرهم و:

﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾.

ولئلا تحتاج أمته إلى آثار السالفين فيما يهمهم ويعنيهم من أمر الدين. وكلماته وبياناته حجة من حيث مطابقتها لمقتضى العقول السليمة، لذا كانت براهينه هي المتبعة وبيّناته هي الملزمة.

فثبت إذاً أن ما ورد في الشرع كاف في الاهتداء إلى طريق الحق مع ما جبل عليه أهل السلامة من العقل المطبوع. فلا حاجة إلى تكلفات المتكلفين على اختلاف طبقاتهم وتشعّب آرائهم وتناقض أهوائهم في

إبداء الأدلة وإنهاض الحجج على أمور الدين، فإنهم جمعوا بين الجهل وسوء الأدب.

ـ أما الجهل: فلكونهم ما عرفوا موضع الدلالة فيما نصّبه الحق دليلاً.

ـ وأما سوء الأدب: فمعارضتهم له سبحانه وتعالى بما دخلوا فيه مما يزعمونه دليلاً، فجعلوا دلالة نظرهم في الدين أتمّ مما دلّ عليه الحق تعالى. أفأنزل الله ديناً ناقصاً فاستعان بهم على إتمامه؟ أم أنزل الله ديناً تاماً فقصّر الرسول عن تبليغه وأدائه، والله سبحانه يقول: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾[1] وقال عز وجل: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾[2]. وقال علي عليه السلام: «إن القرآن ظاهره أنيق وباطنه عميق، لا تفنى عجائبه، ولا تنقضي غرائبه، ولا تكشف الظلمات إلا به»[3].

---

(١) الأنعام: ٣٨.

(٢) النحل: ٨٩.

(٣) نهج البلاغة: خطبة رقم ١٨.

أهل البيت خلفاء النبي في الهداية

لما ثبت أن خير هاد إلى الله سبحانه هو نبيناﷺ، نقول: إنه ثبت أنهﷺ إنما ترك من بعده لخلافته الثقلين كتاب الله وعترته، وما أوصى أمّته إلا بالتمسك بهما كما استفاضت به الأخبار من طريقي العامة والخاصة. حيث قالﷺ:

«إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي؛ كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»(١).

ومعنى عدم افتراقهما أن علم الكتاب إنما هو عند العترة، فمن تمسك بهم تمسك بالكتاب.

وفي رواية أخرى قالﷺ:

«إني تارك فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، فإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»(٢).

---

(١) عبقات الأنوار: حديث الثقلين.

(٢) كمال الدين: الصدوق، ص ١٣٦.

وفي رواية أخرى:

«أمرين أحدهما أطول من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض طرف بيد الله، وعترتي».

وفي أخرى:

«الأكبر منهما كتاب الله سبب طرف بيد الله وطرف بأيديكم، فتمسكوا به لا تزلوا ولا تضلّوا، والأصغر منهما عترتي لا تقتلوهم ولا تقهروهم فإني سألت اللطيف الخبير أن يردا عليّ الحوض فأعطاني. فقاهرهما قاهري وخاذلهما خاذلي ووليّهما وليّي وعدوّهما عدوّي»[1].

وسئل أمير المؤمنين علي عليه السلام: من العترة؟ فقال عليه السلام:

«أنا والحسن والحسين والأئمة التسعة من ولد الحسين، تاسعهم مهديّهم وقائمهم، لا يفارقون كتاب الله ولا يفارقهم حتى يردوا على رسول الله صلى الله عليه وآله حوضه»[2].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

«إن مثل أهل بيتي كمثل سفينة نوح، من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق»[3].

---

(١) بصائر الدرجات: ج ٨، الباب ١٧.
(٢) معاني الأخبار: الصدوق، ص ٩٠.
(٣) بحار الأنوار: ج ٧، ص ٢٥.

وقال ﷺ:

«أنا أوّل وافد على العزيز الجبار يوم القيامة وكتابه وأهل بيتي، ثم أمتي ثم أسألهم ما فعلتم بكتاب الله وأهل بيتي»[١].

وعن الإمام الصادق ؑ قال: قال رسول الله ﷺ:

«أيها الناس إنكم في دار هدنة، وأنتم على ظهر سفر، والسير بكم سريع، وقد رأيتم الليل والنهار والشمس والقمر يبليان كل جديد، ويقرّبان كل بعيد، ويأتيان بكل موعود، فأعدوا الجهاز لبعد المجاز، قال: فقام المقداد بن الأسود فقال: يا رسول فما دار الهدنة؟

فقال ﷺ: دار بلاغ وانقطاع، فإذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم، فعليكم بالقرآن، فإنه شافع مشفّع، وماحلٌ مصدّق، من جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار، وهو الدليل يدلّ على خير سبيل، وهو كتاب فيه تفصيل وبيان وتحصيل، وهو الفصل ليس بالهزل، وله ظهر وبطن، فظاهره حكم وباطنه علم، ظاهره أنيق، وباطنه عميق، له تخوم وعلى تخومه تخوم، لا تحصى عجائبه، ولا تبلى غرائبه، فيه مصابيح الهدى ومنار الحكمة، ودليل على المعرفة لمن عرف الصفة، فليجل جال بصره، وليبلغ الصفة نظره، ينج من عطب ويتخلّص من نشب، فإن التفكر حياة قلب البصير، كما يمشي

---

(١) الكافي: ج ٢، ص ٦٠٠، رقم ٤.

المستنير في الظلمات بالنور، فعليكم بحسن التخلّص وقلّة التربّص»[1].

وقال رسول الله ﷺ:

«القرآن هدى من الضلالة، وتبيان من العمى، واستقالة من العثرة، ونور من الظلمة، وضياء من الأجداث، وعصمة من الهلكة، ورشد من الغواية، وبيان من الفتن، وبلاغ من الدنيا إلى الآخرة، وفيه كمال دينكم، وما عدل أحد عن القرآن إلا إلى النار»[2].

وورد عن الأئمة المعصومين عليهم السلام:

«من لم يعرف أمرنا من القرآن لم يتنكّب الفتن»[3].

وعنهم عليهم السلام أيضاً:

«من أخذ دينه من كتاب الله وسنّة نبيّه ﷺ؛ زالت الجبال قبل أن يزول، ومن أخذ دينه من أفواه الرجال ردّته الرجال»[4].

ولهذه العلة انبثقت على أهل دهرنا بثوق هذه الأديان الفاسدة والمذاهب المتشنّعة، التي قد استوفت شرائط الكفر والشرك كلها. وذلك بتوفيق الله عز وجل وخذلانه. فمن أراد الله توفيقه وأن يكون إيمانه ثابتاً مستقراً سبّب له الأسباب التي تؤدي به إلى أن يأخذ دينه من كتاب الله وسنّة نبيّه ﷺ بعلم ويقين وبصيرة، فذاك أثبت في دينه من الجبال

---

(١) الكافي: ج ٢، ص ٥٩٨، رقم ٢.
(٢) الكافي: ج ٢، ص ٦٠٠، رقم ٨.
(٣) الكافي: ج ١، المقدمة.
(٤) المصدر السابق.

الرواسي. ومن أراد الله خذلانه وأن يكون دينه معاراً مستودعاً ـ نعوذ بالله منه ـ سبّب له أسباب الاستحسان والتقليد والتأويل من غير علم وبصيرة، وهذا يرجع إلى مشيئة الله تعالى، فإن شاء تبارك وتعالى أتمّ إيمانه وإن شاء سلبه إياه، ولا يؤمن عليه أن يصبح مؤمناً ويمسي كافراً، أو يمسي مؤمناً ويصبح كافراً، لأنه كلما رأى كبيراً من الكبراء مال معه، وكلما رأى شيئاً استحسن ظاهره. وقد قال العالم عليه السلام:

«إن الله تعالى خلق النبيين على النبوة فلا يكونون إلا أنبياء، وخلق الأوصياء على الوصية فلا يكونون إلا أوصياء، وأعار قوماً إيماناً، فإن شاء تمّمه لهم وإن شاء سلبهم إياه، وفيهم جرى قوله تعالى:

﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾»[1].

إذن فقد ظهر وتبين أن بيان أمر أهل البيت عليهم السلام إنما هو في كتاب الله عز وجل، وأن علم الكتاب عندهم، وان كل واحد منهما مع الآخر صاحبين مؤتلفين يشهد كل واحد منهما لصاحبه بالتصديق. فينطق الإمام منهم عن الله في الكتاب بما أوجب الله فيه على العباد، وينطق الكتاب بوجوب اتباعهم، وان الرشد كله في طاعتهم. وهذا هو معنى عدم افتراقهما كما ورد في الحديث النبوي.

قال جابر بن يزيد الجعفي: سمعت جابر بن عبد الله الأنصاري يقول:

لما أنزل الله عز وجل على نبيه صلى الله عليه وآله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾، قلت: يا رسول الله؛ عرّفنا الله ورسوله، فمن أولو الأمر الذين

---

(١) الكافي: ج ٢، ص ٤١٨.

قرن الله طاعتهم بطاعتك؟

فقال ﷺ: هم خلفائي يا جابر وأئمّة المسلمين من بعدي، أوّلهم عليّ بن أبي طالب، ثم الحسن، ثم الحسين، ثم علي بن الحسين، ثم محمد بن عليّ ـ المعروف في التوراة بالباقر وستدركه يا جابر، فإذا لقيته فاقرئه مني السلام ـ ثم الصادق جعفر بن محمد، ثم موسى بن جعفر، ثم عليّ بن موسى ثم محمد بن عليّ، ثم علي بن محمد، ثم الحسن بن علي، ثم سميّي وكنيّي، حجة الله في أرضه، وبقيته في عباده، ابن الحسن بن علي، ذاك الذي يفتح الله ـ تعالى ذكره ـ على يديه مشارق الأرض ومغاربها، ذاك الذي يغيب عن شيعته، وأوليائه غيبة، لا يثبت فيها على القول بإمامته إلا من امتحن الله قلبه للإيمان. قال جابر: فقلت له: يا رسول الله فهل ينتفع الشيعة به في غيبته؟ فقال: إي والذي بعثني بالنبوّة إنهم يستضيئون بنوره وينتفعون بولايته في غيبته كانتفاع الناس بالشمس، وإن تجلّلها سحاب، يا جابر هذا من مكنون سرّ الله، ومخزون علم الله، فاكتمه إلا عن أهله. قال جابر بن يزيد: فدخل جابر بن عبد الله على علي بن الحسين عليه السلام (يوماً) فبينما هو يحدّثه إذ خرج محمد بن علي الباقر عليه السلام من عند نسائه وعلى رأسه ذؤابة وهو غلام، فلما بصر به جابر ارتعدت فرائصه، وقامت كل شعرة على بدنه، ونظر إليه مليّاً، ثم قال له: يا غلام أقبل فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، فقال جابر: شمائل رسول الله ورب الكعبة، ثم قام فدنا منه، وقال

له: ما اسمك يا غلام؟ فقال: محمد، قال: ابن من؟ قال: ابن عليّ بن الحسين، قال: يا بني فدتك نفسي فأنت إذن الباقر؟ قال: نعم، [ثم] قال عليه السلام: فأبلغني ما حملك رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال جابر: يا مولاي إن رسول الله صلى الله عليه وآله بشرني بالبقاء إلى أن ألقاك وقال لي: إذا لقيته فاقرئه مني السلام، فرسول الله يا مولاي يقرأ عليك السلام، فقال أبو جعفر عليه السلام: يا جابر على رسول الله السلام ما قامت السماوات والأرض، وعليك يا جابر كما بلّغت السلام.

فكان جابر بعد ذلك يختلف إليه ويتعلم منه، فسأله محمد بن علي عليه السلام عن شيء، فقال له جابر: والله ما دخلت في نهي رسول الله صلى الله عليه وآله فقد أخبرني أنكم الأئمة الهداة من أهل بيته من بعده، أحلم الناس صغاراً وأعلم الناس كباراً، وقال: لا تعلّموهم فهم أعلم منكم. فقال أبو جعفر عليه السلام: صدق جدي رسول الله صلى الله عليه وآله والله إني لأعلم منك بما سألتك عنه ولقد أوتيت الحكم صبياً، كل ذلك بفضل الله علينا ورحمته لنا أهل البيت»[1].

ووجد بخط مولانا أبي محمد العسكري عليه السلام:

«قد صعدنا ذُرى الحقائق بأقدام النبوّة والولاية، ونوّرنا سبع طبقات أعلام الفتوى بالهداية، فنحن ليوث الوغى، وغيوث الندى، وطعناء العدى، وفينا السيف والقلم العاجل، ولواء الحمد والعلم في الآجل،

(١) كتاب كمال الدين: ص ١٤٦.

وأسباطنا حلفاء الدين وخلفاء النبيين، ومصابيح الأمم، ومفاتيح الكرم، فالكليم لبس حلّة الاصطفاء لما عهدنا منه الوفاء، وروح القدس في جنان الصاقورة ذاق من حدائقنا الباكورة، وشيعتنا الفئة الناجية، والفرقة الزاكية، صاروا لنا ردءاً وصوناً وعلى الظلمة إلبا وعوناً، وستنفجر لهم ينابيع الحيوان بعد لظى النيران لتمام؛ ألم وطه والطواسين، وهذا الكتاب ذرّة من جبل الرحمة وقطرة من بحر الحكمة».

وقوله عليه السلام: «وشيعتنا الفرقة الناجية» إشارة إلى ما رواه الخاصة والعامة بطرق شتى وألفاظ مختلفة. فعن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال:

«ستفترق أمتي على نيف وسبعين فرقة، فالناجية منها واحدة»[1].

وفي رواية أخرى قال صلى الله عليه وآله:

«افترقت أمّة موسى إلى إحدى وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة وهي التي اتبعت وصيّة يوشع، وافترقت أمّة عيسى على اثنتين وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة وهي التي اتبعت وصيّة شمعون، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، وهي التي تتّبع وصيّي عليا».

وعن الإمام الباقر عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

«ما وجدتم في كتاب الله عز وجل فالعمل به لازم لا عذر لكم في تركه، وما لم يكن في كتاب الله وكانت

---

(١) سنن ابن ماجة: رقم ٣٩٩١.

فيه سنّة مني لا عذر لكم في ترك سنتي، وما لم يكن فيه سنّة مني فما قال أصحابي فخذوه، فإنما مثل أصحابي فيكم كمثل النجوم بأيها أخذ اهتدي، فبأي أقاويل أصحابي أخذتم اهتديتم، واختلاف أصحابي لكم رحمة. قيل: يا رسول الله من أصحابك؟ قال: أهل بيتي».

فإن أهل بيته صلوات الله عليهم كانوا منهاجه ﷺ وطريقته دون سائر الصحابة، إلا قليلاً منهم كما يظهر من التتبع لأحوالهم وسيرهم. وقوله ﷺ: «واختلاف أصحابي لكم رحمة» يعني اختلافهم عليهم السلام في الإجابة على أسئلة الناس على حسب درجاتهم ومراتبهم واختلاف عقولهم وتفاوت أفهامهم. فإنهم عليهم السلام كانوا مكلفين بأن يكلموا الناس على قدر عقولهم، وهذه رحمة من الله سبحانه على عباده.

إذاً فالفرقة الناجية من هذه الأمّة ليست إلا من تمسك بحبل القرآن وسفينة أهل البيت عليهم السلام، وتابعهم وشايعهم ووالاهم وسلك طريقتهم في العلم والعمل، وأخذ عقيدته وأعماله الشرعية منهم عليهم السلام، لأن الحق معهم وفيهم وأهل البيت أدرى بما فيه.

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«كل علم لا يخرج من هذ البيت فهو باطل، وأشار بيده إلى بيته، وقال عليه السلام: لبعض أصحابه: إذا أردت العلم الصحيح فخذ عن أهل البيت فإنا رويناه وأُوتينا شرح الحكمة وفصل الخطاب، إن الله اصطفانا وآتانا ما لم يؤت أحداً من العالمين»[1].

---

(١) بصائر الدرجات: ج ١٠، الباب ١٨.

وقال عليه السلام:

«أبى الله أن يجري الأشياء إلا بالأسباب فجعل لكل شيء سبباً، وجعل لكل سبب شرحاً، وجعل لكل شرح مفتاحاً، وجعل لكل مفتاح علماً، وجعل لكل علم باباً ناطقاً من عرفه عرف الله، ومن أنكره أنكر الله، ذلك رسول الله ونحن»[١].

وقال رجل من أهل البصرة لمولانا الباقر عليه السلام:

«إن الحسن البصري يزعم أن الذين يكتمون العلم يؤذي ريح بطونهم أهل النار، فقال عليه السلام: فهلك إذاً مؤمن آل فرعون، وما زال العلم مكتوماً منذ بعث الله نوحاً عليه السلام فليذهب الحسن يميناً وشمالاً فوالله لا يوجد العلم إلا ههنا»[٢].

---

(١) بصائر الدرجات: ج ١، الباب الثالث.

(٢) المصدر السابق.

السكوت عما لم يرد بيانه في الشرع

إن كل ما ليس له بيان في كتاب الله عز وجل ولا في سنّة رسولهﷺ ولا في كلام أهل بيته صلوات الله عليهم؛ من أمر الدين فينبغي السكوت عنه وعدم الخوض فيه، وردّ علمه إلى الله ورسوله وأولي الأمر من أهل بيته عليهم السلام. فإن من حق العباد أن يقولوا ما يعلمون ويقفوا عند ما لا يعلمون كما قال مولانا الباقر عليه السلام[1].

وقال مولانا الصادق عليه السلام:

«إياك أن تفتي الناس برأيك أو تدين بما لا تعلم ففيها هلك من هلك»[2].

ومن وصايا أمير المؤمنين لابنه الحسن عليهما السلام:

«ودع القول فيما لا تعرف والخطاب فيما لم تكلّف، وأمسك عن طريق إذا خفت ضلالته فإن الكف عند حيرة الضلال خيرٌ من ركوب الأهوال... واعلم يا بني إنّ أحبّ ما أنت آخذٌ به إليّ من وصيّتي تقوى الله والاقتصار على ما فرض الله عليك، والأخذ بما مضى

(١) الكافي: ج ١، ص ٤٣.

(٢) المصدر السابق.

عليه الأوّلون من آبائك، والصالحون من أهل بيتك، فإنهم لم يدعوا أن نظروا لأنفسهم كما أنت ناظر، وفكّروا كما أنت مفكّر، ثم ردّهم آخر ذلك إلى الأخذ بما عرفوا والإمساك عما لم يكلّفوا. فإن أبت نفسك أن تقبل ذلك دون أن تعلم كما علموا، فليكن طلبك ذلك بتفهّم وتعلّم لا بتورط الشبهات وعلوّ الخصومات، وابدأ قبل نظرك في ذلك بالاستعانة بإلهك والرغبة إليه في توفيقك، وترك كل شائبة أولجتك في شبهة، أو أسلمتك إلى ضلالة، فإذا أيقنت أن قد صفا قلبك فخشع وتم رأيك واجتمع وكان همّك في ذلك همّاً واحداً فانظر فيما فسّرت لك. وإن لم يجتمع لك ما تحب من نفسك وفراغ نظرك وفكرك، فاعلم أنك إنما تخبط العشواء، وتتورط الظلماء، وليس طالب الدين من خبط وخلط، والإمساك عن ذلك أمثل.

فتفهم يا بني وصيتي، واعلم أن مالك الموت هو مالك الحياة، وأن الخالق هو المميت، وأنّ المغني هو المعيد، وأنّ المبتلي هو المعافي، وان الدنيا لم تكن لتستقر إلا على ما جعله الله عليه من النعماء والابتلاء، والجزاء في المعاد، وما شاء مما لا نعلم، فإن أشكل عليك شيء من ذلك فاحمله على جهالتك به، فإنك أوّل ما خلقت كنت جاهلاً ثم علمت، وما أكثر ما تجهل من الأمر ويتحيّر فيه رأيك، ويضلّ فيه بصرك، ثم تبصره بعد ذلك، فاعتصم بالذي خلقك ورزقك وسوّاك، وليكن له تعبّدك وإليه رغبتك ومنه شفقتك.

واعلم يا بني أن أحداً لم ينبئ عن الله تعالى كما أنبأ عنه نبينا ﷺ فارض به رائداً، وإلى النجاة قائداً، فإني لم آلك نصيحة، وانك لم تبلغ في النظر لنفسك وان اجتهدت مبلغ نظري لك»[1].

(١) نهج البلاغة: أبواب الكتب: رقم ٣١.

القسم الثاني:
التوحيد

التوحيد في القرآن والروايات

إن في الأفاق والأنفس وما خلق الله من شيء لآيات مبيّنات، ودلائل واضحات على وجوده سبحانه ووحدانيته وإلهيته وسائر صفاته من وجوه مختلفة وطرق شتّى. وقد وقعت نبذ منها في القرآن المجيد للتنبيه والإرشاد، وأولى ما يستضاء به من الأنوار، ويسلك في طريق الاعتبار هو ما أرشد إليه القرآن، فليس بعد بيان الله بيان، حيث قال عز اسمه:

﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾(١).

وقال عز وجل:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾(٢).

وقال تعالى أيضاً:

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ

(١) إبراهيم: ١٠.

(٢) البقرة: ١٦٤.

ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾(١).

وقال عز وجل:

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾(٢).

وقال جلّ جلاله:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾(٣).

---

(١) الأنعام: ٩٥ ـ ٩٩.
(٢) يونس: ٥ و٦.
(٣) الرعد: ٣.

وقوله عزّ اسمه:

﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾(١).

وقال عزّ اسمه:

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٢).

وقال جلّ ثناؤه:

﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾(٣).

وقال جلّ ذكره:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي

---

(١) الرعد: ٤.

(٢) النحل: ٦٦ ـ ٦٩.

(٣) النحل: ٧٩.

ذَٰلِكَ لَآيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٖ
لِّلۡعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبۡتِغَآؤُكُم
مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴿٢٣﴾
وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ
مَآءٗ فَيُحۡيِۦ بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٖ
لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ
بِأَمۡرِهِۦۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمۡ دَعۡوَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ إِذَآ أَنتُمۡ تَخۡرُجُونَ﴾[1].

وقال عز وجل:

﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ
إِخۡرَاجٗا ﴿١٨﴾﴾[2].

وقال سبحانه:

﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ - إلى
قوله: - نَحۡنُ جَعَلۡنَٰهَا تَذۡكِرَةٗ وَمَتَٰعٗا لِّلۡمُقۡوِينَ ﴿٧٣﴾﴾[3].

وقال تعالى شأنه:

﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا ﴿٦﴾ وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا ﴿٧﴾ وَخَلَقۡنَٰكُمۡ
أَزۡوَٰجٗا ﴿٨﴾ وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتٗا ﴿٩﴾ وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا ﴿١٠﴾
وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا ﴿١١﴾ وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا ﴿١٢﴾ وَجَعَلۡنَا
سِرَاجٗا وَهَّاجٗا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡمُعۡصِرَٰتِ مَآءٗ ثَجَّاجٗا ﴿١٤﴾ لِّنُخۡرِجَ
بِهِۦ حَبّٗا وَنَبَاتٗا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلۡفَافًا ﴿١٦﴾﴾[4].

---

(١) الروم: ٢٠ ـ ٢٥.

(٢) نوح: ١٧ و١٨.

(٣) الواقعة: ٥٨ ـ ٥٩ ـ ٧٣.

(٤) النبأ: ٦ ـ ١٦.

إلى غير ذلك من التنبيهات لأولي الألباب وهي أكثر من أن تحصى، ولا يخفى على من له أدنى عقل إذا تأمل في مضمون هذه الآيات، وأدار نظره على عجائب خلق الله في الأرض والسماء، علم أن هذا الأمر العجيب والترتيب المحكم لا يستغني عن صانع يدبّره وفاعل يحكمه.

وسئل مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: بماذا عرفت ربك؟ فقال عليه السلام:

«بفسخ العزائم ونقض الهمم، لما هممت فحيل بيني وبين همي، وعزمت فخالف القضاء والقدر عزمي، علمت أن المدبر غيري»[1].

وعن الإمام الرضا عليه السلام أنه سئل: ما الدليل على حدث العالم؟ فقال عليه السلام:

«انك لم تكن ثم كنت، وقد علمت أنك لم تكوّن نفسك ولا كوّنك من هو مثلك»[2].

وسئل عارف: بم عرفت ربك؟ قال: بواردات ترد على القلوب فتعجز النفس عن تكذيبها.

وسئل أعرابي عن مثل ذلك، فقال: البعرة تدل على البعير، وأثر الأقدام يدل على المسير، أفسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج، لا تدلان على الصانع اللطيف الخبير؟!

وقال السيد الجليل ابن طاوُس في وصيته لابنه:

إنني وجدت كثيراً ممن رأيته وسمعت به من علماء

---

(١) التوحيد: الصدوق، ص ٢٩٨.

(٢) المصدر السابق: ص ٣٠٤.

الإسلام قد ضيقوا على الأنام ما كان سهّله الله جلّ جلاله ورسوله ﷺ من معرفة مولاهم ومالك دنياهم وأخراهم، فإنك تجد كتب الله السالفة والقرآن الشريف مملوءاً بالتنبيهات على الدلالات على معرفة محدث الحادثات ومغيّر المتغيرات ومقلب الأوقات. وترى علوم سيدنا خاتم الأنبياء ﷺ وعلوم من سلف من الأنبياء صلوات الله عليهم على سبيل كتب الله جلّ جلاله... فإنك تجد من نفسك بغير إشكال انك لم تخلق جسدك ولا روحك ولا حياتك ولا عقلك ولا ما خرج من اختيارك من الآمال والأحوال والآجال، ولا خلق ذلك أبوك ولا أمك، ولا من تقلبت بينهم من الآباء والأمهات لأنك تعلم يقيناً أنهم كانوا عاجزين عن هذه المقامات، ولو كان لهم قدرة على تلك المهمات ما كان قد حيل بينهم وبين المرادات وصاروا من الأموات. فلم يبق مندوحة أبداً عن واحد منزّه عن إمكان المتجدّدات هو الذي خلق هذه الموجودات، وإنما يحتاج أن يعلم ما هو عليه جلّ جلاله من الصفات، ولأجل شهادة العقول الصريحة والأفهام الصحيحة بالتصديق بالصانع اطبقوا جميعاً على وجود فاطر وخالق، وإنما اختلفوا في ماهيته وحقيقة ذاته، وفي صفاته..

التوحيد أمرٌ فطري

إن التصديق بوجود الله تعالى أمر فطري، ولذا ترى الناس عند الوقوع في الأهوال وصعاب الأحوال يتوكلون بحسب الجبلّة على الله ويتوجهون توجهاً غريزياً إلى مسبب الأسباب ومسهّل الأمور الصعاب، وإن لم يتفطنوا لذلك. ويشهد لهذا قول الله عز وجل:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[1].

وقول عزّ اسمه:

﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝٤٠ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ۝٤١﴾[2].

وسئل مولانا الإمام الصادق عن الله فقال عليه السلام للسائل:

«يا عبد الله هل ركبت السفينة قط؟ قال: بلى. قال عليه السلام: فهل كسرت بك حيث لا سفينة تنجيك ولا سباحة تغنيك؟ قال: بلى. قال عليه السلام: فهل تعلق قلبك

---

(١) لقمان: ٢٥.

(٢) الأنعام: ٤٠ و٤١.

هناك أن شيئاً من الأشياء قادر على أن يخلّصك من ورطك؟ قال: بلى. قال الصادقعليه السلام: فذلك الشيء هو الله القادر على الإنجاء حين لا منجي وعلى الإغاثة حين لا مغيث»[1].

وفي قوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ إشارة لطيفة إلى ذلك، فإنه سبحانه استفهم منهم الإقرار بربوبيته لا بوجوده تنبيهاً إلى أنهم كانوا مقرّين بوجوده في بداية عقولهم وفطرة نفوسهم. ولهذا بعث الأنبياء كلهم لدعوة الخلق إلى التوحيد، أي ليقولوا: لا إله إلا الله. وما أمروا أن يقولوا: لنا إله. لأن ذلك كانوا مجبولين عليه في فطرة عقولهم ومبدأ نشوئهم.

عن زرارة عن الإمام الباقرعليه السلام قال: سألته عن قول الله عز وجل:

«﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ﴾ وعن الحنفية. فقالعليه السلام:

هي الفطرة التي فطر الله الناس عليها ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ قال: فطرهم الله على المعرفة.

قال زرارة: ثم سألته عن قول الله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ فقالعليه السلام:

أخرج من ظهور آدم ذرّيته إلى يوم القيامة فخرجوا كالذرّ: فعرّفهم وأراهم صنعه، ولولا ذلك لم يعرف أحد ربّه، وقال: قال رسول اللهصلى الله عليه وآله:

كل مولود يولد على الفطرة، يعني على المعرفة بأن الله عز وجل خالقه، فذلك قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ

---

(١) التوحيد للصدوق.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾»[1].

وفي روايات أخرى بأسانيد مستفيضة:

«الفطرة هي التوحيد»[2].

وقال رسول الله ﷺ:

«لا تضربوا أطفالكم على بكائهم فإن بكاءهم أربعة أشهر شهادة أن لا إله إلا الله، وأربعة أشهر الصلاة على النبي وآله، وأربعة أشهر الدعاء لوالديه»[3].

وفي الحديث المشهور:

«كل مولود يولد على الفطرة وأبواه يهوّدانه وينصّرانه ويمجّسانه»[4].

---

(١) التوحيد: ص ٣٤٣.
(٢) المصدر السابق: ص ٣٤١.
(٣) المصدر السابق.
(٤) المصدر السابق.

الله تعالى واحد لا شريك له

إن الله سبحانه وتعالى واحد لا شريك له إذ:

لو كان معه إله ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[1].

إذ لو تعددت الآلهة لتميّز صنع بعضهم عن بعض، فيستبد كل بملكه، ولوقع بينهم التحارب والتغالب

وسئل مولانا الصادق: ما الدليل على أن الله واحد؟ فقال عليه السلام:

«اتصال التدبير وتمام الصنع كما قال عز وجل: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾»[2].

أي لو تعدد الإله لم ترتبط الموجودات بعضها ببعض، بل لاختلّ النظام وفسدت السماوات والأرضون.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام في وصاياه لابنه الحسن:

«واعلم يا بني انه لو كان لربّك شريك لأتتك رسله ولرأيت آثار ملكه وسلطانه ولعرفت أفعاله وصفاته، ولكنه إله واحد كما وصف نفسه، لا يضادّه في ملكه

---

(١) المؤمنون: ٩١.

(٢) التوحيد: ص ٢٥٤.

أحد ولا يزال أبداً»[1].

وروي أن أعرابياً قام يوم الجمل وقال لأمير المؤمنين علي عليه السلام:

«أتقول: إن الله واحد؟ قال: فحمل الناس عليه، وقالوا: يا أعرابي أما ترى ما فيه أمير المؤمنين عليه السلام من تقسيم القلب؟ فقال أمير المؤمنين عليه السلام: دعوه فإن الذي يريده الأعرابي هو الذي نريده من القوم، ثم قال: يا أعرابي: إن القول في أن الله واحد على أربعة أقسام: فوجهان منها لا يجوزان على الله عز وجل، ووجهان يثبتان فيه. فأما اللذان لا يجوزان عليه فقول القائل: «واحد» يقصد به باب الأعداد فهذا ما لا يجوز لأن ما لا ثاني له لا يدخل في باب الأعداد، أما ترى أنه كفر من قال: ثالث ثلاثة. وقول القائل: «هو واحد من الناس» يريد به النوع من الجنس فهذا ما لا يجوز عليه لأنه تشبيه، وجلّ ربنا وتعالى عن ذلك. وأما الوجهان اللذان يثبتان فيه فقول القائل: «هو واحد ليس له في الأشياء شبه» كذلك ربنا. وقول القائل: «إنه ربنا عز وجل أحديُّ المعنى» يعني به أنه لا ينقسم في وجود ولا عقل ولا وهم، كذلك ربنا عز وجل»[2].

أما قوله عليه السلام: «إنه لا ينقسم في وجود ولا عقل ولا وهم» فالدليل عليه أنه لو انقسم لكان محتاجاً، فإن كل ذي جزء فإنما هو بجزئه يتقوّم، وبتحققه يتحقق وإليه يفتقر، والله عز وجل غنيّ عن العالمين. وأيضاً لو كان ذا جزء لكان جزؤه متقدماً عليه، فيكون الجزء أولى بأن يكون إلهاً منه، تعالى عن ذلك.

---

(١) نهج البلاغة: كتاب ٣١.

(٢) التوحيد: ص ٦٦.

الله تعالى فرد لا ندّ له ولا نظير

إن الله عز وجل فرد لا ندّ له ولا نظير، صمد لا شبه له ولا وزير، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، لأن المساواة في الرتبة نقصان في الكمال، والاستعانة بالغير مع استلزامها العجز معرّضة للزوال.

وبهذا يتبين أن له سبحانه سائر صفات الكمال من دون استفادة ولا آلة ولا كلال[1]، لأن النقص والعجز والفاقة لا تليق بالرب المتعال. فهو جلّ اسمه سميع بغير أصمخة وآذان، بصير لا بحدقة وأجفان، كما أنه سبحانه يفعل بغير جارحة، ويتكلم بغير لسان.

فكيف لا يكون سميعاً بصيراً، والسمع والبصر كمال؟! فيصير بذلك المخلوق أكمل من الخالق والمصنوع أشرف وأتم من الصانع! تعالى ربنا وتقدس عن ذلك. بل لا يحجب سمعه بعدُ، ولا يدفع رؤيته ظلام، ولا يعزب عن علمه مسموع وإن خفي، ولا مبصر وإن دقّ، فيسمع السرّ والنجوى، ويشاهد ما تحت الثرى، ويعلم حركة الذرّ في جوّ الهواء، ودبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، بل ما هو أدق من ذلك وأخفى، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، يعلم ما يلج في الأرض، ما يخرج منها

---

(١) كلال: الإعياء.

وما ينزّل من السماء وما يعرج فيها، ويعلم ما في البرّ والبحر، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، وما تخرج من ثمرة من أكمامها وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه، يعلم ما تحمل من أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال، سواء منكم من أسرّ القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار[1]، يطلع على هواجس الضمائر، وحركات الخواطر، لا يجري في الملك ولا في الملكوت شيء إلا عنده خبره، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير. أرشدك إلى الاستدلال بالخلق لمعرفة علم الصانع بكيفية الترتيب والترصيف، فما ذكره الله سبحانه هو المنتهى في الهداية والتعريف.

(١) مقتبس من القرآن بتصرف.

كل الأشياء سواء إلى الله علماً، قدرة وإحاطة

إن الله جلّ اسمه متكلم مع من يشاء بما يشاء كيف يشاء، فعّال لما يشاء كما يشاء، قدير على ما يشاء كيف يشاء، مريد للكائنات كما يشاء، مدبّرٌ للحادثات على ما يشاء، هو المبدئ والمعيد، والفعال لما يريد، ولا رادّ لحكمه، ولا معقّب لقضائه، ولا حول عن معصيته إلا بتوفيقه، ولا قوة على طاعته إلا بمعونته وإرادته، وما يشاؤون إلا أن يشاء الله. هو مع كل شيء لا بمقارنة، وغير كل شيء لا بمزايلة، ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم، ولا خمسة إلا هو سادسهم، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم، وهو معكم أينما كنتم.

قال عز وجل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾(1) ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾(2).

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾(3).

﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾(4).

---

(1) البقرة: ١٨٦.

(2) ق: ١٦.

(3) فصلت: ٥٤.

(4) البقرة: ١١٥.

وفي الحديث:

«ولو أنكم أدليتم بحبل إلى الأرض السفلى لهبط على الله».

وليست معيّته بممازجة ولا مداخلة ولا حلول ولا اتحاد ولا معيّة في درجة الوجود، ولا في الزمان، ولا في المكان، ولا في الإرشاد، ولا ما يشبه هذه، تعالى الله عن ذلك كلّه علوّاً كبيراً.

فعن الإمام الصادق عليه السلام أنه سئل عن قول الله عز وجل: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾.

قال عليه السلام:

«استوى من كل شيء، فليس شيء أقرب إليه من شيء، ولم يبعد منه بعيد، ولم يقرب منه قريب، استوى من كل شيء»[١].

وعن الإمام الهادي النقي عليه السلام قال:

«الأشياء كلها له سواء علماً وقدرة وملكاً وإحاطة»[٢].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال:

«لم يسبق له حال حالاً فيكون أوّلاً قبل أن يكون آخراً، ويكون ظاهراً قبل أن يكون باطناً»[٣].

وقال عليه السلام أيضاً:

«علمه بالأموات الماضين كعلمه بالأحياء الباقين،

---

(١) التوحيد: ص ٣٣١.

(٢) الكافي: ج ١، ص ١٢٦، رقم ٤.

(٣) نهج البلاغة: خطبة ٦٤.

وعلمه بما في السماوات العلى كعلمه بما في الأرضين السفلى»[1].

وعن الإمام الباقر عليه السلام انه قال:

«كان الله ولا شيء غيره، ولم يزل عالماً بما يكون، فعلمه به قبل كونه كعلمه به بعد كونه»[2].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«لم يزل الله جلّ وعزّ ربنا والعلم ذاته ولا معلوم، والسمع ذاته ولا مسموع، والبصر ذاته ولا مبصر، والقدرة ذاته ولا مقدور، فلما أحدث الأشياء وكان المعلوم، وقع العلم منه على المعلوم، والسمع على المسموع، والبصر على المبصر، والقدرة على المقدور»[3].

وعن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال:

«له معنى الربوبية إذ لا مربوب، وحقيقة الإلهية إذ لا مألوه، ومعنى العالم ولا معلوم، ومعنى الخالق ولا مخلوق، وتأويل السمع ولا مسموع، ليس منذ خلق استحق معنى الخالق، ولا بإحداثه البرايا استفاد معنى البارئية، كيف ولا تعينه «مذ» ولا تدنيه «قد» ولا يحجبه «العلّ» ولا يوقّته «متى» ولا يشمله «حين» ولا يقارنه «مع»»[4].

---

(١) نهج البلاغة: خطبة ١٦١.
(٢) الكافي: ج ١، ص ١٠٧، رقم ٢.
(٣) الكافي: ج ١، ص ١٠٧، رقم ١.
(٤) أخبار الرضا: ص ٨٦.

الله تعالى منزّه عن الأشباه والأنداد

قال الإمام الباقر عليه السلام:

«إن الله سبحانه أحدي المعنى، ليس بمعاني كثيرة ومختلفة، يسمع بما يبصر، ويبصر بما يسمع»[1].

وقيل للإمام الصادق عليه السلام:

«إن رجلاً ينتحل موالاتكم أهل البيت يقول: إن الله تبارك وتعالى لم يزل سميعاً بسمع، وبصيراً ببصر، وعليماً بعلم وقادراً بقدرة. فغضب عليه السلام ثم قال: من قال بذلك ودان به فهو مشرك وليس من ولايتنا على شيء، إن الله تبارك وتعالى ذات علامة سميعة بصيرة قادرة»[2].

وعن الرضا عليه السلام قال:

«من قال ذلك ودان به فقد اتخذ مع الله آلهة أخرى وليس من ولايتنا على شيء، ثم قال عليه السلام: لم يزل الله عز وجل عليماً قادراً حيّاً قديماً سميعاً بصيراً لذاته،

(١) التوحيد: ص ١٣٤.

(٢) التوحيد: ص ١٣٣.

تعالى عما يقول المشركون والمشبهون علواً كبيراً»[1].

وعن الإمام الرضا عليه السلام أيضاً أنه سُئِل:

«خلق الله تعالى الأشياء بقدرة أم بغير قدرة؟ فقال عليه السلام: لا يجوز أن يكون خلق الأشياء بالقدرة لأنك إذا قلت: خلق الأشياء بالقدرة فكأنك قد جعلت القدرة شيئاً غيره، وجعلتها آلة له بها خلق الأشياء وهذا شرك»[2].

وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام انه قال:

«كمال الإخلاص له نفي الصفات عنه لشهادة كل صفة انها غير الموصوف، وشهادة كل موصوف انه غير الصفة، فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه، ومن قرنه فقد ثناه، ومن ثناه فقد جزّأه، ومن جزّأه فقد جهله، ومن أشار إليه فقد حدّه، ومن حدّه فقد عدّه، ومن قال: فيم فقد ضمّنه، ومن قال: علامَ فقد أخلى منه»[3].

وهو الله عزّ اسمه قديم لم يزل، وباق لا يزال، وحيّ لا يموت، وقيّوم لا يفوته شيء، لا تأخذه سِنةٌ ولا نوم، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. لا تبلغه العقول والأفكار، ولا تدركه البصائر والأبصار، تنزّه ذاته عن الأمكنة والجهات، وتقدّس وجوده عن الأزمنة والحركات، وتعالى عن الاتحاد والحلول، وتبارك عن التغيّر والأفول، سرمدي ليس له مضاد، وحق بحت لا يتطرق إليه بطلان ولا فساد.

---

(١) التوحيد: ص ١٣٠.

(٢) العيون: الباب ١١، رقم ٧.

(٣) نهج البلاغة: الخطبة الأولى.

كذلك هو الله ربنا وإن كان بخلاف ذلك؛ فهو إما ناقص أو عاجز أو محتاج، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

فعن النبيﷺ أنه قال:

«إن الله لا يشبه شيئاً، ولا يشبهه شيء، وكل ما وقع في الوهم فهو بخلافه»[1].

وعن الإمام الباقرعليه السلام قال:

«هل سمّي عالماً وقادراً إلا لأنه وهب العلم للعلماء والقدرة للقادرين، وكل ما ميزتموه بأوهامكم في أدقّ معانيه مخلوق مصنوع مثلكم، مردود إليكم، والبارئ تعالى واهب الحياة، ومقدِّر الموت، ولعلّ النمل الصغار تتوهم أن لله زبانيتين فإنهما كمالها، وتتصور أن عدمها نقصان لمن لا يكونان له، هكذا حال العقلاء فيما يصفون الله تعالى به فيما أحسب وإلى الله المفزع».

(١) التوحيد: ص ٦٣.

القسم الثالث:
العدل

الله منزّه عن الظلم وفعل القبيح

إن الله عز وجل لا يفعل القبيح لأنه سبحانه وتعالى عالم بقبحه، قادر على تركه، غير محتاج إلى فعله، كيف ولو فعل القبيح لارتفع الوثوق بوعده ووعيده، وأنبيائه ورسله، تعالى وتقدس عن ذلك. وقد قال عز وجل:

﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[1].

وقال عزّ اسمه:

﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾[3].

وكل ما يفعله فإنما يفعله لحكمة ومصلحة، وإن كان جلّ اسمه غنياً عن العالمين. وإذا كان تعالى لا يفعل الظلم والقبيح، فما حجب علمه عن العباد فهو موضوع عنهم، فلا يحتجّ عليهم إلا بما آتاهم وعرّفهم كما قال عز وجل:

---

(١) فُصّلت: ٤٦.

(٢) الزّمر: ٧.

(٣) الحجّ: ٤٧.

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[1].

وقال تعالى:

﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[2] فيقولوا:
﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾[3].

وقوله عزّ اسمه:

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾[4].

قال الإمام الصادقعليه السلام:

«يعني متى يعرّفهم ما يرضيه وما يسخطه، وفي قوله عز وجل:

﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ عرّفناه إما آخذاً وإما تاركاً. ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ نجدي الخير والشر»[5].

---

(١) الإسراء: ١٥.

(٢) النساء: ١٦٥.

(٣) طه: ١٣٤.

(٤) التوبة: ١١٥.

(٥) الكافي: ج ١، ص ١٦٣، رقم ٣.

لا يكلف الله نفساً ما لا تطيقه

إن الله عز وجل أرحم بخلقه من أن يجبرهم على الذنوب ثم يعذبهم عليها كما قال سبحانه:

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[1].

وهو جلّ جلاله أعزّ من أن يريد أمراً فلا يكون كما قال عز وجل:

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[2].

فلا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين كما قال مولانا الصادق عليه السلام:

«ومثل ذلك مثل رجل رأيته على معصية فنهيته فلم ينته فتركته ففعل تلك المعصية، فليس حيث لم يقبل منك فتركته كنت أنت الذي أمرته بالمعصية»[3].

وعن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال:

«إن الله عز وجل لم يطع بالإكراه، ولم يعص بالغلبة،

---

(١) آل عمران: ١٨٢.

(٢) الإنسان: ٣٠.

(٣) الكافي: ج ١، ص ١٦٠، رقم ١٣.

ولم يهمل العباد في ملكه، وهو المالك لما ملّكهم، والقادر على ما أقدرهم عليه، فإن ائتمر العباد بطاعة لم يكن الله عنها صادّاً ولا منها مانعاً. وإن ائتمروا بمعصية فشاء أن يحول بينه وبين ذلك لفعل وإن لم يحل وفعلوه فليس هو الذي أدخلهم فيه»(١).

وقال الإمام الباقر عليه السلام:

«في التوراة مكتوب؛ يا موسى اني خلقتك واصطفيتك وقوّيتك وأمرتك بطاعتي ونهيتك عن معصيتي فإن أطعتني أعنتك على طاعتي وإن عصيتني لم أعنك على معصيتي، ولي المنّة عليك في طاعتك، ولي الحجّة عليك في معصيتك لي»(٢).

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«إن الناس في القدر على ثلاثة أوجه:

- رجل يزعم أنّ الله أجبر الناس على المعاصي فهذا قد ظلم الله في حكمه فهو كافر.

- ورجل يزعم أن الأمر مفوّض إليهم فهذا قد أوهن الله في سلطانه فهو كافر.

- ورجل يقول: إن الله كلّف العباد ما يطيقونه، ولم يكلّفهم ما لا يطيقون، وإذا أحسن حمد الله، وإذا أساء استغفر الله فهو مسلم بالغ»(٣).

---

(١) التوحيد: ص ٣٧٠.

(٢) الأمالي: للصدوق، ص ١٨٥.

(٣) التوحيد: ص ٢٧٠.

والكلام في القدر منهي عنه وهو سرّ من أسرار الله. قال الإمام الصادق عليه السلام:

«إن الله عز وجل إذا جمع العباد يوم القيامة سألهم عما عهد إليهم ولم يسألهم عما قضى عليهم»[1].

(١) التوحيد: ص ٣٧٣.

الله لا يفعل إلا ما فيه مصلحة العباد

إن الله سبحانه وتعالى لا يفعل بعباده إلا ما هو أصلح لهم لأنه عز وجل لطيف بعباده، رؤوف بهم، وهو العزيز الحكيم. قال الله تعالى:

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[1].

وفي الحديث القدسي:

«وإن من عبادي المؤمنين لمن يريد الباب من العبادة فأكفّه عنه لئلا يدخله عجب فيفسده. وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا بالفقر ولو أغنيته لأفسده.

وإن من عبادي المؤمن لمن لا يصلح إيمانه إلا بالسقم ولو صححت جسمه لأفسده ذلك. وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا بالصحة ولو أسقمته لأفسده ذلك، وإني أدبّر عبادي لعلمي بقلوبهم فإني عليم خبير»[2].

---

(١) البقرة: ١٨٥.

(٢) التوحيد: ص ٤٠٩.

وفيما أوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام:

«أن يا موسى ما خلقت خلقاً أحبّ إليّ من عبدي المؤمن، وإنما أبتليه لما هو خير له وأعافيه لما هو خير له، وأنا أعلم بما يصلح عليه أمر عبادي، فليصبر على بلائي، وليشكر نعمائي، وليرض بقضائي أكتبه في الصديقين عندي إذا عمل برضواني وأطاع أمري»(١).

وليعلم أن الله جلّ جلاله لا يكلف عباده إلا دون ما يطيقون كما قال عز وجل:

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾(٢).

وقد قال الإمام الصادق عليه السلام:

«والوسع دون الطاقة ألا ترى أنه كلفهم في كل يوم وليلة خمس صلوات، وكلفهم في كل مائتي درهم خمسة دراهم وكلفهم حجة واحدة وهم يطيقون أكثر من ذلك»(٣).

وإن الله عز وجل لم يفرغ من الأمور كما زعمته اليهود، حيث قالوا:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾(٤).

---

(١) التوحيد: ص ٤١٦.
(٢) البقرة: ٢٨٦.
(٣) المحاسن: ص ٢٩٦.
(٤) المائدة: ٦٤.

بل هو عزّ اسمُه كل يوم في شأن، يخلق ويرزق ويفعل ما يشاء:

﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾[١].

ولا يمحو إلا ما كان، ولا يثبت إلا ما لم يكن، وإلا لبطل الدعاء والدواء والصدقة وغيرها، وليس يندم على شيء تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

قال الإمام الصادق عليه السلام:

«ما بعث الله نبياً قط حتى يأخذ عليه الاقرار بالعبودية وخلع الأنداد، وإن الله عز وجل يؤخّر ما يشاء ويقدّم ما يشاء»[٢].

وقال عليه السلام أيضاً:

«إن الله لم يبد له من جهل، وقال: ما بدا الله في شيء إلا كان في علمه قبل أن يبدو له»[٣].

وعن الباقر عليه السلام قال:

«العلم علمان فعلم عند الله مخزون لم يطّلع عليه أحد من خلقه، وعلم علّمه ملائكته ورسله، فما علّمه ملائكته ورسله فإنه سيكون، لا يكذّب نفسه ولا ملائكته ولا رسله، وعلم عنده مخزون يقدّم منه ما يشاء ويؤخر ما يشاء ويثبت ما يشاء»[٤].

---

(١) الرعد: ٣٩.
(٢) التوحيد: ص ٣٤٤.
(٣) الكافي: ج ١، ص ١٤٨، رقم ٩.
(٤) المحاسن: للبرقي، ص ٢٤٣.

القسم الرابع:

النبوّة

ضرورة وجود النبي

لما ثبت أن لنا خالقاً صانعاً متعالياً عنا وعن جميع ما خلق، ولم يجز أن يشاهده خلقه ولا أن يلامسوه، ثبت إذاً أن له سفراء في خلقه، وهم وسائط بينه وبينهم، يأخذون من الله ويعطون الخلق، يتعلمون من لدنه ويعلّمون الناس، ويدلونهم من عنده على مصالحهم ومنافعهم وما به بقاؤهم وما في تركه فناؤهم. فهم الآمرون والناهون عن الحكيم العليم في خلقه، وهم الأنبياء وصفوته الحكماء المؤدّبون بالحكمة، المبعوثون بها إلى الخلق.

وهم غير مشاركين للناس في شيء من أحوالهم وإن شاركوهم في الخلق والتركيب لئلا يبعدوا عنهم كل البعد، بل يناسبوهم بعض المناسبة ويأنسون بهم بعض الأنس كما قال الله عز وجل:

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩﴾[1].

ولا بد من تخصيصهم بآيات من الله سبحانه تدل على أن شريعتهم هي من عند ربّهم العالم القادر الغافر المنتقم، لكي يخضع الناس لهم، وهي الآيات هي ما تسمى بالمعجزة. فكما أن العناية الإلهية اقتضت

(١) الأنعام: ٩.

إرسال المطر لأجل الحفاظ على نظام هذا العالم، كذلك اقتضت العناية الإلهية إرسال الأنبياء والرسل ليعرّفوا الخلق على ما فيه صلاحهم في الدنيا والآخرة.

فمن لم يترك الجوارح والحواس حتى جعل لها رئيساً يصحح لها الصحيح، وتتيقن به ما شكّت فيه وهو الروح، فكيف يترك الخلائق كلها في حيرتهم وشكهم وضلالتهم؟، فلا يقيم لهم هادياً يرجعون إليه في شكهم وحيرتهم! وهو عز وجل القائل:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾(1).

وقال عز من قائل:

﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾(2).

---

(1) الحديد: ٢٥.

(2) الجمعة: ٣.

الأنبياء معصومون عن الخطأ والزلل

إن النبي يجب أن يكون منزهاً عن كل ما يدنّسه ويشينه من الوقوع في الغلط والفظاظة وسوء الخلق والحسد والبخل ودناءة الآباء وعهر الأمهات والأنوثة والخنوثة والعمى والعرج وما شابه ذلك..

وأن يكون معصوماً عن الذنوب كبائرها وصغائرها، كل ذلك لئلا تنفر عنه الطباع، وكيف يذنب النبي وأصول الذنوب منحصرة في أربعة: الحرص والحسد والغضب والشهوة. والنبي لا يجوز أن يكون حريصاً على الدنيا وهي تحت خاتمه، لأنه خازن المسلمين فعلى ماذا يحرص؟!

ولا يجوز أن يكون حسوداً لأن الإنسان إنما يحسد من هو فوقه، وليس فوق النبي أحد.

ولا يجوز للنبي أن يغضب على شيء من أمور الدنيا إلا أن يكون غضبه لله تعالى في إقامة الحدود ونحوها، ولا أن يتبع الشهوات ويؤثر الدنيا على الآخرة لأن الله عز وجل حبّب إليه الآخرة كما حبّب إلينا الدنيا، فهو ينظر إلى الآخرة كما ننظر نحن إلى الدنيا.

فكل ما ورد في القرآن والحديث من نسبة الذنوب إلى الأنبياء والأوصياء عليهم السلام، فهو مأوّل كما ورد عن أهل البيت عليهم السلام في نصوص مستفيضة. وأنهم لما كانوا مستغرقين في طاعة الله عز وجل فإذا اشتغلوا أحياناً عن ذلك ببعض المباحات زيادة على الضرورة عدّ ذلك ذنباً في

حقهم عليهم السلام، هكذا ينبغي أن يعتقد في المصطفين الأخيار سلام الله عليهم.

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«إن الله عز وجل مكّن أنبياءه من خزائن لطفه وكرمه ورحمته، وعلّمهم من مخزون علمه، وأفردهم من جميع الخلائق لنفسه، فلا يشبه أخلاقهم وأحوالهم أحداً من الخلائق أجمعين، إذ جعلهم وسائل سائر الخلق إليه، وجعل حبهم وطاعتهم سبب رضاه، وخلافهم وإنكارهم سبب سخطه، وأمر كل قوم باتباع ملّة رسولهم، ثم أبى أن يقبل طاعة أحد إلا بطاعتهم وتبجيلهم، ومعرفة حبهم وحرمتهم ووقارهم وتعظيمهم وجاههم عند الله. فعظِّم جميع أنبياء الله تعالى ولا تنزّلهم منزلة أحد من دونهم، ولا تتصرف بعقلك في مقاماتهم وأحوالهم وأخلاقهم إلا ببيان محكم من عند الله وإجماع أهل البصائر بدلائل تتحقق بها فضائلهم ومراتبهم. وأنّى بالوصول إلى حقيقة ما لهم عند الله تعالى! وإن قابلت أقوالهم وأحوالهم بمن دونهم في الناس أجمعين فقد أسأت صحبتهم وأنكرت معرفتهم، وجهلت خصوصيتهم بالله، وسقطت عن درجة حقائق الإيمان والمعرفة. فإياك ثم إياك»[1].

---

(١) مصباح الشريعة: الباب ٦٨، ص ٤٥.

النبي وأهل بيته أفضل خلق الله

الأنبياء عليهم السلام أفضل من الملائكة، ولهذا أمر الله عز وجل الملائكة بالسجود لآدم عليه السلام حيث قال الله عز وجل:

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾[١].

وقال نبينا صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام:

«يا علي إن الله تبارك وتعالى فضّل أنبياءه المرسلين على ملائكته المقربين وفضّلني على جميع النبيين والمرسلين، والفضل بعدي لك يا عليّ وللأئمة من بعدك، وإن الملائكة لخدامنا وخدام محبينا»[٢].

وقد ورد أن عدد الأنبياء عليهم السلام مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً وعدد أوصيائهم كذلك، إذ لكل نبي وصيّ أوصى إليه بأمر الله عز وجل وكلهم جاؤوا بالحق من عند الحق، بحيث صار قولهم قول الله، وأمرهم أمر الله وطاعتهم طاعة الله ومعصيتهم معصية الله، وأنهم لن ينطقوا إلا عن الله ووحيه، وسادتهم خمسة، وهم الذين عليهم دارت الرَّحى وهم

---

(١) آل عمران: ٣٣.

(٢) بحار الأنوار: ج ٧، ص ٣٥٣.

أصحاب الشرائع وأولو العزم: نوح وابراهيم وموسى وعيسى ونبيّنا محمدﷺ، وهو سيدهم وأفضلهم وخاتمهم، لا نبي بعده، ولا تبديل لملّته، ولا تغيير لشريعته، كما قال الله عز وجل:

﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾(١).

وقال عزّ اسمه: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾(٢).

فالذين كذبوا به فسيذوقون العذاب الأليم، والذين آمنوا به وعزّروه ونصروه، واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون الفائزون.

والله عز وجل لم يخلق خلقاً أفضل من محمد وأوصيائه الأئمة الهداة صلوات الله عليهم أجمعين، وانهم أحبّ الخلق إليه، وأكرمهم عليه، وأولهم إقراراً به تعالى لما أخذ الله ميثاق النبيين وأشهدهم على أنفسهم ألستُ بربكم قالوا بلى، وأن الله تعالى بعثهﷺ إلى الأنبياءعليهم السلام في عالم الذر كما قال عز وجل: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾﴾(٣).

وإنما أعطى الله كل نبيّ ما أعطى على قدر معرفته بنبيناﷺ، وسبقه إلى الإقرار به.

وإنما خلق الله جميع ما خلق له ولأهل بيته صلوات الله عليهم، ولولاهم لما خلق الله آدم ولا حواء، ولا الملائكة ولا شيئاً مما خلق.

(١) الأحزاب: ٤٠.
(٢) الصافات: ٣٧.
(٣) النجم: ٥٦.

القرآن معجزة الرسول الخالدة

إن من شاهد أحوال نبينا ﷺ وأصغى إلى سماع أخباره، الدالة على أخلاقه وأفعاله وأحواله وعاداته وسجاياه وسياسته لأصناف الخلق وهدايته لهم وسوقهم إلى طاعة الله، مع ما يحكى من عجائب أجوبته على الأسئلة الدقيقة، وبدائع تدبيراته في مصالح الخلق، ومحاسن إشاراته في تفصيل مسائل الشرع الذي يعجز الفقهاء والفضلاء عن إدراك دقائقها في طول أعمارهم، لم يبق له ريب ولا شك في أنّ ذلك لم يكن مكتسباً بالقوة البشرية، بل لا يتصوّر ذلك إلا بالاستمداد من تأييد سماوي وقوّة إلهية، وأن ذلك كله لا يتصوّر لكذاب ولا لملبّس. بل ان شمائله وأحواله كانت شواهد قاطعة على صدقه حتى أن العرب القحّ كان يراه فيقول:

والله ما هذا وجه كذّاب. فكان يُشهد له بالصدق بمجرّد شمائله فكيف بمن يشاهد أخلاقه.

وقد آتاه الله جميع ذلك وهو لم يمارس العلم، ولم يطالع الكتب ولم يسافر قط في طلب العلم، ولم يزل بين أظهر الجهّال من الأعراب يتيماً ضعيفاً مستضعفاً، فمن أين حصل له ما حصل من محاسن الأخلاق والآداب ومعرفة مصالح الفقه، فضلاً عن معرفته بالله وملائكته وكتبه ورسله وغير ذلك ممّا هو من خواص النبوّة؟!

وقد ظهر من معجزاته وآياته ما لا يستريب فيه محصّل، كانشقاق القمر، ونبوع الماء من بين أصابعه، ومنها القرآن العزيز الباقي إلى آخر الدهر، والذي تحدّى به بلغاء الخلق وفصحاء العرب، وكان ينادي بين أظهرهم أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور مثله، أو بسورة مثله إن شكّوا. فقال لهم:

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[1].

قال الله ذلك تعجيزاً لهم حتى أقروا بذلك وصرفوا عنه، حتى أنهم عرضوا أنفسهم للقتل ونساءهم وذراريهم للسبي وما استطاعوا أن يعارضوا ولا أن يقدحوا في جزالته وحسنه، إلا أن قالوا:

﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾﴾[2] و﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾[3].

فالقرآن الكريم كلام الله ووحيه وقوله وكتابه الذي:

﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾[4].

وهو القصص الحق والقول الفصل، وما هو بالهزل. وإن الله تبارك وتعالى هو محدثه ومنزله وربّه وحافظه وهو المهيمن على الكتب كلّها. وهو حق من فاتحته إلى خاتمته. ولا يقدر أحد من المخلوقين أن يأتي بمثله.

ونبوة النبي ﷺ عامة لجميع الناس كما قال عز وجل:

---

(١) الإسراء: ٨٨.
(٢) المدّثر: ٢٤.
(٣) القمر: ٢.
(٤) فصّلت: ٤٢.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[1].

بل للجن والإنس معاً كما قال عز وجل:

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[2].

وكما أن النبيﷺ هو سيد الأنبياء فكذلك أوصياؤه هم خير الأوصياء، وكتابه خير الكتب، والمهيمن عليها كلها، ودينه خير الأديان وناسخها، وأمته خير الأمم وأوسطها كما قال عز وجل:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[3].

وقوله تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[4].

---

(١) سبأ: ٢٨.

(٢) الأحقاف: ٢٩ ـ ٣١.

(٣) آل عمران: ١١٠.

(٤) البقرة: ١٤٣.

القسم الخامس:
الإمامة

ضرورة وجود الإمام

إن ما ذكرناه في بيان ضرورة وجود النبي هو بعينه جار في ضرورة وجود الوصي والخليفة من بعده. لأن الاحتياج إلى الأنبياء غير مختص بوقت دون آخر وفي حالة دون أخرى. ولا يكفي بقاء الكتاب والشرائع من دون قيّم عليها، عالم بها. ألا ترى إلى الفرق المختلفة كيف يستندون في مذاهبهم كلها إلى كتاب الله لجهلهم بمعانيه وزيغ قلوبهم وتشتت أهوائهم.

فظهر أنه لا بد لكل نبي مرسل من عند الله من وصيّ يودع فيه أسرار نبوّته وأسرار الكتاب المنزل عليه، فيكشف له مبهمه ليكون هذا الوصي حجة ذلك النبي على قومه، ولئلا تتصرف الأمّة في ذلك الكتاب بآرائها وعقولها، فتختلف وتزيغ قلوبهم كما أخبر الله عز وجل فقال:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾[1].

فالرسول والوصي والكتاب هو الحجة على الأمة ليهلك من هلك

(١) آل عمران: ٧.

عن بيّنة ويحيى من حيي عن بيّنة، وهذا كما فعل آدم بشيث، ونوح بسام، وإبراهيم بإسحاق، وموسى بيوشع، وعيسى بشمعون ونبينا ﷺ بعلي عليه السلام.

وأيضاً وجود الإمام لطف من الله سبحانه بعباده، إذ بوجوده يجتمع شملهم، ويتصل حبلهم، وينتصف الضعيف من القوي، والفقير من الغني، ويرتدع الجاهل، ويتيقظ الغافل، قال الله تعالى:

﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[1].

وقال عز وجل: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[2].

وقال عزّ اسمه:

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾[3].

وقال النبي ﷺ:

«في كل خلف من أمتي عدول من أهل بيتي ينفون عن الدين تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين»[4].

وإذا عدم الإمام تعطلت أكثر أحكام الدين، فتنتفي الفائدة المقصودة منها. فمن أجل ذلك أوصى نبينا ﷺ إلى معصوم من أهل بيته، عدل، طهّره الله من الرجس تطهيراً، ونزّهه عن الخطأ، آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب، وعلّمه من لدنه علم ما تحتاج إليه الأمة في

---

(١) فاطر: ٢٤.

(٢) الرعد: ٧.

(٣) النحل: ٨٩.

(٤) مشكاة المصابيح: ص ٣٦.

كل باب، وعلّمه رسول الله ﷺ ألف باب من العلم يفتح له من كل باب ألف باب، فخلّفه في أمّته بعد رحلته بأمر من الله سبحانه واختيار منه لئلا يضلوا من بعده.

ثم أكد تلك الوصية بالنص عليها مرّة بعد أخرى بمشهد من الناس حتى لم يخف ذلك على أحد من زمانه ولا على أولي البصائر من بعده.

وحديث الغدير في ذلك مشهور. أما التمسك بالإجماع على خلافة أبي بكر بعد هذه النصوص، فمثله كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت، وكيف يصح ذلك والله سبحانه يقول:

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ اللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾﴾[١].

وقال عز وجل:

﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾﴾[٢].

فالناس غير قادرين على اختيار الأصلح لأنه ليس لهم سبيل إلى الاطلاع على الباطن ومكنون السريرة. فلعلهم يختارون منافقاً ومضلاً لا يعرفون نفاقه ومكره، فيفسد الأمة بفساد باطنه.

لذا فإن الاختيار لا يكون إلا لمن يعلم ما تخفي الصدور، وتكن الضمائر، وليس ذلك إلا الله عز وجل: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا اللَّهُ﴾.

وقد روي عن الإمام السجاد عليه السلام أنه قال:

«الإمام منا لا يكون إلا معصوماً، وليست العصمة في

---

(١) القصص: ٦٨.

(٢) القصص: ٦٩.

ظاهر الخلقة فتعرف، ولذلك لا يكون إلا منصوصاً»[1].

وأما غيبة بعض الأئمة في بعض الأحيان، وعدم تمكنه من إجراء الأحكام، فإنما ذلك من جهة الرعية دون الإمام، فليس ذلك نقضاً على لطف الله تعالى. فإنما على الله إيجاد الإمام للرعية ليجمع به شملهم، فإن لم يمكنوه من ذلك لعدم قابليتهم وسوء استعدادهم، فما على الله من ذلك حجة وهو الذي يقول:

﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[2].

مع أن في غيبته من الخيرات والحكم ما يؤدي إلى مضاعفة ثواب المؤمنين بهذه الغيبة والمصدّقين بوجود الإمام عليه السلام، وما يسهّل معها فوات إقامة الحدود ونحوها.

(١) رواه الصدوق في المعاني: ص ١٣٢.

(٢) التوبة: ٧٠.

الإمام ينبغي أن يكون أفضل أهل زمانه

إن الإمام يجب أن يكون أفضل أهل زمانه وأقربهم إلى الله عز وجل، وأن تجتمع فيه خصال الخير المتفرقة في غيره، مثل العلم بكتاب الله تعالى وسنّة رسولهﷺ، والفقه في دين الله تعالى، والجهاد في سبيل الله، والرغبة فيما عند الله دائماً، والزهد فيما بيد الخلق، إلى غير ذلك من الخيرات..

وأن يكون معصوماً من الزيغ والزلل والخطأ في القول والعمل، منزهاً عن الحكم بالهوى أو الميل إلى الدنيا. وبالجملة كل ما اشترط في النبيﷺ من الصفات فهو شرط في الإمام ما خلا النبوة. كما قال الإمام الصادقعليه السلام:

«كل ما كان لرسول اللهﷺ فلنا مثله إلا النبوة والأزواج»[1].

ولا يتوصل إلى معرفة هذه الخصال المحمودة والخلال المعدودة إلا بوحي من الله سبحانه لامتناع الاطلاع على البواطن كما ذكرنا.

ولذلك أوحى الله تعالى إلى نبيناﷺ في عليعليه السلام بآية:

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾[2].

---

(١) المائدة: ٥٥.

وقوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾[1].

وغيرهما، فإذا ظهر الوحي وجب على الرسول أن ينصّ على من يخلفه بعد وفاته **إما قولاً**: كقول النبي ﷺ:

«من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه»[2].

وقوله ﷺ:

«معاشر أصحابي إن عليّ بن أبي طالب وصيّي وخليفتي عليكم في حياتي وبعد مماتي، وهو الصدّيق الأكبر، والفاروق الأعظم، الذي الأعظم، الذي يفرّق بين الحق والباطل، وهو باب الله الذي يؤتى منه، وهو السبيل إليه والدليل عليه، من عرفه فقد عرفني، ومن أنكره فقد أنكرني، ومن تبعه فقد تبعني»[3].

وإما فعلاً: كفعل نبينا ﷺ بعلي حيث ولاّه سراياه وجيوشه، وسيّرهم تحت رايته، ولم يولّ عليه أحداً قط، ولم يكن كمن سار تحت راية عمر بن العاص وأسامة بن زيد وغيرهما. وقد علم أصحابه ﷺ أن علياً عليه السلام كان أميراً في جيوشه غير مؤمّر عليه. كيف لا يوصي النبي ﷺ بمثل هذا الأمر العظيم، وقد أمر الناس بالوصيّة فيما هو أهون من ذلك!؟

---

(١) المائدة: ٦٧.

(٢) معاني الأخبار للصدوق: ص ٦٥.

(٣) بحار الأنوار: ج ٩.

أسباب الاختلاف على أمر الخلافة

إن اختلاف أصحاب النبيﷺ في أمر الخلافة من بعده لا دلالة فيه على عدم وقوع النص من النبيﷺ، بل إنما كان ذلك لغلبة حب الرئاسة والحسد على بعضهم، فاحتالوا لذلك حيلاً وخدائع فلبّسوا الأمر على أكثر الناس من بعد وقوع النص الصريح مرّة بعد أخرى، وسماعهم ذلك كرّة بعد أولى.

فجحدوا ما علموه وبدلوا ما سمعوه، وأنكروا ما ثبت في أعناقهم من حق أمير المؤمنينعليه السلام، وادّعوا التأمّر على الناس، وتسمّوا زوراً وبهتاناً بخلفاء النبيﷺ بغير قدم راسخ في علم ولا سبق في الفضل. بل بالحيل والخدائع. الذين قالوا: آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم. ومن الشواهد على ذلك عقدهم للبيعة في السقيفة، وما أدراك ما السقيفة!!!

أعرضوا عن تغسيل رسول اللهﷺ وتكفينه ودفنه والفجيعة به، واشتغلوا بتهيئة أسباب الإمارة، وتهييج ذوي الأحقاد على أمير المؤمنينعليه السلام، الذين إنما أسلموا خوفاً من سيفه بعد أن قتل آباءهم وأبناءهم بيده في مواقف النزال، وإلى غير ذلك من الأمور المنكرة الشنيعة الفاضحة.

ومن يتتبع أخبار العامة أنفسهم حق تتبع، يظهر له عدم تحقق الإجماع على خلافة أبي بكر، كما أنه لم يقع نص من الله ورسوله عليها. فلم يشهد حلقة البيعة ولم يحضر ما سمي إجماعاً بالزور أجلّة

الأصحاب، ولا مشاهيرهم الكبار، الذين لا يعبأ إلا بهم ولا يعوّل إلا عليهم.

فالعباس عمّ الرسول وأبناؤه، وسلمان، وأبي ذر، والمقداد، وعمار، وحذيفة، وأبو بريدة الأسلمي، وأُبيّ بن كعب، وخزيمة بن ثابت ذو الشهادتين، وسهل بن حنيف، وسعد بن عبادة رأس الأنصار، وزيد بن أرقم وغيرهم، لم يكونوا حاضرين في تلك البيعة!

وإنما أخذوا البيعة بعد حين من بعض هؤلاء وغيرهم بالوعيد والتهديد، ومنهم من أصرّ على الإنكار إلى يوم الدين.

قال أبو حامد الغزالي:

(لكن أسفرت الحجة وجهها، وأجمع الجماهير على متن الحديث من خطبته يوم غدير خمّ وهو ﷺ: «من كنت مولاه فعليّ مولاه» فقال عمر: بخ بخ لك يا أبا الحسن لقد أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة.

فهذا تسليم ورضى وتحكيم، ثم بعد هذا غلب الهوى وحب الرئاسة، وحمل عمود الخلافة ونبوذ العقود في خفقان الهواء وقعقعة الرايات، واشتباك ازدحام الخيول، وفتح الأمصار، والأمر والنهي، فعادوا إلى الخلاف الأول فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً، فبئس ما يشترون. ولما مات رسول الله ﷺ قال وقت وفاته: ايتوني بدواة وبياض لأزيل عنكم مشكل الأمر واذكر لكم من المستحق لها بعدي. فقال عمر: دعوا الرجل فإنه ليهجر وقيل يهذي)[1].

---

(١) كتاب سر العالمين وكشف الدارين: ص ١٥.

ـ المطاعن من الثلاثة[١]:

إن مطاعن الثلاثة أكثر من أن تحصى وأشهر من أن تخفى وكفاك منها تخلفهم عن جيش أسامة مع علمهم أنهم مأمورون به، وتأكيد النبيﷺ ذلك باللعن على من تخلّف.

ومنها منع أبو بكر فاطمة فدك مع ادّعائها النحلة لها وشهادة عليعليه السلام وأم أيمن بذلك، وعدم تصديقه لهم وتصديقه الأزواج في ادعاء الحجرة لهن من غير شاهد، ولهذا ردّها بعد ذلك عمر بن عبد العزيز. وأوصت فاطمةعليها السلام أن لا يصلي عليها فدفنت ليلاً[٢].

وقول أبي بكر: إن له شيطاناً يعتريه[٣]. وقول عمر: كانت بيعة أبي بكر فلتة وقى الله شرها فمن عاد إلى مثلها فاقتلوه[٤].

وعدم معرفته بالأحكام حتى قطع يسار السارق[٥]، واحرق رجلاً بالنار[٦]، ولم يعرف الكلالة ولا ميراث الجدّه، واضطرب في كثير منها[٧]، ولم يحدّ خالد بن الوليد ولا اقتصّ منه[٨]، وبعثه إلى بيت أمير المؤمنينعليه السلام لما امتنع من البيعة فأضرم فيه النار وفيه فاطمةعليها السلام وجماعة من بني هاشم[٩]، وندمه على كشف بيت فاطمة[١٠].

---

(١) الثلاثة: أي أبو بكر، وعمر، وعثمان.
(٢) حلية الأولياء: ج ٢، ص ٤٣.
(٣) تاريخ الخلفاء: للسيوطي، ص ٧١.
(٤) سيرة ابن هاشم: ج ٢، ص ٦٥٧.
(٥) سنن البيهقي: ج ٨، ص ٢٧٣.
(٦) مروج الذهب: ج ٢، ص ٣٠٨.
(٧) صحيح البخاري: باب ميراث الجد.
(٨) أسد الغابة: ج ٤، ص ٢٩٥.
(٩) الإمامة والسياسة: ج ١، ص ١٢.
(١٠) مروج الذهب: ج ٢، ص ٣٠٩.

وأمر عمر برجم امرأة حامل وأخرى مجنونة وأخرى ولدت لستة أشهر[١]، فنهاه عليعليه السلام بعد الحجة والإلزام، فقال عمر: لولا عليّ لهلك عمر.

وقول عمر: كل الناس أفقه من عمر حتى المخدرات في الحجال[٢]، وتغييره لكثير من حدود الله المذكورة في القرآن، وسنن الرسولصلى الله عليه وآله الثابتة بالنصوص المروية في الصحاح، كأمره في الوضوء بغسل الرجلين، ومسح الأذنين، والمسح على العمامة والخفين[٣]، وإيجابه الوضوء مع الغسل، ونهيه عن «حي على خير العمل» في الأذان، وزيادة «الصلاة خير من النوم» في أذان الفجر[٤]. ومنعه المتعتين مع اعترافه بأنهما كانتا في عهد رسول اللهصلى الله عليه وآله[٥]، ومنعه أهل البيتعليهم السلام من خمسهم[٦]، وخرقه كتاب فاطمةعليها السلام[٧]، وجعله الخلافة شورى بين ستة شهد لهم بأنهم من أهل الجنة، وأن النبيصلى الله عليه وآله مات وهو عنهم راض، ثم أمر بضرب أعناقهم جميعاً إن لم يبايعوا واحداً منهم[٨]، وإلى غير ذلك من المنكرات التي سجلت بحقه..

أما عثمان فقد ولى من ظهر فسقه حتى أحدثوا في أمر المسلمين ما أحدثوا، وردّه طلقاء الرسول، وإيثاره أهله بالأموال العظيمة[٩]،

---

(١) الدر المنثور: ج ١، ص ٢٨٨.
(٢) الدر المنثور: ج ١، ص ١٣٣.
(٣) كتاب الاستغاثة.
(٤) شرح التجريد: للقوشجي الأشعري: ص ٤٠٧.
(٥) مسند أحمد: ج ١، ص ٥٠.
(٦) الدر المنثور: ج ٣، ص ١٨٥.
(٧) الاختصاص للمفيد: ص ١٨٥.
(٨) الصواعق: ص ١٠٢.
(٩) تاريخ الخلفاء: السيوطي، ص ١٥٧.

وضربه ابن مسعود حتى مات[1]، وإحراق مصحفه، وضربه عمار حتى فتق[2] وضربه أبا ذر ونفيه إياه إلى الرّبذة[3]، وإسقاط الحد عن الوليد، وخذلان الصحابة له حتى قتل، وقال أمير المؤمنين عليه السلام: قتله الله[4]، ولم يدفن إلى ثلاث. إلى غير ذلك من المناكير التي يحصل بها الجزم بنفاقهم وشقاقهم، هذا مع ما ورد من طريق أهل البيت عليهم السلام من النصوص الصريحة والتصريحات بسبهم ولعنهم وكفرهم ما يكاد يخرج عن حد التواتر، ولا سيما شكايات أمير المؤمنين علي عليه السلام عنهم تصريحاً وتلويحاً في خطبه وكلماته في هذا الأمر خاصة. هذا مع كثرة فضائل أمير المؤمنين عليه السلام وشدّة جهاده، وعظيم بلائه في وقائع النبي صلى الله عليه وآله وعدم بلوغ أحد درجته. من غزاة بدر والأحزاب وخيبر وحنين وغيرها في شجاعته وقوة حدسه وشدّة ملازمته للرسول صلى الله عليه وآله وتربيته إياه مذ حين الصبا إلى أن خلّفه بعده، ورجوع الصحابة إليه في أكثر الوقائع بعد وقوعهم في الغلط، واستناد الفضلاء في جميع العلوم إليه. وهو الذي كان أسخاهم وأزهدهم وأعبدهم وأحلمهم وأحسنهم خلقاً، وأطلقهم وجهاً، وأقدمهم إيماناً، وأشدهم يقيناً، وأحسنهم عملاً، وأعظمهم عناءً، وأرفعهم نسباً، وأشرفهم منزلة، وأقضاهم قضاء، وأسدهم رأياً، وأكثرهم حرصاً على إقامة حدود الله، وأحفظهم لكتاب الله، وإخباره بالغيب مراراً، واستجابة دعائه كثيراً، وظهور المعجزات عنه، واختصاصه بالقرابة والأخوّة، ووجوب المحبة والنصرة، ومساواة الأنبياء عليهم السلام، ومواساة النبي صلى الله عليه وآله، وخبر الطائر، والمنزلة، والغدير[5]،

---

(١) الغدير: ج ٩، ص ٣.

(٢) شرح ابن أبي الحديد: ج ١، ص ٢٣٦.

(٣) مروج الذهب: ج ٢، ص ٣٤٨.

(٤) روضة الكافي: ص ٦٧.

(٥) خصائص النسائي: ص ١٩.

وحديث الكساء في آية المباهلة والتطهير[1]، وغيرها. . .

وينبغي العلم؛ ان ابتلاء الله سبحانه لأنبيائه وأوليائه سنّة ماضية في الأمم الخالية، ولم تزل جارية على هذا المنوال، ولن تجد لسنّة الله تبديلا. وهذا ما يزيل بعض التعجب من ضلال أكثر هذه الأمة عن الصواب، وغلبة الباطل على الحق في ظاهر الأسباب.

فإن آدم عليه السلام كان له ولدان فغلب مبطلهما على محقّهما، وبقيت أمّة شيث ومن بعده في تقية مغلوبين إلى أن جاءت نبوّة نوح عليه السلام، فلم يزالوا عليه مستظهرين وله معاندين إلى أن أهلكهم الله بالغرق الشامل والهلاك الهائل. وكذا جرى لصالح وهود ولوط عليهم السلام مع أممهم ولإبراهيم مع نمرود، ولموسى عليه السلام مع فرعون ولعيسى عليه السلام مع اليهود، وما انقادوا لأحد من الأنبياء عليهم السلام إلا بالآيات والقهر.

فأي أمّة استقامت بالسلامة والعافية حتى تستقيم هذه الأمة بطاعة الله وطاعة الأئمة، وإن شئت أن تسمع شيئاً مما فعله طائفة من الصحابة والتابعين ليكون أنموذجاً لأفعالهم الشنيعة؛ فاصغ إلى حديث سليم بن قيس الهلالي، قال:

«إن منادي معاوية نادى أن برئت الذمة ممن روى حديثاً من مناقب علي عليه السلام وفضل أهل بيته، وكان أشد الناس بليّة أهل الكوفة لكثرة من بها من الشيعة، فاستعمل زياد بن أبيه وضم إليه العراقين ـ الكوفة والبصرة ـ فجعل يتتبّع الشيعة وهو بهم عارف، يقتلهم تحت كل حجر ومدر، وأخافهم وقطع الأيدي والأرجل، وصلبهم على جذوع النخل، وسمل

(١) تفسير الكشاف: ج ١، ص ٢٨٣.

أعينهم، وطردهم حتى نفوا عن العراق فلم يبق بها أحد معروف مشهور»[1].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام:

«وقد كذب على رسول الله صلى الله عليه وآله في عهده حتى قام خطيباً، فقال: أيها الناس قد كثر عليّ الكذابة، فمن كذّب عليّ متعمداً فليتبوّأ مقعده من النار، ثم كذب عليه بعده».

وروي[2] أن معاوية كان يبذل الأموال لمن كان موثوقاً به عند الناس من الصحابة ليضع حديثاً في فضل الخلفاء الثلاثة، أو في منقصة أمير المؤمنين عليه السلام، ثم يرويه عن النبي صلى الله عليه وآله على المنبر بمشهد الناس.

حتى قال إمامنا الباقر عليه السلام:

«ارتد الناس إلا ثلاثة نفر: سلمان، وأبو ذر، والمقداد، قال الراوي: فعمار؟ قال عليه السلام: جاض جيضة[3]، ثم رجع»[4].

والمستفاد من الأخبار التي تكاد تبلغ حدّ التواتر، ان الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وآله صاروا صنفين: صنف من أهل التدليس والتلبيس من جنود ابليس وهم الذين شيدوا أركان هذه الضلالة، وصنف من أهل العمى والتقليد، قد شبه لهم الأمر فدخلوا فيه على غير بصيرة تعصباً لمن تولّى وكفر، وتقليداً لشياطين البشر ممن كان في الجاهلية لا يفرّق بين الله عز وجل وبين الخشب والحجر، فكيف بين عليّ عليه السلام وأبي بكر وعمر، وكان معهم تلك العقول السقيمة، فلا غروَ أن يعدلوا عن الطريقة القويمة.

---

(١) الاحتجاج: للطبرسي، ص ١٥٣.

(٢) شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد، ص ٣٦١، ج ١.

(٣) جاض: زاغ.

(٤) رجال الكشي: ص ٨.

أسماء الأئمة الواجبي الطاعة بعد النبي ﷺ

لقد تواتر لنا عن نبينا ﷺ أن حجج الله تعالى على خلقه بعده هم الأئمة الإثنا عشر؛ أوّلهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ثم الحسن الزكي، ثم الحسين الشهيد، ثم عليّ بن الحسين زين العابدين، ثم محمد بن علي الباقر، ثم جعفر بن محمد الصادق، ثم موسى بن جعفر الكاظم، ثم علي بن موسى الرضا، ثم محمد بن علي الجواد، ثم علي بن محمد الهادي، ثم الحسن بن علي العسكري، ثم ابنه القائم سميُّ النبي وكنيّه صاحب الزمان وخليفة الله في أرضه في هذا الزمان.

قال النبي ﷺ:

«اثنا عشر من أهل بيتي أعطاهم الله فهمي وعلمي وحكمتي، وخلقهم من طينتي، فويل للمتكبرين عليهم بعدي القاطعين فيهم صلتي، ما لهم لا أنالهم الله شفاعتي»[(١)].

وقال ﷺ أيضاً:

«بعدي اثنا عشر أوّلهم أنت يا عليّ، وآخرهم القائم الذي يفتح الله على يديه مشارق الأرض ومغاربها»[(٢)].

---

(١) كمال الدين: ص ١٦٤.

(٢) المصدر السابق: ص ١٤٩.

وقد استفاضت أمثال هذه الروايات في كتب العامة فضلاً عن الخاصة. وقد نصّ كل واحد منهم عليه السلام على من بعده بالإمامة، وأخبر أصحابه باسمه ونعته وعصمته. وقد ثبتت طهارتهم وصدقهم جميعاً عند معتبري أهل الإسلام كافة على اختلاف فرقهم ومذاهبهم. وهذا من أوضح الدلالات على حجيتهم دون غيرهم ممن اختلف في فضله وحاله.

ومن أوضح الدلائل على إمامتهم أن الله عز وجل جعل آية النبي صلى الله عليه وآله أنه أتى بقصص الأنبياء الماضين عليهم السلام، وبكل علم التوراة والإنجيل والزبور، من غير أن يكون تعلّم الكتابة ظاهراً، أو لقي نصرانياً أو يهودياً فكان ذلك أعظم آياته. وكذلك هو الأمر بالنسبة للأئمة عليهم السلام، فبعد استشهاد الحسين عليه السلام خلفه ابنه علي بن الحسين عليه السلام وكان سنه أقلّ من عشرين سنة. ثم انقبض عن الناس فلم يلق أحداً ولا كان يلقاه إلا الخواص من أصحابه، وكان في نهاية العبادة ولم يخرج عنه من العلم إلا يسير الصعوبة الزمان وجور بني أميّة. ثم ظهر ابنه محمد بن علي المسمّى بالباقر لفتقه العلم، فأتى من علوم الدين والكتاب والسنّة والسير والمغازي بأمر عظيم، وأتى جعفر بن محمد من بعده من ذلك بما كثر، حتى لم يبق فنّ من فنون العلم إلا أتى فيه بأشياء كثيرة. ففسّر القرآن والسنن ورويت عنه المغازي وأخبار الأنبياء عليهم السلام من غير أن يرى هو وأبوه وجدّه عليهم السلام أحداً من رواة حديث العامة وفقهائهم. وهذا أدلّ دليل على أنهم إنما أخذوا ذلك العلم عن النبي صلى الله عليه وآله وعن علي عليه السلام واحداً بعد واحد. فأي دليل أدلّ من هذا على إمامتهم؟!

فالنبي صلى الله عليه وآله نصّبهم وعلّمهم وأودعهم علمه وعلوم الأنبياء قبله، وهل رأينا في العادات من ظهر عنه مثلما ظهر عن محمد بن علي الباقر وجعفر بن محمد الصادق عليهما السلام، من غير أن يتعلموا ذلك من أحد من الناس؟!

والنصوص الواردة عن النبيﷺ في فضائلهم ومناقبهم أكثر من أن تحصى، وأشهر من أن تخفى، سيما في فضائل أمير المؤمنين عليعليه السلام. فقد روي عن الرسول أنه قال:

«لو أن الرياض أقلام والبحر مداد والجنّ حسّاب، والأنس كتّاب ما أحصوا فضائل أمير المئمنين علي بن أبي طالب»(١).

ويجب أن يعلم أنهمعليهم السلام أولو الأمر الذين أمر الله بطاعتهم، وأنهم الشهداء على الناس، وأنهم أبواب الله والسبل إليه، والأدلاّء عليه، وأنهم عيبة علمه، وأركان توحيده، وأنهم معصومون من الخطأ والزّلل، وأنهم الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، وأنّ لهم الدلائل والمعجزات، وأنهم أمان لأهل الأرض، كما أن النجوم أمان لأهل السماء، وأن مثلهم في هذه الأمّة كمثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلّف عنها غرق، وأنهم عباد الله المكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون، وأن حبّهم إيمان وبغضهم كفر، وأنّ أمرهم أمر الله ونهيهم نهي الله، وطاعتهم طاعة الله، ومعصيتهم معصية الله، ووليّهم وليّ الله وعدوّهم عدوّ الله، وأن الأرض لا تخلو من حجة لله على خلقه إما ظاهراً مشهوراً وإما خائفاً مستوراً، وإلا لساخت الأرض بأهلها، وان من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية، وان حجة الله في أرضه وخليفته على عباده في زماننا هذا هو القائم المنتظر محمد بن الحسن العسكريعليه السلام. وأنه هو الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً، وأنه هو الذي يظهر الله به دينه ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، وأنه هو الذي يفتح الله على يديه مشارق الأرض ومغاربها حتى لا يبقى في الأرض مكان إلا نودي فيه بالأذان

---

(١) بحار الأنوار: ج ٩، فضائلهعليه السلام.

ويكون الدين كله لله.

وأنه هو المهدي الذي أخبر النبي ﷺ عنه أنه إذا خرج نزل عيسى ابن مريم عليه السلام يصلّي خلفه. ومن جحد إمامة أحدهم فهو بمنزلة من جحد نبوّة جميع الأنبياء عليهم السلام. قال الإمام الصادق عليه السلام:

«المنكر لآخرنا كالمنكر لأوّلنا»[1].

وعن النبي ﷺ قال:

«من جحد عليّاً إمامته بعدي فقد جحد نبوّتي، ومن جحد نبوتي فقد جحد الله ربوبيته»[2].

والغالي فيهم كالمقصّر بل أشر منهم. وعنهم عليهم السلام:

«هلك فينا رجلان؛ محبّ مفرط ومبغض مفرط»[3].

فمن فضل الله عز وجل علينا ولطفه بنا، وله الحمد أضعاف ما حمده الحامدون، أن جعل لنا إماماً بعد إمام ظاهراً فينا وإن كان مستوراً على أعدائنا، إلى أن انقضى من الهجرة النبوية مائتان وستون سنة، ثم جعل للإمام (عج) سفراء بعد غيبته إلى القريب من تمام ثلاثمائة وثلاثين سنة، كان أصحابنا في هذه المدّة المديدة يأخذون العلوم الدينية ظاهرها وباطنها من معدنها بقدر قابليتهم ورتبتهم ومنزلتهم من اطمئنان القلب وانشراح الصدر، فأغناهم بذلك عن حيرة الحيران.

وبعد انقضاء هذه المدّة وبدء الغيبة الكبرى، كانوا يرجعون إلى الأصول المأخوذة عن أهل البيت عليهم السلام المشتملة على أكثر ما يحتاج إليه الناس، حتى شذّ مسألة لا يكون فيها حكم جزئي أو كلي عنهم عليهم السلام.

---

(١) رواه الصدوق في اعتقاداته: ص ٣٨.

(٢) كمال الدين: ص ٢٢٨.

(٣) بحار الأنوار: ج ٧، ص ٢٤٤.

القسم السادس:
المعاد

حقيقة الموت والمساءلة في القبر والبعث

الموت حق وكل نفس ذائقة الموت إلا أن الإنسان خلق للأبد والبقاء لا للعدم والفناء. فالإنسان لا يعدم بالموت بل يفرّق بين روحه وجسده، وينتقل من دار إلى دار.

قال الله تعالى:

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ﴾[1].

ونادى النبيﷺ يوم بدر على الأشقاء المقتولين:

«يا فلان يا فلان قد وجدتُ ما وعدني ربي حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً، ثم قال: والذي نفسي بيده إنهم لأسمع بهذا الكلام منكم، إلا أنهم لا يقدرون على الجواب»[2].

والمساءلة في القبر حق، كما قال الإمام الصادقعليه السلام:

«من أنكر ثلاثة أشياء فليس من شيعتنا: المعراج، والمساءلة في القبر، والشفاعة»[3].

---

(١) البقرة: ١٥٤.

(٢) صحيح البخاري: ج ٥، ص ٩٧.

(٣) رواه الصدوق في الأمالي: ص ١٧٧.

ولا يسأل إلا من مَحَّض الإيمان محضاً أو محَّض الكفر محضاً، والباقون يُلهى عنهم، وما يُعبأ بهم، فمن أجاب بالصواب فاز بروحٍ وريحان في قبره، وبجنة النعيم في الآخرة.

وأكثر ما يكون عذاب القبر من سوء الخلق والنميمة والاستخفاف بالبول، وهو للمؤمنين كفارة لما بقي عليهم من الذنوب التي تكفرها الهموم والغموم والأمراض وشدة النزع عند الموت.

والبعث بعد الموت حق أيضاً، لاقتضاء عدل الله وحكمته إيصال جزاء التكليف إلى العبيد، والوفاء بالوعد والوعيد، ومؤاخذة الظالم للمظلوم إلى غير ذلك، حيث قال الله تعالى:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾[1].

وقال عز وجل:

﴿إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ... ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾[2].

وقال عزّ اسمه:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ... ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾[3].

---

(١) المؤمنون: ١١٥.

(٢) الحج: ٥ ـ ٧.

(٣) المؤمنون: ١٢ ـ ١٦.

وقال تعالى:

﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾[1].

وقال النبي ﷺ:

«يا بني عبد المطلب إن الرائد لا يكذّب أهله، والذي بعثني بالحق لتموتن كما تنامون ولتبعثنّ كما تستيقظون، وما بعد الموت دار إلا جنّة أو نار»[2].

---

(1) الأنبياء: ١٠٤.

(2) السيرة الحلبية: ج ١، ص ٢٧٢.

الصراط والميزان والحساب

■ الصراط:

إن الصراط حق، وهو جسر ممدود على متن جهنم ينتهي إلى الجنة، وعليه ممرُّ جميع الخلائق، كما قال الله تعالى:

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾[1].

وعن الإمام الصادقعليه السلام قال:

«الصراط أدق من الشعر، وأحدّ من السيف، فمنهم من يمرّ مثل البرق، ومنهم من يمرّ مثل عدو الفرس، ومنهم من يمرّ حبواً، ومنهم من يمر مشياً، ومنهم من يمرّ متعلقاً قد تأخذ النار منه شيئاً وتترك شيئاً»[2].

وقال الإمام الصادقعليه السلام أيضاً:

«الصراط هو الطريق إلى معرفة الله، وهما صراطان؛ صراط في الدنيا، وصراط في الآخرة. فأما الصراط الذي في الدنيا فهو الإمام المفترض الطاعة، من عرفه

---

(١) مريم: ٧١.

(٢) أمالي الصدوق: ص ١٠٧.

في الدنيا واقتدى بهداه مرّ على الصراط الذي هو جسر جهنم في الآخرة. ومن لم يعرفه في الدنيا زلّت قدمه عن الصراط في الآخرة، وتردى في نار جهنم»[1].

أي أن الإمام عليه السلام هو الطريق إلى معرفة الله والهادي إلى سبيله قولاً وفعلاً، فمن عرفه في الدنيا واقتدى بهداه واستنّ بسنّته، واتبع صراطه المستقيم كما قال تعالى: حكاية عن نبينا:

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾[2].

فهو الناجي الذي يمرّ على صراط الآخرة، ومن لم يعرفه ولم يهتد إلى طريقته، ولم يعمل بها فهو الهالك الذي تزلُّ قدمه عن صراط الآخرة.

وعن الإمام الحسن العسكري عليه السلام أنه قال:

«الصراط [المستقيم] في الدنيا ما قصر عن الغلو وارتفع عن التقصير واستقام فلم يعدل إلى شيء عن الباطل»[3].

إذاً فالاستقامة التي لا عدول عنها إلى شيء من طرفي الإفراط والتفريط هي طريقة الإمام عليه السلام.

وعلى الصراط عقبات تسمى بأسماء الأوامر والنواهي؛ كالصلاة والزكاة، وصلة الرحم، والأمانة، وولاية الإمام المفترض الطاعة وغيرها..

---

(١) معاني الأخبار: ص ٣٢، رقم ١.

(٢) الأنعام: ١٥٣.

(٣) معاني الأخبار: ص ٣٣، رقم ٤.

فمن قصّر في شيء منها حبس عند تلك العقبة وطولب بحق الله تعالى فيها، فإن خرج منه عمل صالح يقدّمه أو تداركته الرحمة نجا منها إلى عقبة أخرى. فلا يزال يُدفع من عقبة إلى أخرى، ويحبس ثم يسأل حتى يسلم من جميعها ويصل إلى دار البقاء فيحيى حياة لا موت فيها أبداً، ويسعد سعادة لا شقاوة معها أبداً، وإن لم يسلم زلت به قدمه عن العقبة فتردى في نار جهنم، نعوذ بالله منها.

■ الميزان والحساب:

إن الميزان والحساب حق أيضاً، حيث قال الله تبارك وتعالى:

﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨﴾[1].

وقال عزّ اسمه:

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۝١٠٣﴾[2].

وقال عزّ شأنه:

﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ۝٤٧﴾[3].

وقال الإمام الصادق عليه السلام:

«الموازين القسط هم الأنبياء والأوصياء عليهم السلام»[4].

---

(١) الأعراف: ٨.
(٢) المؤمنون: ١٠٣.
(٣) الأنبياء: ٤٧.
(٤) معاني الأخبار: ص ٣١.

إن الميزان هو المعيار الذي به يعرف قدر الشيء، وارتفاع قدر العباد. وقبول أعمالهم إنما هو بقدر إيمانهم بالأنبياء والأوصياء عليهم السلام، ومحبتهم لهم وطاعتهم إياهم في أقوالهم وأفعالهم وأخلاقهم والاقتفاء لآثارهم.

فالمقبول من الأعمال ما وافق أعمالهم، والمرضي الحسن الجميل من الأخلاق والأقوال ما طابق أقوالهم وأخلاقهم، والحق الصائب السديد من الاعتقادات ما أخذ منهم، فهم عليهم السلام إذن موازين الأعمال.

أما الحساب فهو الذي فيه يكشف الله عز وجل بقدرة وفي لحظة واحدة للخلائق حاصل حسناتهم وسيئاتهم، وهو أسرع الحاسبين. ويأبى الله إلا أن يعرّفهم حقيقة ذلك ليبيّن لهم فضله عند العفو وعدله عند العقاب، فيخاطب عباده جميعاً من الأولين والآخرين بمجمل حساب أعمالهم مخاطبة واحدة يسمع منها كل واحد منهم قضيته دون غيره، ويظن أنه المخاطب دون غيره، حتى يفرغ عز وجل من حسابهم جميعاً في مقدار ساعة من ساعات الدنيا، ويخرج لكل إنسان كتاباً يلقاه منشوراً، ينطق عليه بجميع أعماله لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، فيجعله الله محاسب نفسه والحاكم عليها بأن يقال له:

﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾(١).

فيختم الله على أفواههم وتشهد أيديهم وأرجلهم وجميع جوارحهم على ما كانوا يكسبون. حتى يقولوا لجلودهم: لم شهدتهم علينا؟ قالوا: أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء. فتتطاير الكتب، وتشخص الأبصار إليها لترى أين تقع، أتقع في اليمين أو في الشمال؟

---

(١) الإسراء: ١٤.

أما من أوتي كتابه بيمينه فيقول: هاؤم اقرأوا كتابيه، وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول: يا ليتني لم أوت كتابيه. ثم ينظر إلى الميزان أيميل إلى جانب السيئات أم الحسنات؟ وهل الحسنات ثقيلة أم خفيفة؟ فمن ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية، ومن خفت موازينه فأمّه هاوية، نعوذ بالله منها.

أهوال يوم القيامة والشفاعة

■ أهوال يوم القيامة:

إن كل ما ورد في الشرع من أهوال يوم القيامة وطوله وحرّه وعرق الناس فيه، وازدحامهم، واختصامهم، وبراءة بعضهم من بعض، وفرار المرء من أخيه، وأمّه وأبيه، وصاحبته وبنيه، والسياق، وإحضار الشهداء، والمساءلة، وغير ذلك كما أخبر الله عز وجل عنه في القرآن وأئمة الهدى عليهم السلام في الأخبار المروية عنهم، كلها حق وصدق لا ريب فيه.

قال الإمام الصادق عليه السلام:

«حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا فإن للقيامة خمسين موقفاً كل موقف مقام ألف سنة، ثم تلا: ﴿فِي يَوۡمٍ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٍ﴾»[1].

وعن الإمام زين العابدين عليه السلام:

«إن من كان له عند غيره مظلمة يؤخذ له من حسنات الظالم بقدر حقّه فتزداد على حسناته فإن لم يكن للظالم حسنات يؤخذ من سيئات المظلوم فتزداد على

(١) روضة الكافي: ص ١٤٣.

سيئات الظالم»[1].

وعن النبي ﷺ قال:

«هل تدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس فينا يا رسول الله من لا درهم له ولا متاع. فقال ﷺ: المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وزكاة وصيام ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، وإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم يطرح في النار»[2].

■ الشفاعة:

والشفاعة حق أيضاً وكذلك الحوض. فقد قال النبي ﷺ:

«من لا يؤمن بحوضي فلا أورده الله حوضي، ومن لم يؤمن بشفاعتي فلا أناله الله شفاعتي، ثم قال: إنما شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي، فأما المحسنون فما عليهم من سبيل»[3].

وفي رواية أخرى:

«شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي ما خلا الشرك والظلم»[4].

---

(١) روضة الكافي: ص ١٠٦.
(٢) مسند أحمد: ج ٢، ص ٣٠٣.
(٣) الأمالي: للصدوق، ص ٥.
(٤) الخصال: أبواب السبعة، ج ٢، ص ٩.

وقال ﷺ:

«إن من أمتي من يدخل الجنة بشفاعته أكثر من مُضر»[1].

وقال ﷺ:

«إن حوضي ما بين عدن إلى عمان البلقاء، ماؤه أشد بياضاً من اللّبن وأحلى من العسل، وأكوابه عدد نجوم السماء، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً»[2].

وفي الخبر:

«إنّ الوالي عليه يوم القيامة أمير المؤمنين علي عليه السلام يسقي منه أولياءه ويردّ عنه أعداءه»[3].

---

(1) مسند أحمد: ج ٤، ص ٢١٢.

(2) المصدر السابق: ج ٢، ص ١٣٣.

(3) رواه الصدوق في كتاب اعتقاداته: ص ٨٥.

الجنة والنار

إن الجنة والنار حقّ، وهما مخلوقتان اليوم، بل لا تخرج نفس من الدنيا حتى ترى مكانها من إحداهما.

والجنة دار البقاء ودار السلامة، لا موت فيها ولا هرم ولا مرض ولا سقم ولا آفة ولا غمّ ولا هم ولا حاجة ولا فقر، وهي دار الغناء والسعادة، ودار المقامة والكرامة، لا يمسّ أهلها فيها نصب ولا لغوب، لهم فيها ما تشتهي الأنفس وتلذّ الأعين، وهم فيها خالدون.

ولذّات أهل الجنة متنوعة، منهم المتنعمون بتقديس الله وتسبيحه في جملة الملائكة، ومنهم المتنعمون بأنواع المآكل والمشارب والفواكه والأرائك والحور العين واستخدام الولدان المخلّدين، والجلوس على النمارق والزرابي، ولباس السندس والحرير. فكل واحد منهم إنما يتلذّذ بما يشتهي ويريد على حسب ما تعلّقت عليه همّته، لا يتغوّطون ولا يبولون، وإنما جشأ ورشح كالمسك. يلهمون الحمد والتسبيح كما يلهمون النفس، ويزدادون جمالاً وحسناً كما يزدادون في الدنيا قباحة وهرماً. لها (الجنة) ثمانية أبواب عرض كل باب منها مسيرة أربعمائة سنة. والنار دار الهوان ودار الانتقام من أهل الكفر والعصيان، لا يقضى على أهلها فيموتوا ولا يخفف عنهم من العذاب، ولا يذوقون فيها برداً ولا شراباً إلا حميماً وغسّاقاً، وإن استطعموا أطعموا من الزقوم، وإن استغاثوا أغيثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقاً.

ينادون من مكان بعيد: ربنا أخرجنا منها، فإن عدنا فإنا ظالمون، فيمسك الجواب عنهم أحياناً، وأخرى يقال لهم: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾(١).

﴿وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ﴾(٢).

﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾(٣).

إن الجنّة لأهل الإيمان الذين لم يذنبوا كبيرة، أو تابوا منها، أو أدركتهم الشفاعة، أو نالتهم الرحمة.

والنار لأهل الشرك والكفر والجحود خلوداً. ولأهل الكبائر من المؤمنين الذين ماتوا من غير توبة وروداً من غير خلود لاستحقاقهم الثواب بالإيمان، فيخرجون منها بعد استيفاء عذابهم الذي استحقّوه بالذنوب التي اكتسبوها بالرحمة التي تدركهم والشفاعة التي تنالهم.

ومن وعده الله على عمل ثواباً فهو منجزه البتة ولن يخلف الله وعده، ومن وعده الله على عمل عقاباً فهو بالخيار إن عذّبه فبعدله، وإن عفا عنه فبفضله.

وقد قال الله عز وجل:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾(٤).

وفي الخبر:

---

(١) المؤمنون: ١٠٨.
(٢) الزخرف: ٧٧.
(٣) الحجر: ٤٤.
(٤) النساء: ٤٨.

«إن قسيم الجنّة والنار أمير المؤمنين عليه السلام»[1].

وذلك لأن بحبه وبغضه يمتاز أهل الجنة والنار، فإن حبّه إيمان وبغضه كفر، وإنما خلقت الجنة لأهل الإيمان وخلقت النار لأهل الكفر.

---

(١) بصائر الدرجات: ج٨، الباب ١٢.

القسم الرابع:
التربية العقائدية وأسلوب تقوية الاعتقاد

منهج التربية العقائدية

إن العقيدة ينبغي أن تقدم إلى الصبي في أوّل نشوئه لحفظها حفظاً. ثم لا يزال ينكشف له معناها في كبره شيئاً فشيئاً. فابتداؤه الحفظ، ثم الفهم، ثم الاعتقاد واليقين والتصديق به. وذلك يحصل في البداية عند الصبي بغير برهان، فمن فضل الله سبحانه على قلب الإنسان أن شرحه في أوّل نشوئه على الإيمان من غير حاجة إلى حجّة وبرهان. وكيف ينكر ذلك وجميع عقائد العوام مبادئها التلقين المجرّد والتعليم المحض. نعم قد يكون الاعتقاد الحاصل بمجرّد التقليد غير خال عن نوع من الضعف في البداية، بمعنى أنه يقبل الإزالة بنقيضه لو ألقي إليه، لذا لا بد من تقويته وإثباته في نفس الصبي والعامي حتى يترسخ. وليست طريقة تقويته وتثبيته أن يعلّم صنعة الجدل والكلام، بل من خلال الشغل بتلاوة القرآن وتفسيره وقراءة الحديث ومعانيه، ومن خلال الانشغال بالعبادات ووظائفها، وما يسري إليه من مشاهدة الصالحين ومجالستهم ورؤية سيماهم وسيرتهم وهيئاتهم في الخضوع لله والخوف منه والاستكانة له. فيكون التلقين في الأوّل كإلقاء بذر في الصدر، وتكون هذه الأسباب كالسقي والتربية له حتى ينمو ذلك البذر ويقوى، فترتفع شجرة طيبة راسخة أصلها ثابت وفرعها في السماء.

وينبغي على الإنسان أن يحرس سمعه من الجدل والكلام غاية الحراسة، فإن ما يشوشه الجدل أكثر مما يمهّده، وما يفسده أكثر مما

يصلحه، بل ان تقوية الاعتقاد بالجدل يضاهي ضرب الشجرة بالمدقّة من الحديد رجاء تقويتها بأن يكثر أجزاؤها، ولكن ربما ذلك يفتنها ويفسدها.

والمشاهدة تكفيك في هذا بياناً وبرهاناً، فقس عقيدة أهل الصلاح والتقى من عوام الناس بعقيدة المتكلمين والمتجادلين؛ فترى اعتقاد العامي في الثبات كالطود الشامخ لا تحرّكه الدواهي والصواعق، وعقيدة المتكلّم كخيط مرسل في الهواء تفيّئه الريح مرّة هكذا ومرّة هكذا.

ثم ان الصبي إذا وقع نشوؤه على هذه العقيدة إن اشتغل بكسب الدنيا لم ينفتح له غيرها، ولكنه سلم في الآخرة باعتقاد حق، إذ لم يكلّف الشرع أجلاف العرب أكثر من التصديق الجزم بظاهر هذه العقائد.

أما البحث والتفتيش وتكلّف نظم الأدلّة فلم يكلفوا بها أصلاً، وإن أراد أحدهم أن يكون من سالكي طريق الآخرة وساعده التوفيق حتى اشتغل بالعمل ولازم التقوى، ونهى النفس عن الهوى، واشتغل بالرياضة والمجاهدة انفتحت له أبواب من الهداية تكشف له عن حقائق هذه العقيدة بنور إلهي يقذف في قلبه بسبب المجاهدة تحقيقاً لوعده تعالى حيث قال عزّ اسمه:

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾(١).

وهو الجوهر النفيس الذي هو غاية مقصد الصديقين والمقرّبين، وله درجات بحسب درجات المجاهدة ودرجات طهارة الباطن عما سوى الله تعالى، واستضاءة الباطن بنور اليقين.

---

(١) العنكبوت: ٦٩.

ما ينبغي على عامة الناس الاعتقاد به

إن أقل ما يجب على المكلّف اعتقاده هو ما ترجمه قول: «لا إله إلا الله محمد رسول الله». ثم إذا صدّق الرسول، فينبغي أن يصدّقه في صفات الله واليوم الآخر وتعيين الإمام المعصوم، كل ذلك مما يشتمل عليه القرآن الكريم من غير مزيد وبرهان.

أما في الآخرة؛ فبالإيمان بالجنة والنار والحساب وغيره. . .

وأما في صفات الله؛ فبأنه تعالى حيّ قادر، عالم، مريد، كاره، متكلّم، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير. ولا يجب عليه البحث عن حقيقة هذه الصفات، وان الكلام والعلم وغيرهما حادث أو قديم، بل لو لم تخطر بباله حقيقة هذه المسألة حتى مات؛ مات مؤمناً. ولا يجب عليه تعلّم الأدلّة التي حرّرها المتكلمون، بل مهما خطر في قلبه تصديق الحق بمجرّد الإيمان من غير دليل وبرهان فهو مؤمن. ولم يكلّف رسول الله ﷺ العرب بأكثر من ذلك.

إذاً ينبغي أن يؤمن الإنسان بجميع ما جاء به الشرع إيماناً مجملاً من غير بحث عن الحقيقة والكيفية، وإن لم يعتقد ذلك وغلب على قلبه الشك والإشكال، فإن أمكن إزالة الشك والإشكال بكلام قريب من الأفهام أزيل وإن لم يكن قوياً عند المتكلمين ولا مرضيّاً، فذلك كاف ولا حاجة إلى تحقيق الدليل، فإن الدليل لا يتم إلا بذكر الشبهة

والجواب، وإذا ذكرت الشبهة لا يؤمن أن تتشبث بالخاطر وتنطبع فيه فيظن هذا الشاك أنها حقّة لقصوره عن إدراك جوابها. إذ الشبهة قد تكون جليّة ولكن الجواب دقيق لا يحمله عقله.

ولهذا زجر ضعفاء عامة الناس عن البحث والتفتيش وعن الكلام. أما أئمة الدين فلهم الخوض في غمرة الإشكالات، ومنع العوام من الكلام يشبه منع الصبيان عن شاطئ النهر خوفاً من الغرق. ورخصة الأقوياء فيه تضاهي رخصة الماهر في صنعة السباحة. إلا أن ههنا موضع غرور ومزلّة قدم، وهو أنّ كل ضعيف في عقله يظن أنه يقدر على إدراك الحقائق كلها، وأنه من جملة الأقوياء، فإذ بهم يخوضون ويغرقون بعد حين في بحر الجهالات من حيث لا يشعرون. لذا كان الصواب منع الخلق كلهم إلا الشاذ النادر الذي لا تسمح الأعصار إلا بواحد أو اثنين منهم ممن سلك طريق الإيمان والتصديق بكل ما أنزل الله تعالى وأخبر به رسوله ﷺ.

لذا فمن اشتغل في الخوض فيه فقد أوقع نفسه في شغل شاغل، لذا عندما رأى رسول الله ﷺ أصحابه يخوضون فيه؛ غضب حتى احمرّت وجنتاه وقال:

«أفبهذا أمرتم! تضربون كتاب الله بعضه ببعض؟ انظروا فما أمركم الله به فافعلوا وما نهاكم عنه فانتهوا»[1].

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«فالزم ما أجمع عليه أهل الصفاء والتقى من أصول الدين، وحقائق اليقين والرضا والتسليم ولا تدخل في اختلاف الخلق ومقالاتهم فيصعب عليك. وقد

---

(١) سنن ابن ماجة: ج ١، ص ٣٣.

أجمعت الأمة المختارة بأن الله واحد ليس كمثله شيء، وأنه عدل في حكمه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، ولا يقال له في شيء من صنعته: لِم، ولا كان، ولا يكون شيء إلا بمشيئته، وأنه قادر على ما يشاء، وصادق في وعده ووعيده، وأن القرآن كلامه، وأنّه كان قبل الكون والمكان والزمان، وأن إحداثه وإفناءه غيره سواء، ما ازداد بإحداثه علماً ولا ينقص بفنائه ملكه، عزّ سلطانه وجلّ سبحانه، فمن أورد عليك ما ينقض هذا الأصل فلا تقبله، وجرّد باطنك لذلك ترى بركاته عن قريب وتفوز مع الفائزين»[١].

---

(١) كشف المحجة.

مقدار ما يحتاج إليه من علم الكلام

إن صنعة الكلام هدفها حراسة العقيدة وحفظها من تشويشات المبتدعة بأنواع الجدل، فإن العامي ضعيف يستفزه الجدل، والعلماء متعبدون ومكلفون بالحفاظ على عقائد العوام من تلبيسات المبتدعة.

فالحق أنه لا بد في كل بلد من قائم بهذا العلم لدفع شبه المبتدعة التي أثاروها. ولكن ليس من الصواب تدريسه للعموم كتدريس الفقه والتفسير، فإن هذا العلم مثل الدواء والفقه مثل الغذاء، وضرر الغذاء لا يحذر وضرر الدواء محذور لما ذكرنا فيه من أنواع الضرر.

والعالم به ينبغي أن يخصص بتعليم هذا العلم من كانت فيه ثلاث خصال:

الأولى: التجرد للعلم والحرص عليه؛ فإن المحترف يمنعه الشغل عن الاستتمام وإزالة الشكوك إذا عرضت.

الثانية: الذكاء والفطنة والفصاحة. فإن البليد لا ينتفع بفهمه، والعاجز عن الكلام فلا ينتفع به، بل يخاف عليه من ضرر الكلام ولا يرجى فيه نفعه.

الثالثة: أن يكون في طبعه الصلاح والديانة والتقوى، فلا تكون الشهوات عليه غالبة. فإن الفاسق بأدنى شبهة ينخلع عنه الدين، فلا

يحرص على إزالتها بل يغتنمها ليتخلص من أعباء التكليف، فيكون ما يفسده مثل هذا المتعلم أكثر مما يصلحه. وإذا عرفت هذه الانقسامات اتضح لك أن الحجة المحمودة في الكلام إنما هي من جنس حجج القرآن من الكلمات اللطيفة المؤثرة في القلوب المقنعة للنفوس دون الدخول في التقسيمات والتدقيقات التي لا يفهمها أكثر الناس، وإذا فهموها اعتقدوا أنها شعبذة وصنعة تعلّمها صاحبها للتلبيس.

نعم قد تختلف الأعصار في كثرة الحاجة وقلّتها، ولا يبعد أن يختلف الحكم لذلك. فهذا كله حكم العقيدة التي تعبّد الخلق بها، وحكم طريق النضال عنها وحفظها، وأما إزالة الشُّبَه، وكشف الحقائق ومعرفة الأشياء على ما هي عليه، وإدراك الأسرار التي يترجمها ظاهر ألفاظ هذه العقائد، فلا مفتاح لها إلا المجاهدة، وقمع الشهوات، والإقبال بالكامل على الله، وملازمة الفكر الصافي عن شوائب المجادلات، وهي رحمة من الله تعالى تفيض على من يتعرّض لنفحاتها بقدر الرزق وبحسب التعرّض، وبقدر قبول المحلّ وطهارة القلب، فذلك هو البحر الذي لا يدرك غوره ولا يبلغ ساحله.

وانقسام هذه العلوم إلى خفية وجليّة لا ينكرها ذو بصيرة، وإنما ينكرها القاصرون الذين تلقّفوا أوّل الصبا شيئاً وجمدوا عليه فلم يكن لهم ترقّ إلى غاية العُلى ومقامات العلماء والأولياء، وذلك ظاهر من أدلّة الشرع:

قال النبي ﷺ:

«إن للقرآن ظاهراً وباطناً وحدّاً ومطلعاً»(١).

وقال ﷺ:

---

(١) بحار الأنوار: ج ١٩.

«نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلّم الناس على قدر عقولهم»[1].

وقال ﷺ:

«ما حدّث أحدٌ قوماً بحديث لم تبلغه عقولهم إلا كان فتنة عليهم»[2].

وقال علي عليه السلام وأشار إلى صدره:

«إنّ ههنا علوماً جمّة لو وجدت لها حمَلة»[3].

وقال الله تعالى:

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾[4].

وقال النبي ﷺ:

«لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً»[5].

وقيل: إن للعالم ثلاثة علوم: علم ظاهر يبذله لأهل الظاهر، وعلم باطن لا يسعه إظهاره إلا لأهله، وعلم هو بينه وبين الله لا يظهره لأحد.

---

(١) الكافي: ج ١، ص ٢٣، رقم ١٥.

(٢) صحيح مسلم: ص ٩، المقدمة.

(٣) نهج البلاغة: خ ١٤٧.

(٤) العنكبوت: ٤٣.

(٥) مسند أحمد: ج ٢، ص ٢٥٧.

الأسباب التي تحول دون معرفة الأسرار

إن الأسرار التي يختص المقرّبون بدركها ولا يشاركهم الأكثرون في علمها ويمتنعون عن إفشائها ترجع إلى خمسة أقسام:

الأول: أن يكون الشيء في نفسه دقيقاً تكل أكثر الأفهام عن دركه، فيختص بدركه الخواص، وعليهم أن لا يفشوه إلى غير أهله إذ يصير ذلك فتنة عليهم، كقصر أفهامهم عن إدراك سرّ الروح وبعض الصفات الإلهية. فإن سرّ الروح مما تكلّ الأفهام عن إدراكه وتقصر الأوهام عن تصوّر كنهه. ولذلك كفّ رسول الله ﷺ عن بيانه. ولا تظنن أن ذلك لم يكن مكشوفاً لرسول الله ﷺ، فإن من لم يعرف الروح فكأنه لم يعرف نفسه ومن لم يعرف نفسه كيف يعرف ربّه؟! ولا يبعد أن يكون ذلك مكشوفاً أيضاً لبعض الأولياء والعلماء وإن لم يكونوا أنبياء، ولكنهم يتأدبون بأدب الشرع فيسكتون عما سكت عنه. وكذلك في صفات الله سبحانه من الخفايا ما تقصر أفهام الناس عن دركه ولم يذكر رسول الله ﷺ منها إلا الظواهر وما يناسب الأفهام والقدرة على العلم. والسبب في ذلك أن الإنسان عادة لا يدرك إلا نفسه وصفاته، ثم بالمقايسة مع نفسه يفهم ما يكون لغيره. فليس من قوة البشر إلا أن تثبت لله ما هو ثابت لنفسها من الفعل والعلم والقدرة وغيرها من الصفات مع الاعتراف والتصديق بأن ذلك أكمل وأشرف بالنسبة لله. فيكون معظم تحويم الإنسان على صفات نفسه لا على ما اختص الرب

تعالى به من الجلال، ولذلك قال الرسولﷺ:

«لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك»[1].

وليس المعنى أنني عاجزٌ عن التعبير عما أدركته، بل هو اعتراف بالقصور عن إدراك كنه جلاله.

ولذلك قال الإمام زين العابدينعليه السلام:

«إلهي قصرت الألسن عن بلوغ ثنائك كما يليق بجلالك، وعجزت العقول عن إدراك كنه جمالك، وانحسرت الأبصار دون النظر إلى سبحات وجهك، ولم تجعل للخلق طريقاً إلى معرفتك إلا بالعجز عن معرفتك»[2].

الثاني: القسم الثاني من الخفيات التي يمتنع الأنبياء والصديقون عن ذكرها ما هو مفهوم في نفسه لا يكل الفهم عنه، ولكن ذكره يضرّ بأكثر المستمعين ولا يضرّ بالأنبياء والصديقين، كسرّ القدر الذي منع أهل العلم من إفشائه.

الثالث: أن يكون الشيء بحيث لو ذكر صريحاً لفهم ولم يكن فيه ضرر، ولكن يُكنّى عنه على سبيل الاستعارة والرمز ليكون وقعه على قلب المستمع أغلب، لوجود مصلحة في أن يعظم وقع ذلك في قلبه.

كقول الرسولﷺ: «قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن»[3]، فإذا فتشنا في صدور المؤمنين لم نجد فيها أصابع، فعلم أنها كناية عن القدرة التي هي سرّ الأصابع وروحها الخفي. وكنّي

---

(1) صحيح مسلم: ج ٢، ص ٥١.

(2) الصحيفة السجادية: مناجاة العارفين.

(3) صحيح مسلم.

بالأصابع عن القدرة لأن ذلك أعظم وقعاً في تفهيم تمام المقصود في الاقتدار.

الرابع: أن يدرك الإنسان الشيء جملة، ثم يدركه تفصيلاً بالتحقيق والذوق، فيتفاوت العلمان، فيكون الأول كالقشر والثاني كاللّب، والأوّل كالظاهر والثاني كالباطن. كما يتمثل للإنسان في عينه شخص في الظلمة أو على البعد فيحصل له نوع علم، فإذا رآه من قرب أو بعد زوال الظلام أدرك تفرقة بينهما، ولا يكون الأخير ضد الأول، بل استكمالاً له. وكذلك الأمر في العلم والإيمان والتصديق. فقد يصدّق الإنسان بوجود العشق والمرض والموت قبل وقوعه، ولكن تحققه به عند الوقوع أكمل من تحققه قبل الوقوع. بل للإنسان في العشق وسائر الأحوال ثلاث حالات متفاوتة وإدراكات متباينة:

الأول: تصديقه بوجوده قبل وقوعه.

الثاني: تصديقه به عند وقوعه.

الثالث: تصديقه به بعد تصرّمه.

وكذلك بالنسبة لعلوم الدين ما يصير ذوقاً ثم يكمل فيكون ذلك كالباطن بالإضافة إلى ما قبله.

الخامس: أن يعبّر بلسان المقال عن لسان الحال، فالقاصر الفهم يقف على الظاهر ويعتقده نطقاً، أما البصير بالحقائق فيدرك السرّ فيه.

ومثاله: قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾(١)، فالبليد يعجز عن فهم معنى أن للجماد حياة وعقلاً ونطقاً حتى يقول: سبحان الله،

---

(١) الإسراء: ٤٤.

والبصير يعلم أنه ما أريد به نطق اللسان، بل كونه مسبّحاً بوجوده، ومقدّساً بذاته وشاهداً بوحدانية الله.

وكذلك قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾[1].

فالبليد يعجز عن فهم معنى أن يكون لها حياة وعقلاً وفهماً للخطاب. والبصير يعلم أن ذلك لسان الحال، وأنه نبأ عن كونها مسخّرة بالضرورة ومضطرة إلى التسخير.

وفي هذا المقام لا بد أن نشير إلى أن لأرباب المقامات إسرافاً واقتصاداً، فمن مسرف في دفع الظواهر حتى انتهى إلى تغيير جميع الظواهر أو أكثرها فزعموا أن قوله تعالى: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾[2] وقوله: ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾[3]، وكل المخاطبات التي تجري من منكر ونكير، وفي الميزان والحساب، ومناظرات أهل النار وأهل الجنة وغيرها، زعموا أن كل ذلك إنما هو لسان الحال فقط.

وطائفة أخرى ذهبت إلى الاقتصاد، ففتحوا باب التأويل في كل ما يتعلق بصفات الله تعالى، وتركوا ما يتعلق بالآخرة على ظواهرها ومنعوا من التأويل فيها.

---

(١) فصلت: ١١.
(٢) يس: ٦٥.
(٣) فصلت: ٢١.

طريق معرفة الأسرار وكشفها

إن الأسرار إنما تنكشف للقلب بقدر قوة الإيمان واليقين فيها، وذلك إنما يكون أيضاً بقدر العلم الذي به حياة القلب، وهو نور يحصل في القلب بسبب ارتفاع الحجاب بينه وبين الله جلّ جلاله. قال الله تعالى:

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾(١).

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾(٢).

فليس العلم بكثرة التعلم إنما هو نور يقذفه الله في قلب من يريد الله أن يهديه، وهذا النور قابل للقوة والضعف والاشتداد والنقص كسائر الأنوار، قال الله تعالى:

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾(٣).

﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾(٤).

---

(١) البقرة: ٢٥٧.
(٢) الأنعام: ١٢٢.
(٣) الأنفال: ٢.
(٤) طه: ١١٤.

والإيمان درجات ومنازل فمنه التام ومنه الناقص كما قال الإمام الصادق:

«الإيمان درجات وطبقات ومنازل فمنه التام المنتهي تمامه، ومنه الناقص البيّن نقصانه ومنه الراجح الزائد رجحانه»[1].

وكلما ارتفع حجاب ازداد نور فيقوى الإيمان، ويتكامل إلى أن ينبسط نوره فينشرح صدره ويطّلع على حقائق الأشياء، ويتجلى له الغيب، ويعرف كل شيء في موضعه، فيظهر له صدق الأنبياء عليهم السلام في جميع ما أخبروا عنه إجمالاً وتفصيلاً على حسب نوره وبمقدار انشراح صدره، فتنبعث في قلبه داعية العمل بكل مأمور، والاجتناب عن كل محظور، فيضاف إلى نور معرفته أنوار الأخلاق الفاضلة والملكات الحميدة كما قال الله تعالى بشأنهم:

﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾[2].

وكل عبادة تقع على وجهها الصحيح تورث في القلب صفاءً يجعله مستعداً، لحصول نور فيه وانشراح ومعرفة ويقين، ثم ان ذلك النور والمعرفة واليقين تحمله على عبادة أخرى وإخلاص آخر فيها يوجب نوراً آخر وانشراحاً أتمّ ومعرفة أخرى ويقيناً أقوى وهكذا إلى ما شاء الله جلّ جلاله.

ففي الحديث النبوي الشريف قال صلى الله عليه وآله:

«من علم وعمل بما علم ورّثه الله علم ما لم يعلم»[3].

---

(١) الكافي: ج ٢، ص ٣٨.

(٢) التحريم: ٨.

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية.

وعن علي عليه السلام قال:

«إن الإيمان ليبدو لمعة فإذا عمل العبد الصالحات نما وزاد حتى يبيضّ القلب كلّه، وإن النفاق ليبدو نكتة سوداء فإذا انتهك الحرمات زادت حتى يسودّ القلب كلّه، فيطبع على قلبه، فذلك الختم وتلا: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾[1].

فالعمل يؤثر في نماء الاعتقاد وزيادته، كما يؤثر سقي الماء في نماء الأشجار. ولذلك قال عز وجل: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾[2] وقال: ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾[3] وقال النبي صلى الله عليه وآله:

«الإيمان يزيد وينقص»[4].

وعلّة الزيادة أو النقصان تأثير الطاعات في القلب، وهذا لا يدركه إلا من راقب أحوال نفسه في أوقات المواظبة على العبادة والتجرّد لها بحضور القلب. فمن كان يعتقد في اليتيم معنى الرحمة ثم عمل بموجب اعتقاده فمسح رأسه وتلطّف عليه، أدرك بباطنه تأكد الرحمة وتضاعفها بسبب العمل. وكذلك من كان يعتقد بالتواضع، وعمل بموجب اعتقاده مقبلاً أو ساجداً مثلاً لغيره، أحسّ بالتواضع في قلبه عند إقدامه على الخدمة.

وهكذا جميع صفات القلب، فهي تصدر منها أعمال الجوارح ثم يعود أثر الأعمال عليها فيؤكّدها ويزيدها.

---

(١) بحار الأنوار: ج ١٥، باب آثار الذنوب.
(٢) آل عمران: ١٧٣.
(٣) الفتح: ٣.
(٤) صحيح البخاري: ج ١، ص ١٨.

التفكر

فضيلة التفكر

لقد أمر الله تعالى بالتفكر والتدبّر في كتابه العزيز في مواضع لا تحصى، وأثنى على المتفكرين فقال تعالى:

﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾(١).

وقال ابن عباس: إن قوماً تفكروا في الله عز وجل فقال النبيﷺ:

«تفكروا في خلق الله ولا تتفكروا في الله فإنكم لن تقدروا قدره»(٢).

وعن النبيﷺ:

«أنه خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكرون، فقال: تفكروا في خلقه ولا تتفكروا فيه، فإن بهذا المغرب أرضاً بيضاء نورها بياضها وبياضها نورها، مسيرة الشمس أربعين يوماً، بها خلق من خلق الله عز وجل لم يعصوا الله طرفة عين، قالوا: يا رسول الله فأين الشيطان عنهم. قال: ما يدرون خلق الشيطان أم لا،

---

(١) آل عمران: ١٩١.

(٢) الجامع الصغير.

قالوا: من ولد آدم. قال: لا يدرون خلق آدم أم لا»[1].

وروي عن عائشة:

«ان رسول الله ﷺ قام إلى القربة فتوضأ منها، ثم قام يصلي فبكى حتى بلّ لحيته، ثم سجد حتى بلّ الأرض، ثم اضطجع على جنبه حتى أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح، فقال: يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال ﷺ: ويحك يا بلال ما يمنعني أن أبكي وقد أنزل الله عليّ في هذه الليلة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ ثم قال: ويل لمن قرأها ولم يتفكّر فيها»[2].

وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال:

«التفكر يدعو إلى البرّ والعمل به»[3].

وعن الإمام الصادق عليه السلام:

«أفضل العبادة إدمان التفكر في الله وفي قدرته»[4].

وعن علي عليه السلام قال: «نبّه بالتفكّر قلبك، وجاف عن الليل جنبك، واتقّ الله ربك»[5].

---

(١) الدر المنثور: ج ٢، ص ١١٠.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في التفكر.

(٣) الكافي: ج ٢، ص ٥٥، رقم ٥.

(٤) المصدر السابق: رقم ٣.

(٥) المصدر السابق: ج ٢، ص ٥٤، رقم ١.

وعن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال:

«ليس العبادة بكثرة الصلاة والصوم، إنما العبادة التفكّر في أمر الله تعالى»[1].

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

«أعطوا أعينكم حظّها من العبادة، قالوا: وما حظّها من العبادة يا رسول الله؟ قال: النظر في المصحف والتفكّر فيه والاعتبار عند عجائبه»[2].

وكان لقمان يطيل الجلوس وحده، فكان يمرّ به مولاه فيقول: يا لقمان إنك تديم الجلوس وحدك فلو جلست مع الناس لكان آنس لك، فيقول لقمان: إن طول الوحدة أفهم للفكرة، وطول الفكرة دليل على طريق الجنّة.

ويروى أن الله عز وجل قال في بعض كتبه:

«إني لست أقبل كلام كلّ حكيم، ولكن انظر إلى همه وهواه، فإذا كان همّه وهواه لي جعلت صمته تفكراً وكلامه حمداً وإن لم يتكلم».

وقال البعض:

من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو، ومن لم يكن سكوته تفكراً فهو سهو، ومن لم يكن نظره اعتباراً فهو لهو.

---

(١) الكافي: ج ٢، ص ٥٥، رقم ٤.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب التفكر.

وفـي قـول الله تـعـالـى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾[1].

قال: امنع قلوبهم من التفكّر في أمري.

(١) الأعراف: ١٤٦.

حقيقة التفكر وثمرته

■ معنى التفكر وحقيقته:

إن معنى التفكر هو إحضار معرفتين في النفس ليستثمر منهما معرفة ثالثة. ومثاله: أن من مال إلى العاجلة وآثر الحياة الدنيا وأراد أن يعرف أنّ الآخرة أولى بالإيثار فله طريقان:

ـ **الأول**: أن يسمع من غيره أنّ الآخرة أولى بالإيثار فيقلّده ويصدّقه من غير بصيرة بحقيقة الأمر فيميل بعمله إلى إيثار الآخرة اعتماداً على مجرّد قوله، وهذا يسمى تقليداً ولا يسمى معرفة.

ـ **الثاني**: أن يعرف أنّ الأبقى أولى بالإيثار ثم يعرف أن الآخرة أبقى فيحصل له من هاتين المعرفتين معرفة ثالثة وهي أنّ الآخرة أولى بالإيثار. ولا يمكن تحقق المعرفة بأن الآخرة أولى بالإيثار إلا بالمعرفتين السابقتين، فإحضار المعرفتين السابقتين في القلب للتوصل بها إلى المعرفة الثالثة يسمّى تفكراً واعتباراً وتذكراً ونظراً وتأملاً وتدبراً.

أما التفكر والتأمل والتدبر فعبارات مترادفة على معنى واحد ليس تحتها معان مختلفة.

أما التذكر والاعتبار والنظر فهي مختلفة المعاني وإن كان أصل المسمّى واحداً.

فالاعتبار: ينطلق من إحضار المعرفتين من حيث إنه يعبر منهما إلى معرفة ثالثة.

التذكر: وهو يقع في حال لم يتم العبور من المعرفتين إلى المعرفة الثالثة، بل جرى الوقوف على المعرفتين، فيطلق عليه في هذه الحالة اسم التذكر.

النظر والتفكر: فيقع من حيث ان فيه طلب معرفة ثالثة، فمن ليس يطلب المعرفة الثالثة لا يسمى ناظراً.

الفرق بين التفكر والتذكر:

إن كل متفكّر فهو متذكر وليس كل متذكّر متفكراً، وفائدة التذكر تكرار المعارف على القلب لترسخ وتثبت ولا تنمحي عن القلب، وفائدة التفكر تكثير العلم واستجلاب معرفة ليست حاصلة. فهذا هو الفرق بين التذكر والتفكر.

والمعارف إذا اجتمعت في القلب وازدوجت على ترتيب مخصوص أثمرت معرفة أخرى، فالمعرفة نتاج المعرفة، فإذا حصلت معرفة وازدوجت مع معرفة أخرى حصل منها نتاج آخر وهكذا يتمادى النتاج وتتمادى العلوم ويتمادى الفكر إلى غير نهاية. وإنما ينسدّ طريق زيادة المعارف بالموت أو العوائق. وهذا كله لمن يقدر على استثمار العلوم ليهتدي إلى طريق زيادة المعارف، وطريق التفكر، فأما أكثر الناس فإنما منعوا الزيادة لفقدهم لرأس المال المطلوب وهو المعارف التي منها تستثمر العلوم. كالذي لا بضاعة له فإنه لا يقدر على الربح. وقد يملك البضاعة ولكن لا يحسن صنعة التجارة فلا يربح. فكذلك قد يكون له من المعارف ما هو رأس العلوم ولكنه لا يحسن استعمالها وتأليفها وإيقاع الازدواج المفضي إلى النتاج المطلوب منها.

ومعرفة طريق الاستعمال والاستثمار تارة تكون:

١ ـ بنور إلهي في القلب يحصل بالفطرة كما كان يحصل للأنبياء ﷺ، وذلك عزيز جداً.

٢ ـ وقد يحصل بالتعلم والممارسة، وهو الأكثر.

ثمرة التفكر:

إن المتفكر قد تحضر له هذه المعارف وتحصل له الثمرة وهو لا يشعر بكيفية حصولها ولا يقدر على التعبير عنه لقلّة ممارسته لصناعة التدبير في التعبير. فكم من إنسان يعلم أن الآخرة أولى بالإيثار علماً حقيقياً ولكن لو سئل عن سبب معرفته لم يقدر على إيراده والتعبير عنه مع أنه لم تحصل المعرفة إلا عن المعرفتين السابقتين: وهو أن الأبقى أولى بالإيثار، وأنّ الآخرة أبقى من الدنيا، فتحصل له معرفة ثالثة بأن الآخرة أولى بالإيثار. فرجع حاصل حقيقة التفكر في إحضار معرفتين للتوصل بهما إلى معرفة ثالثة.

وأما ثمرة التفكر فهي: ١ ـ العلوم ٢ ـ والأحوال ٣ ـ والأعمال.

ولكن ثمرتها الخاصة العلم لا غير، نعم إذا حصل العلم في القلب تغيّر حال القلب، وإذا تغيّر حال القلب تغيّرت أعمال الجوارح، فالعمل تابع للحال، والحال تابعة للعلم، والعلم تابع للفكر.

فالفكر هو إذن المبدأ والمفتاح للخيرات كلّها، وهذا هو الذي يكشف لك عن فضيلة التفكر، وانه خير من الذكر والتذكّر، لأن في الفكر ذكراً وزيادة، وذكر القلب خير من عمل الجوارح، بل إن شرف العمل بقدر ما فيه من الذكر.

فإذن التفكر أفضل من الأعمال، ولذلك قيل: تفكّر ساعة خيرٌ من عبادة سنة.

وقيل: هو الذي ينقل من المكاره إلى المحاب ومن الرغبة

والحرص إلى الزهد والقناعة.

وقيل: هو الذي يحدث مشاهدة وتقوى، ولذلك قال تعالى:

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾[1].

وإن أردت أن تفهم كيفية تغيّر الحال بالفكر فمثاله ما ذكرناه من أمر الآخرة، فإن الفكر فيه يعرّفنا أن الآخرة أولى بالإيثار، فإذا رسخت هذه المعرفة يقيناً في القلب تغيّرت القلوب إلى الرغبة في الآخرة والزهد في الدنيا، وهذا ما عنيناه بالحال، إذا كانت حال القلب قبل هذه المعرفة حب العاجلة والميل إليها والنفرة عن الآخرة وقلّة الرغبة فيها، وبهذه المعرفة تغيّرت حال القلب وتبدّلت إرادته ورغبته، ثم أثمر تغيّر الإرادة إعمال الجوارح في الإعراض عن الدنيا والإقبال على أعمال الآخرة.

فههنا خمس درجات:

أولها: التذكر؛ وهو إحضار المعرفتين في القلب.

ثانيها: التفكر؛ وهو طلب المعرفة المقصودة منهما.

ثالثها: حصول المعرفة المطلوبة، واستنارة القلب بها.

رابعها: تغيّر حال القلب عما كان بسبب حصول نور المعرفة.

خامسها: خدمة الجوارح للقلب بحسب ما يتجدد له من الحالة.

فكما تضرب الحجر على الحديد فيخرج منه نار يستضيء بها الموضع فتصير بها العين مبصرة بعد ان لم تكن كذلك، فتنهض الأعضاء للعمل. فكذلك زناد نور المعرفة هو الفكر، فيجمع بين المعرفتين كما يجمع بين الحجر والحديد، ويؤلف بينهما تأليفاً خاصاً، فيتغير القلب

---

(١) طه: ١١٣.

بسبب هذا النور حتى يميل إلى ما لم يكن ليميل إليه. إذن فثمرة الفكر العلوم والأحوال، والعلوم لا نهاية لها، والأحوال التي تتصوّر أن تتقلّب على القلب لا يمكن حصرها أيضاً.

لهذا لو أراد مريد أن يحصي فنون الفكر ومجاريه لم يقدر عليها، لأن مجاري الفكر غير محصورة وثمراته غير متناهية.

مجاري التفكر

ـ إن الفكر قد يجري في:

١ ـ أمر يتعلق بالدين.

٢ ـ أمر يتعلق بغير الدين.

وإنما غرضنا ما يتعلق بالدين، ونعني بالدين المعاملة التي بين العبد وبين الرب تعالى.

ـ وجميع أفكار العبد:

١ ـ إما أن تتعلق بالعبد وصفاته وأحواله.

٢ ـ إما أن تتعلّق بالمعبود وصفاته وأفعاله.

ـ وما يتعلق بالعبد إما أن يكون ناظراً:

١ ـ إلى ما هو محبوب عند الرب تعالى.

٢ ـ إلى ما هو مكروه عند الرب تعالى.

ـ وما يتعلق بالرب تعالى إما أن يكون ناظراً:

١ ـ إلى ذاته وصفاته وأسمائه الحسنى.

٢ ـ إلى أفعاله وملكه وملكوته، وجميع ما في السماوات والأرضين وما بينهما.

وعليه فالتفكر منحصر بهذه الأقسام التي ذكرناها.

تفكر العبد في صفات نفسه وأفعاله

إن الغاية من تفكر الإنسان في صفات نفسه وأفعاله هو تمييز المحبوب منها عن المكروه. إن كل ما هو مكروه عند الله أو محبوب ينقسم إلى:

١ ـ ظاهر: كالطاعات والمعاصي.

٢ ـ باطن: كالصفات المنجية والمهلكة، التي محلّها القلب.

ويجب من كل واحدة من المكاره التفكر في ثلاثة أمور:

الأول: التفكر في أنّه هل هو مكروه عند الله أم لا؟ فربّ شيء لا يظهر كونه مكروهاً بل يدرك بدقيق النظر.

ـ **الثاني**: التفكّر في أنه إن كان مكروهاً فما هو طريق الاحتراز عنه.

ـ **الثالث**: إن هذا المكروه هل هو متّصف به في الحال فيتركه، أو هو متعرّض له في المستقبل فيحترز عنه، أو قارفه فيما مضى فيحتاج إلى تداركه.

ونفس الأمر يجري في المحبوبات، فكل واحدة من هذه المحبوبات تنقسم إلى هذه الأقسام أيضاً، فإذا جمعت هذه الأقسام زادت مجاري التفكر عن المائة. والعبد مدفوع إلى التفكر إما في

جميعها أو أكثرها. وشرح جميع هذه الأقسام يطول لذا نقتصر الآن على أربعة أنواع:

١ ـ الطاعات ٢ ـ المعاصي ٣ ـ الصفات المنجية ٤ ـ الصفات المهلكة.

النوع الأول: المعاصي:

ينبغي على العبد أن يفتش صبيحة كل يوم في جميع أعضائه السبعة تفصيلاً، ثم في بدنه بالجملة، ليرى:

١ ـ هل هو الآن داخل في المعصية فيتركها.

٢ ـ أم أنه داخل فيها منذ فترة، فيتداركها بالترك والندم.

٣ ـ أم أنه سيتعرض لها في نهاره فيستعد للاحتراز والتباعد عنها.

فينظر مثلاً إلى اللسان؛ فإذا وجد أنه متعرّض للغيبة والكذب وتزكية النفس والاستهزاء، والمماراة والممازحة والخوض فيما لا يعني، إلى غير ذلك من المكاره... فعليه:

أولاً: أن يثبت في نفسه أنها أعمال مكروهة عند الله.

ثانياً: يتفكر في شواهد القرآن والسنة على شدة العذاب فيها.

ثالثاً: يتفكر في أحواله وأنه كيف يتعرض لهذه الأعمال المكروهة من حيث لا يشعر.

رابعاً: يتفكر في كيفية الاحتراز منها. وليعلم أنه لا يتم له ذلك إلا بالعزلة والانفراد، أو بأن يجالس صالحاً تقياً ينكر عليه كلما تكلّم بما يكرهه الله، وإلا فليضع حجراً في فيه إذا جالس غيره ليكون ذلك مذكراً له.

فهكذا يكون التفكر في الاحتراز عن المعصية.

ويتفكر في بطنه أنه إنما يعصي الله فيه بالأكل والشرب وذلك:

١ ـ إما بكثرة الأكل من الحلال، فإن ذلك مكروه عند الله، ومقوّ للشهوة التي هي سلاح الشيطان.

٢ ـ وإما بأكل الحرام والشبهة فينظر من أين مطعمه وملبسه ومسكنه ومكسبه، ويتفكر في طرق الحلال ومداخله، ثم يتفكر في وجوه الاكتساب منه ويحترز عن الحرام، ويقدّر في نفسه أن العبادات كلها ضائعة عند الله مع الأكل الحرام، وأن الأكل الحلال هو أساس العبادات كلها.

فهكذا يتفكر في أعضائه كلها، وكلما حصلت بالتفكر حقيقة المعرفة بهذه الأحوال، اشتغل بالمراقبة طوال النهار لكي يحفظ الأعضاء ويبقيها سالمة.

النوع الثاني: الطاعات:

على الإنسان أن ينظر أولاً إلى الفرائض المكتوبة عليه ليرى كيف يؤديها، وكيف يحرسها عن التقصير والنقصان، أو كيف يجبر نقصانها بكثرة النوافل.

ثم يرجع إلى كل عضو فيتفكر في الأفعال التي تتعلق به مما كتبه الله عز وجل عليه فيقول مثلاً:

إن العين خلقت للنظر في ملكوت السماوات والأرض ولكي تعتبر بهذا النظر، ولكي تستعمل في طاعة الله، وتنظر في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. وانني قادر على أن أشغل العين بمطالعة القرآن والسنة فلم لا أفعل ذلك. وأنا قادر على النظر إلى فلان المطيع بعين التعظيم فأدخل السرور على قلبه، وانظر إلى فلان الفاسق بعين الازدراء فأزجره بذلك عن معصيته.

وكذلك يقول في سمعه: إنني قادر على استماع كلام الله أو استماع حكمة وعلم ما، أو استماع قراءة أو ذكر، فمالي أعطّله وقد أنعم الله عز وجل عليّ به وأودعنيه لأشكره!؟ فمالي أكفر نعمة الله فيه بتضييعه وتعطيله؟!

وكذلك يتفكر في اللسان ويقول: إني قادر على أن أتقرّب إلى الله تعالى بالوعظ وبالتودد إلى قلوب أهل الصلاح وبالسؤال عن أحوال الفقراء وإدخال السرور على زيد الصالح وعمرو العالم بكلمة طيبة، وكل كلمة طيبة فهي صدقة.

وكذلك يتفكر في ماله فيقول: أنا قادر على أن أتصدق بهذا المال فإني مستغن عنه، وكلما احتجت إليه رزقني الله مثله، وإن كنت محتاجاً الآن فأنا إلى ثواب الإيثار أحوج مني إلى ذلك المال.

وهكذا يفتش في كل أعضائه وأمواله بل وفي دوابه وغلمانه وأولاده، فإن كل هذه أدوات وأسباب يقدر على أن يطيع الله عز وجل بها، فيستنبط بدقيق الفكر وجوه الطاعات الممكنة بها، ويتفكر فيما يدعوه إلى القيام بتلك الطاعات، فيتفكر في إخلاص النية فيها، ويطلب لها أسباب القبول حتى يزكو بها عمله، وقس على هذا سائر الطاعات.

النوع الثالث: الصفات المهلكة:

إن الصفات المهلكة محلها القلب وعلى المفتكر أن يعرفها وهي: استيلاء الشهوة، والغضب والبخل والكبر والعجب والرياء والحسد وسوء الظن والغفلة والغرور وغير ذلك من الصفات.

فعلى المتفكر أن يتفقد في قلبه هذه الصفات، فإن ظنَّ أن قلبه منزّه عنها، فعليه أن يتفكر في كيفية امتحان قلبه للتأكد من طهارته. فإن النفس تعد الإنسان دائماً بالخير والواقع قد يكون خلاف ذلك. فعليه إذا

ادعت نفسه التواضع والبراءة من الكبر، أن يجرّب نفسه ويمتحنها ليتأكد من ذلك.

وإذا ادعت الحلم عرّض نفسه للغضب ليتأكد، ثم يجرّبها في كظم الغيظ وكذلك في سائر الصفات.

وإذا دلّت العلامات على وجود هذه الصفات الخبيثة فيه، فكر في أسباب قبح هذه الصفات ومنشئها حتى يتبين له أن منشأها:

١ ـ الجهل.

٢ ـ الغفلة.

٣ ـ خبث النية.

فإذا رأى في نفسه عجباً بالعمل فليتفكر ويقول:

إنما عملي هذا أقوم به ببدني وجارحتي وبقدرتي وإرادتي، وكل ذلك ليس مني ولا هو لي، وإنما هو من خلق الله عز وجل، وفضله عليّ، فهو الذي خلقني وخلق قدرتي وإرادتي، وهو الذي حرّك أعضائي بقدرته فكيف أُعجَبُ بعملي أو بنفسي، وليس لنفسي قوام بنفسي.

وإذا أحسّ في نفسه بالكبر اعترف بحماقة نفسه وقال لها: لم ترين نفسك أكبر والكبير هو من كان كبيراً عند الله لا عند الناس، وان ذلك سينكشف بعد الموت.

ويقول لنفسه: إنه كم من كافر يموت متقرباً إلى الله وذلك بنزوعه عن الكفر، وكم من مسلم يموت شقياً بتغيّر حاله عند الموت بسوء الخاتمة. فإذا عرف أن الكبر مهلك وأن أصله الحماقة فيتفكر في العلاج وهو أن يتعاطى أفعال المتواضعين. وإذا وجد في نفسه شهوة الطعام وشرهه، تفكر في أن هذه صفة البهائم، وأنه لو كان في شهوة الطعام والوقاع كمال لكان ذلك من صفات الله وصفات الملائكة كالعلم

والقدرة، ولما اتصفت بهما البهائم. وكلما كان الشره عليه أغلب كان بالبهائم أشبه وعن الملائكة المقربين أبعد.

النوع الرابع: الصفات المنجية:

وهي التوبة والندم على الذنوب والصبر على البلاء والشكر على النعماء والخوف والرجاء والزهد في الدنيا والإخلاص والصدق في الطاعات ومحبة الله عز وجل وتعظيمه والرضا بأفعاله والشوق إليه والخشوع والتواضع له وغيرها...

فيتفكر العبد في كل يوم وليلة في قلبه وما الذي يعوزه من هذه الصفات المقربة إلى الله عز وجل. فإذا افتقر إلى شيء منها فليعلم أنها أحوال لا تثمرها إلى علوم وان العلوم لا تثمرها إلا أفكار. فإذا أراد أن يكتسب لنفسه حال التوبة والندم فليفتش عن ذنوبه أولاً وليتفكر فيها وليجمعها ويعظّمها في قلبه، ثم لينظر في الوعيد والتشديد الذي ورد في الشرع بشأنها، وليعرّف نفسه أنه متعرّض لمقت الله عز وجل به لكي تنبعث فيه حالة الندم.

وإذا أراد أن يستثير من قلبه حال الشكر فلينظر في إحسان الله تعالى إليه وأياديه عليه وفي إرساله جميل ستره عليه.

وإذا أراد حال المحبة والشوق، فليتفكر في جلال الله عز وجل وجماله وعظمته وكبريائه، وذلك من خلال النظر إلى عجائب حكمته وبدائع صنعه.

وإذا أراد حال الخوف فلينظر أولاً في ذنوبه الظاهرة والباطنة، ثم لينظر في الموت وسكراته ثم فيما بعده من سؤال منكر ونكير وعذاب القبر ثم في أهوال النداء عند نفخة الصور، ثم في هول المحشر عند جمع الخلائق على صعيد واحد، ثم في المناقشة في الحساب، ثم في

الصراط ودقته وحدّته، ثم في خطر الأمر عنده انه هل يصرف إلى الشمال فيكون من أصحاب النار أو يصرف إلى اليمين فينزل إلى دار القرار. ثم ليحضر أهوال القيامة في قلبه وهلمَّ جرّا إلى جميع ما ورد في القرآن بشأن اليوم الآخر وأهواله.

وإذا أراد أن يستجلب حال الرجاء فلينظر إلى الجنة ونعيمها وأشجارها وحورها وولدانها ونعيمها المقيم وملكها الدائم. فهكذا يكون طريق الفكر الذي يطلب به العلوم التي إما تثمر الاتصاف بأحوال محبوبة أو التنزّه عن الصفات المذمومة.

برنامج عملي للتفكر

إن المبتدئ ينبغي أن يكون مستغرق الهم في التفكر حتى يعمر قلبه بالأخلاق المحمودة والمقامات الشريفة وينزّه باطنه وظاهره عن المكاره وليعلم أن هذا مع أنه أفضل من سائر العبادات فليس هو غاية المطلب، بل المشغول به محجوب عن مطلب الصديقين وهو التنعم بالفكر في جلال الله وجماله واستغراق القلب بحيث يفنى عن نفسه أي ينسى نفسه وأحواله ومقاماته وصفاته فيكون مستغرق الهم بالمحبوب، كالعاشق الواله عند لقاء حبيبه فإنه لا يتفرّغ للنظر إلى أحوال نفسه وأوصافها، بل يبقى كالمبهوت الغافل عن نفسه، وهو منتهى لذّة العشاق. أما ما ذكرناه فهو تفكر في عمارة الباطن ليصلح للقرب والوصال، فإذا ضيّع العبد جميع عمره في إصلاح نفسه، فمتى يتنعّم بالقرب.

فالفناء في الواحد الحق هو غاية مقصد الطالبين ومنتهى نعيم الصديقين.

فهكذا ينبغي أن تفهم طريق الدين إن كنت من أهل المجالسة، وإن كنت كعبد السوء لا يتحرك إلا خوفاً من الضرب وطمعاً في الأجر، فدونك وإتعاب البدن بالأعمال الظاهرة، فإن بينك وبين القلب حجاباً كثيفاً، فإذا قضيت حقّ الأعمال كنت من أهل الجنة، ولكن للمجالسة قوم آخرون.

فإذا عرفت مجال الفكر التي بين العبد وبين ربّه فينبغي أن تتخذ

ذلك عادتك وديدنك في كل صباح ومساء، فلا تغفل عن نفسك وعن صفاتك المبعّدة عن الله عز وجل، وأحوالك المقرّبة إليه تعالى. بل ينبغي أن يكون لكل مريد جريدة يكتب فيها جملة الصفات المهلكة والصفات المنجية، وجملة المعاصي والطاعات، ويعرض نفسه عليها كل يوم.

ويكفيه في المهلكات النظر في عشرة منها، فإنه إذا سلم منها سلم من غيرها وهي: البخل، الكبر، العجب، الرياء، الحسد، شدّة الغضب، شره الطعام، شره الوقاع، حب المال، وحب الجاه.

ومن المنجيات يكفيه عشرة أيضاً وهي: الندم على الذنوب، الصبر على البلاء، الرضا بالقضاء، الشكر على النعماء، اعتدال الخوف والرجاء، الزهد في الدنيا، الإخلاص في العمل، حسن الخلق مع الخلق، حب الله والخشوع له.

فهذه عشرون خصلة عشر منها مذمومة وعشر محمودة، فليكتبها في جريدته، وكلما كُفي واحدة من المذمومات يخط عليها في جريدته ويدع التفكر فيها، ويشكر الله عز وجل على كفايته إياها وتنزيه قلبه عنها، ويعلم أن ذلك لم يتم إلا بتوفيق الله وعونه، ولو أنه وكله إلى نفسه لم يقدر على محو أقلّ الرذائل عن نفسه، ثم يقبل على التسع البواقي متفكراً. وهكذا يفعل مع كل واحدة حتى يخط على الجميع.

وكذلك فإنه يطالب نفسه بالاتصاف بالمنجيات، حتى إذا اتّصف بواحدة منها كالتوبة والندم مثلاً خط عليها واشتغل بالبواقي. فهذه هي الحال بالنسبة للمريد، أما أكثر الناس من المعدودين من الصالحين فينبغي أن يثبتوا في جريدتهم المعاصي الظاهرة أيضاً، كالأكل بالشبهة وإطلاق اللسان بالغيبة والنميمة والمراء والثناء على النفس والإفراط في معاداة الأعداء وموالاة الأولياء والمداهنة مع الخلق في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فإن أكثر من يعدّ نفسه من وجوه

الصالحين لا ينفك عن جملة من هذه المعاصي في جوارحه، وما لم يطهّر الجوارح من الآثام لا يمكنه الاشتغال بعمارة القلب وتطهيره. بل كل فريق من الناس يغلب عليهم نوع من المعصية فينبغي أن يكون تفقدّهم لها وتفكّرهم فيها لا في معاص هم بمعزل عنها.

■ القرآن هو الذكر الجامع:

انه لا يوجد أنفع من قراءة القرآن بالتفكر، فإنه جامع لجميع المقامات والأحوال، وفيه شفاء للعالمين. ففيه ما يورث الخوف والرجاء والصبر والشكر والمحبة والشوق وسائر الأحوال وفيه ما يزجر عن سائر الصفات المذمومة.

فينبغي أن يقرأه العبد ويردد الآية التي هو محتاج إلى التفكر فيها مرّة بعد أخرى ولو وصل إلى مائة مرّة. فقراءة آية بتفكر وفهم خير من ختمه بغير تدبّر وفهم. وليتوقف في التأمل فيها ولو في ليلة واحدة، فإن تحت كل كلمة منها أسرار لا تنحصر ولا يتوقف عليها إلا بدقيق الفكر في صفاء القلب بعد صدق المعاملة، وكذلك مطالعة أخبار النبيﷺ. فكل كلمة من كلامه بحر من بحور الحكمة ولو تأمّلها العالم حق تأمّله لم ينقطع فيها نظره طول عمره.

فانظر إلى قولهﷺ:

«إن الروح القدس نفث في روعي: أحبب من أحببت فإنك مفارقه، وعش ما شئت فإنك ميّت، واعمل ما شئت فإنك مجزيٌّ به».

فإن هذه الكلمات جامعة حكم الأولين والآخرين، وهي كافية للمتأملين فيها طوال العمر، إذ لو وقفوا على معانيها وغلب اليقين على قلوبهم، لحال بينهم وبين التلفت إلى الدنيا بالكامل.

التفكر في فتنة العالم الورع

إن العالم الورع لا يخلو في غالب الأمر من إظهار نفسه بالعلم وطلب الشهرة، وانتشار الصيت إما بالتدريس أو بالوعظ. ومن فعل ذلك تصدى لفتنة عظيمة لا ينجو منها إلا الصديقون. فإنه إن كان كلامه مقبولاً وحسن الوقع في القلوب، فإنه لن ينفك عن الإعجاب والخيلاء والتزيّن والتصنّع، وذلك من المهلكات. وإن ردّ كلامه لم ينفك عن أنفة وغيظ وحقد على من ردّه.

وقد يلبّس الشيطان عليه ويقول: إن غيظك من حيث انه ردَّ الحقَّ وأنكرَهُ. فإن وجد فرقاً بين أن يرد كلامه أو يردّ كلام عالم آخر، فهو مغرور وضحكة للشيطان. ثم إذا كان له ارتياح بقبول كلامه وفرح بالثناء واستنكف من الردّ والإعراض لم يخل عن تكلّف وتصنّع لتحسين اللفظ والتعبير حرصاً على استجلاب الثناء والله لا يحب المتكلّفين.

والشيطان قد يلبّس عليه الأمر أيضاً فيقول له: إن حرصك على تحسين اللفظ والتكلف فيه لأجل أن ينتشر الحق ويحسن وقعه في القلوب، إعلاء لدين الله عز وجل. فإن كان فرحه بحسن الألفاظ وثناء الناس عليه أكثر من فرَحه بثناء الناس على واحد من أقرانه فهو مخدوع، وإنما هو يدور حول طلب الجاه وهو يظن أن مطلبه هو الدين.

ومهما اختلج ضميره وباطنه بهذه الصفات فإنه سيظهر على ظاهره

ذلك، حتى تجده أكثر احتراماً للموقّر له والمعتقد لفضله ممن يغلو في موالاة غيره، وإن كان هذا الغير مستحقاً للموالاة.

وربما يصل الأمر بأهل العلم إلى أن يتغايروا تغاير النساء، فيشقّ على أحدهم أن يختلف بعض تلامذته إلى غيره، وإن كان يعلم أنه سينتفع ويستفيد منه في دينه. وكل هذا هو رشح الصفات المهلكة المستكنّة في سرّ القلب التي قد يظن العالم أنه ناج منها، وهو مغرور فيها، فينكشف بذلك أن فتنة العالم عظيمة، وهو إما مالك أو هالك.

فمن أحسّ في نفسه بهذه الصفات فالواجب عليه الانفراد والعزلة وطلب الخمول وإعراضه عن الفتاوى مهما سئل. وينبغي أن يتّقي شياطين الإنس عندما يقولون له انه إن لم تتصدَ للفتوى فستندرس العلوم من بين الخلق! وليقل لهم: إن دين الإسلام مستغن عني، فإنه كان معموراً قبلي وكذلك يكون بعدي. ولو مت لم تنهدم أركان الإسلام، فالدين إذا مستغن عني، وأما أنا فلست مستغنياً عن إصلاح قلبي. وأما إفضاء ذلك إلى اندراس الدين فخيال يدل على غاية الجهل. فإن الناس لو حبسوا في السجن وقيّدوا بالقيود وتوعدوا بالنار على طلب العلم، لكان حبّ العلو والرئاسة يحملهم على كسر القيود وهدم حيطان الحصون والخروج منها والاشتغال بطلب العلم.

فالعلم لا يندرس ما دام الشيطان يحبب إلى الخلق الرئاسة، وهو لا يفتر عن عمله إلى يوم القيامة، حتى ينهض لنشره أقوام لا نصيب لهم في الآخرة كما قال النبيﷺ:

«إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم»(١).

---

(١) صحيح البخاري.

وقال ﷺ:

«إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»[1].

فلا ينبغي أن يغترّ العالم بهذه التلبيسات ويشتغل بمخالطة الخلق حتى يتربى في قلبه حب الجاه والثناء والتعظيم، فإن ذلك بذر النفاق كما قال النبي ﷺ:

«حب المال والجاه ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل».

وقال ﷺ:

«ما ذئبان ضاريان أرسلا في زريبة غنم بأكثر فساداً فيها من حب الجاه والمال في دين المرء المسلم»[2].

ولا ينقلع حب الجاه من القلب إلا بالاعتزال عن الناس والهرب من مخالطتهم، وترك كل ما يزيد جاهه في قلوبهم.

فليكن فكر العالم في التفطّن لخفايا هذه الصفات في قلبه، وفي استنباط طريق الخلاص منها، فهذه وظيفة العالم المتّقي. أما أمثالنا فينبغي أن يكون تفكرنا فيما يقوّي إيماننا بيوم الحساب. فما أعمالنا أعمال من يؤمن بالجنّة والنار، فإن من خاف شيئاً هرب منه ومن رجا شيئاً طلبه. ولقد علمنا أن الهرب من النار يكون بترك الشبهات والمحرمات وبترك المعاصي ورغم ذلك فإننا منهمكون فيها. وان طلب الجنة يكون بتكثير نوافل الطاعات ونحن مقصّرون في الفرائض منها، فلم يحصل لنا من ثمرة العلم إلا إنه يقتدى بنا في الحرص على الدنيا والتكالب عليها. حتى يقال: إنه لو كان هذا الأمر مذموماً لكان العلماء

(١) صحيح البخاري.

(٢) رواه أحمد والترمذي.

أونى باجتنابه منا، فليتنا كنا كالعوام إذا متنا ماتت معنا ذنوبنا! فما أعظم الفتنة التي تعرّضنا لها لو تفكّرنا فيها! فنسأل الله عز وجل أن يصلحنا ويصلح بنا ويوفقنا للتوبة قبل أن يتوفانا انه الكريم اللطيف بنا، المنعم علينا.

فهذه هي مجاري أفكار العلماء والصالحين في علم المعاملة، فإن فرغوا منها انقطع التفاتهم عن أنفسهم وارتقوا منها إلى التفكر في جلال الله وعظمته والتنعّم بمشاهدته بعين القلب. ولا يتم ذلك إلا بعد الانفكاك عن جميع المهلكات والاتصاف بجميع المنجيات. وإن ظهر منه شيء قبل ذلك كان مكدّراً ومقطوعاً وكان ضعيفاً كالبرق الخاطف لا يثبت ولا يدوم.

التفكر في جلال الله وعظمته

إن التفكر في عظمة الله وكبريائه فيه مقامان:

المقام الأول: التفكر في ذات الله وصفاته وأسمائه:

إن التفكر في ذات الله وصفاته ومعاني أسمائه وهذا مما منع منه حيث قال النبيﷺ:

«تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله».

وذلك لأن العقول تتحيّر فيه فلا تطيق مدّ البصر إليه إلا الصديقون، ثم انهم رغم ذلك لا يطيقون دوام النظر إليه. بل سائر الخلق أحوال أبصارهم بالإضافة إلى جلال الله كحال بصر الخفاش بالنسبة لنور الشمس، فإنه لا يطيقه البتة، بل يختفي في النهار ويتردد ليلاً لينظر في بقية نور الشمس إذا وقع على الأرض. وأحوال الصديقين كحال الإنسان بالنظر إلى الشمس فإنه يقدر على النظر إليها ولكن لا يطيق دوامه، ويخشى على بصره لو أدام النظر إليها، وكذلك النظر إلى ذات الله عز وجل يورث الحيرة والدهش واضطراب العقل. فالصواب إذاً أن لا يتعرّض الإنسان لمجاري الفكر في ذات الله وصفاته، فإن أكثر العقول لا تحتمله.

بل إن القدر اليسير الذي صرّح به، وهو أن الله عز وجل مقدّس عن المكان، منزّه عن الأقطار والجهات، وانه ليس داخل العالم ولا

خارجه، ولا هو متّصل بالعالم ولا منفصل عنه، قد حيّر عقول أقوام حتى أنكروه، إذ لم يطيقوا سماعه ومعرفته.

بل ضعفت طائفة عن احتمال أقل من هذا إذ قيل لهم: إنه يتعالى عن أن يكون له رأس ورجل ويد وعين، وأن يكون جسماً مشخصاً له حجم ومقدار، فأنكروا ذلك وظنوا أن ذلك قدح في عظمته وجلاله، لأنهم اعتبروا أن الجلال والعظمة في هذه الأعضاء، وهذا لأن الإنسان لم يعرف إلا نفسه ولم يستعظم غيرها. بحيث ان كل ما لا يساويه في صفاته لا يستطيع أن يفهم معنى العظمة فيه. كالذبابة التي قيل لها: انه ليس لخالقك جناحان ولا يد ولا رجل ولا له طيران، فأنكرت ذلك وقالت: كيف يكون خالقي انقص مني، أفيكون لي آلة وقدرة ولا يكون له مثلها وهو خالقي ومصوري؟! وعقول أكثر الخلق قريبة من هذا العقل، وإن الإنسان جهول ظلوم كفّار. ولذلك أوحى الله عز وجل إلى بعض أنبيائه أن لا تخبر عبادي بصفاتي فينكرون ذلك، ولكن أخبرهم عني بما يفهمون.

ولما كان النظر في ذات الله عز وجل وصفاته مخطراً من هذا الوجه، اقتضى أدب الشرع وصلاح الخلق أن لا يتعرّض لمجاري التفكر فيه، ولذلك نعدل إلى المقام الثاني.

المقام الثاني: التفكر في أفعال الله:

إن النظر إلى أفعال الله وعجائب صنعه وبدائع أمره في خلقه فإنها تدل على جلاله وكبريائه وتقدّسه وتعاليه وتدل على كمال علمه وحكمته وعلى نفاذ مشيئته وقدرته. فيكون النظر إلى صفاته من آثار صفاته، لأننا لا نطيق النظر إلى صفاته، كما أننا ننظر إلى الأرض إذا استنارت بنور الشمس ونستدل منها على عظم نور الشمس، لأن نور الأرض من آثار نور الشمس، والنظر في الأثر يدل على المؤثر دلالة ما، وإن كان لا

يقوم مقام النظر في نفس المؤثر. وجميع موجودات الدنيا أثر من آثار قدرة الله تعالى، ونور من أنواره، ووجود الأشياء كلها نور من أنوار ذاته تعالى، إذ ان قوام وجود الأشياء بذاته كقوام نور الأجسام بنور الشمس، فقد جرت العادة أن يوضع طست ماء حتى ترى الشمس فيه ويمكن النظر إليها، فيكون الماء واسطة تخفف قليلاً من نور الشمس حتى يطاق النظر إليها. وكذلك الأفعال فهي واسطة يشاهد فيها صفات الفاعل، فلا يبهرنا نور الذات بعد أن تباعدنا عنه بواسطة الأفعال. فهذا سرّ قوله ﷺ:

«تفكروا في خلق الله ولا تتفكروا في ذات الله».

التفكر في خلق الله

إن كل ما في الوجود مما سوى الله هو فعل الله عز وجل وخلقه. وكل ذرة من الذرات فيها عجائب وغرائب تظهر بها حكمة الله وقدرته وعظمته وجلاله. وإحصاء ذلك غير ممكن لأنه لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي، ولكن نشير إلى جمل منها ليكون ذلك مثالاً لغيره. إن الموجودات المخلوقة منقسمة:

١ ـ إلى ما لا يعرف أصلها فلا يمكننا التفكر فيها وكم من الموجودات التي لا نعلمها كما قال الله سبحانه:

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾[1].

وقال عز وجل:

﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[2].

٢ ـ وإلى ما يعرف أصلها ولا يعرف تفصيلها فيمكننا التفكر في تفصيلها وهي منقسمة إلى:

١ ـ إلى ما أدركناه بحسّ البصر.

---

(١) يس: ٣٦.

(٢) الواقعة: ٦١.

٢ ـ إلى ما لا ندركه بالبصر.

فما لا ندركه بالبصر، كالملائكة والجنّ والشياطين. أما المدركات بحسّ البصر فهي السماوات السبع والأرضون، وما بينهما. والسماوات مشاهدة بكواكبها وشمسها وقمرها وحركتها ودورانها في طلوعها وغروبها، والأرض مشاهدة بما فيها من جبالها ومعادنها وأنهارها وبحارها وحيواناتها ونباتاتها، وما بين السماء والأرض وهو الجوّ المدرك بغيومه وأمطاره وثلوجه ورعده وبرقه وصواعقه وعواصفه وريحه. فهذه هي الأجناس المشاهدة في السماوات والأرض وما بينهما، وكل جنس منها منقسم إلى أنواع، وكل نوع ينقسم إلى أقسام ويتشعب كل قسم إلى أصناف ولا نهاية لانشعاب ذلك وانقسامه في اختلاف صفاتها وهيآتها ومعانيها الظاهرة والباطنة، وجميع ذلك هو من مجالي التفكر. فلا تتحرك ذرّة في السماوات والأرض من جماد ونبات وحيوان وفلك وكواكب إلا وكان محركها هو الله عز وجل، وكان في حركتها حكمة أو أكثر، وكل ذلك شاهد لله تعالى بالوحدانية ودال على جلاله وكبريائه، وهي الآيات الدالة عليه، وقد ورد في القرآن الحث على التفكر في هذه الآيات، كما قال عز وجل:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾[1].

وسنذكر في العناوين القادمة كيفية التفكر في بعض الآيات.

---

(١) آل عمران: ١٩٠.

التفكر في خلق الإنسان

إن من آيات الله تعالى الإنسان، هذا المخلوق من النطفة. فإن أقرب شيء إليك نفسك وفيك من العجائب الدالة على عظمة الله تعالى ما تنقضي الأعمار في الوقوف على عشر عشره وأنت غافل عنها.

فيا من هو غافل عن نفسه وجاهل بها كيف تطمع في معرفة غيرها وقد أمرك الله تعالى بالتدبّر في نفسك حيث قال عزّ اسمه:

﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١﴾[1].

وذكر عز وجل أنك مخلوق من نطفة قذرة فقال:

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝١٧ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۝١٨ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝١٩ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝٢٠ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ۝٢١ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ۝٢٢﴾[2].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ۝٢٠﴾[3].

---

(١) الذاريات: ٢١.

(٢) عبس: ١٧ ـ ٢٢.

(٣) الروم: ٢٠.

وقال عزّ اسمه:

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾[1].

وقال عز وجل:

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٧٧﴾[2].

وقال تعالى:

﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾[3].

ثم ذكر تعالى كيف جعل النطفة علقة والعلقة مضغة والمضغة عظاماً. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝١٤﴾[4].

فتكرار ذكر النطفة في الكتاب العزيز ليس ليسمع لفظها ويترك التأمل في معناها، فانظر الآن إلى النطفة وهي قطرة من الماء قذرة لو تركت ساعة يضربها الهواء فتفسد؛ كيف أخرجها ربّ الأرباب من الصلب والترائب، وكيف جمع بين الذكر والأنثى! وكيف ألقى الأُلفة والمحبة في قلبيهما، وكيف قادهما بسلسلة المحبة والشهوة إلى الاجتماع، وكيف استخرج النطفة من الرجل بحركة الوقاع، وكيف

---

(١) المرسلات: ٢٠ ـ ٢١.

(٢) يس: ٧٧.

(٣) الإنسان: ٢.

(٤) المؤمنون: ١٢ ـ ١٣ ـ ١٤.

استجلب دم الحيض من أعماق العروق وجمعه في الأرحام، ثم كيف خلق المولود من نطفة وسقاه وغذاه ورباه، وكيف جعل النطفة وهي بيضاء علقة حمراء، ثم كيف جعلها مضغة، ثم كيف قسّم أجزاء النطفة وهي متشابهة ومتساوية إلى العظم والأعصاب والعروق والأوتار واللّحم، ثم كيف ركّب من اللحوم والأعصاب الأعضاء الظاهرة، فدوّر الرأس وشق السمع والبصر والأنف والفم وسائر المنافذ، ثم مدّ اليد والرجل وقسّم رؤوسها بالأصابع وقسّم الأصابع بالأنامل، ثم كيف ركّب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة والرحم والمثانة والأمعاء كل واحد منها على شكل مخصوص. ثم كيف قسّم كل عضو من هذه الأعضاء بأقسام أخرى، فركّب العين من سبع طبقات لكل طبقة وصف مخصوص وهيئة مخصوصة لو فقدت طبقة منها أو زالت صفة من صفاتها لتعطلت العين. فلو ذهبنا إلى نصف ما في آحاد هذه الأعضاء من العجائب والآيات لانقضت فيه الأعمار.

فانظر الآن إلى العظام وهي أجسام قوية صلبة كيف خلقها من نطفة سخيفة، ثم جعلها قواماً للبدن وعماداً له.

ولما كان الإنسان محتاجاً إلى الحركة ببدنه وأعضائه لأجل قضاء حوائجه، لم يجعل الله تعالى عظمه عظماً واحداً بل عظاماً كثيرة بينها مفاصل حتى تتيسّر بها الحركة، وقدّر شكل كل واحد منها على وفق الحركة المطلوبة بها، ثم وصل مفاصلها وربط بعضها بالبعض بأوتار أنبتها من أحد طرفي العظم وألصق بالطرف الآخر كالرباط له، ثم خلق في أحد طرفي العظم زوائد خارجة منه وفي الآخر حفراً غائصةً فيه لكي تدخل الزوائد فيها وتنطبق عليها، بحيث لو أراد الإنسان أن يحرك جزءاً من بدنه لم يمتنع عليه، فلولا وجود المفاصل لتعذّر عليه ذلك.

ثم انظر كيف خلق عظام الرأس، وكيف جمعها وركّبها من عظام

مختلفة الأشكال والصور فألف بعضها إلى بعض بحيث استوت به كرة الرأس كما تراه. ثم جعل الرقبة مركّباً للرأس، ثم ركّب الرقبة على الظهر، وركّب الظهر من أسفل الرقبة إلى منتهى العجز في أربع وعشرين خرزة، وركّب عظم العجز من ثلاثة أجزاء مختلفة، ثم وصل عظام الظهر بعظام الصدر وعظام الكتف وعظام اليدين وعظام العانة وعظام العجز ثم عظام الفخذين والساقين وأصابع الرجلين ولا نطول بذكر عدده، ولكن انظر كيف خلق ذلك من نطفة رقيقة. فليس المقصود ذكر أعداد العظام، فإن هذا علم يعرفه الأطباء، وإنما الغرض منها أن ينظر في مدبّرها وخالقها أنه كيف قدّرها ودبّرها وخالف بين أشكالها وأقدارها وخصّصها بهذا العدد المخصوص، بحيث لو زاد عليها واحداً لكان وبالاً على الإنسان فيحتاج إلى قلعه، ولو نقص منها واحداً لكان نقصاناً يحتاج إلى جبره.

فالطبيب ينظر فيها ليعرف وجه العلاج في جبرها، وأهل البصائر ينظرون فيها ليستدلوا بها على جلالة خالقها ومصوّرها، فشتان ما بين النظرين! ثم انظر كيف خلق الله آلات تحريك العظام وهي العضلات، والعضلة هي المركّبة من اللّحم والعصب والرّبط والأغشية وهي مختلفة المقادير والأشكال بحسب اختلاف مواضعها وقدر حاجتها. فلكل عضوّ عضلات بعدد مخصوص وقدر مخصوص. أما أمر الأعصاب والعروق والأوردة والشرايين وعددها ومنابتها وانشعاباتها فأعجب مما ذكرناه، وشرحه يطول وللتفكر مجال في كل واحدة من هذه الأجزاء، ثم في واحد من هذه الأعضاء ثم في جملة البدن.

وكل ما ذكرناه إلى حد الآن نظر إلى عجائب أجسام البدن، وإن عجائب الصفات التي لا تدرك بالحواس لأعظم. فانظر الآن إلى ظاهر الإنسان وباطنه وإلى بدنه وصفاته لترى فيها من الصنعة ما يقضي به

العجب وكل ذلك صنع الله تعالى في قطرة ماء قذرة! فتُرى من هذا صنعه في قطرة ماء فما صنعه في ملكوت السماوات وكواكبها.؟! وما حكمته في أوضاعها وأشكالها ومقاديرها وأعدادها واجتماع بعضها وتفرق بعضها واختلاف صورها وتفاوت مشارقها ومغاربها؟! ولا تظنن أن ذرّة من ملكوت السماوات تنفك عن حكمة وحكم، بل هي أحكم خلقاً وأتقن صنعاً وأجمع للعجائب من بدن الإنسان، بل لا نسبة لجميع ما في الأرض إلى عجائب السماوات، لذلك قال الله تعالى:

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا﴾(١).

فارجع الآن إلى النطفة وتأمل حالها أولاً وما صارت إليه ثانياً وتأمل أنه لو اجتمع الإنس والجن على أن يخلقوا للنطفة سمعاً أو بصراً أو عقلاً أو قدرة أو علماً أو روحاً أو يخلقوا فيها عظماً أو عرقاً أو عصباً أو جلداً أو شعراً؛ هل يقدرون؟ بل لو أرادوا أن يعرفوا كنه حقيقته وكيفية خلقته بعد أن خلق الله تعالى ذلك لعجزوا عنها!!

فهذه نبذة من عجائب بدنك التي لا يمكن استقصاؤها، وهي أقرب مجال لفكرك وأجلى شاهد على عظمة خالقك وأنت غافل عنها مشغول ببطنك وفرجك، ولا تعرف من نفسك إلا أن تجوع فتأكل وتشبع فتنام وتشتهي فتجامع وتغضب فتقاتل، فتشاركك في معرفة ذلك البهائم والسباع. وإنما خاصية الإنسان التي حجبت البهائم عنها هي معرفة الله عز وجل، من خلال النظر في ملكوت السماوات والأرض وعجائب الآفاق والأنفس، إذ بها يدخل العبد في زمرة الملائكة المقربين ويحشر في زمرة النبيين والصديقين مقرّباً من حضرة ربّ العالمين. وليست هذه الرتبة للبهائم ولا للإنسان إذا رضي من الدنيا بشهوات البهائم، بل انه يصير بذلك شراً من البهيمة بكثير، إذ لا قدرة للبهيمة على هذه المعرفة

(١) النازعات: ٢٧.

السامية، أما الإنسان فقد خلق لأجلها، وخلقت له القدرة للوصول إلى ذلك ثم عطلها وكفّر نعمة الله فيها.

فأولئك كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً. وإذا عرفت طريق التفكر في نفسك فتفكر في الأرض التي هي مقرّك ثم في أنهارها وبحارها وجبالها ومعادنها، ثم ارتفع منها إلى ملكوت السماوات.

التفكر في خلق الأرض

من آيات الله عز وجل أن خلق الأرض فراشاً ومهاداً وسلك فيها سبلاً فجاجا، وجعلها ذلولاً لتمشوا في مناكبها، وأرسى فيها الجبال أوتاداً لها تمنعها من أن تميد، ثم وسّع أكنافها حتى عجز الآدميون عن بلوغ جميع جوانبها وإن طالت أعمارهم وكثر طوافهم، فقال عز اسمه:

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَـٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَـٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَـٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾[١].

وقال تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا﴾[٢].

وقال عز وجل:

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾[٣].

وقد أكثر عز وجل في كتابه العزيز ذكر الأرض ليتفكر الإنسان في عجائبها، فظهرها مقرٌ للأحياء وبطنها مقرٌ للأموات. ولذلك قال تعالى:

---

(١) الذاريات: ٤٧ ـ ٤٨.

(٢) الملك: ١٥.

(٣) البقرة: ٢٢.

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾﴾[1].

فانظر إلى الأرض وهي ميتة، فإذا أنزل عليها الماء اهتزّت وربت واخضرّت وأنبتت عجائب النبات وخرجت منها أصناف الحيوان، ثم انظر كيف أحكم جوانب الأرض بالجبال الراسيات، الشوامخ الصمّ الصلاب، وكيف أودع المياه تحتها ففجّر العيون وأسال الأنهار تجري على وجهها، وأخرج من الحجارة اليابسة ومن التراب الكدر ماء رقيقاً عذباً صافياً زلالاً وجعل به كل شيء حياً، فأخرج به أنواع الأشجار والنبات من حبّ وعنب وقضب وزيتون ونخل ورمّان وفواكه كثيرة لا تحصى مختلفة الأشكال والألوان والطعوم والصفات والأرائيح، ففضّل بعضها على بعض في الأكل.

ثم انظر إلى اختلاف طبائع النباتات وكثرة منافعها وكيف أودع الله العقاقير المنافع الغريبة. فهذا النبات يغذي، وهذا يقوي وهذا يحيي وهذا يقتل وهذا يبرّد وهذا يسخن، وهذا يصفي الدم وهذا ينوّم و. . .

فلم ينبت من الأرض ورقة ولا نبتة إلا وفيها منافع لا يقوى البشر على الوقوف على كنهها. ولو أردنا أن نذكر اختلاف أجناس النبات وأنواعها ومنافعها وأحوالها وعجائبها، لانقضت الأيام في وصفها، فيكفيك في كل جنس نبذة يسيرة تدلّك على طريق التفكر في عجائب النبات.

ومن آياته أيضاً الجواهر المودعة تحت الجبال والمعادن الموجودة في الأرض. ففي الأرض قطع متجاورات مختلفة، فانظر إلى الجبال كيف تخرج منها الجواهر النفيسة من الذهب والنحاس والرصاص والحديد وغيرها. . .

---

(١) المرسلات: ٢٥ ـ ٢٦.

وكيف هدى الله تعالى الناس إلى استخراجها وتنقيتها، واتخاذ الأواني والآلات والنقود والحليّ منها.

ثم انظر إلى معادن الأرض من النفط والكبريت والقير وغيرها، وأقلها الملح ولا يحتاج إليه إلا لتطييب الطعام، ولو خلت منه بلدة لتسارع الهلاك عليها.

وانظر إلى رحمة الله تعالى كيف خلق بعض الأراضي سبخة بجواهرها، بحيث يجتمع فيها الماء الصافي من المطر فيصير ملحاً محرقاً.

وما من جماد ولا حيوان ولا نبات إلا وفيه حكمة، إذ ما خلق شيء منها عبثاً ولا لعباً ولا ضائعاً ولا هزلاً، بل خلق الكل بالحق كما ينبغي وعلى الوجه الذي ينبغي، وكما يليق بجلاله وكرمه ولطفه. ولذلك قال تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾[1].

---

(١) الدخان: ٣٨ ـ ٣٩.

التفكر في الحيوانات

ومن آيات الله أصناف الحيوانات وانقسامها إلى ما يطير وإلى ما يمشي، وانقسام ما يمشي إلى ما يمشي على رجلين وإلى ما يمشي على أربع وعلى عشر وعلى مائة، ويشاهد ذلك في بعض الحشرات والديدان. وانقسامها في المنافع والصور، والأشكال والطباع.

فانظر إلى طيور الجوّ وإلى وحوش البرّ وإلى البهائم الأهلية ترى فيها العجائب ما لا تشك معها في عظمة خالقها وقدرة مقدِّرها وحكمة مصوّرها. بل لو أردنا أن نذكر عجائب البقّة أو النملة أو النحلة أو العنكبوت وهي من صغار الحيوانات، في بنائها لبيتها وفي جمعها لغذائها وفي إلفها لزوجها، وفي ادخارها لنفسها وفي حذقها في هندسة بيتها وفي هدايتها إلى حاجاتها لم نقدر.

فترى العنكبوت يبني بيته على طرف النهر فيطلب أولاً موضعين متقاربين بينهما فرجة بمقدار ذراع فما دون حتى يمكنه أن يصل بين طرفي الخيط. ثم يلقي اللّعاب الذي هو خيطه على جانب ليلتصق به فيعود إلى الجانب الآخر فيحكم الطرف الآخر من الخيط، ثم يحكم كذلك ثانياً وثالثاً ويجعل البعد فيما بينها متناسباً تناسباً هندسياً، حتى إذا أحكم معاقد القِمط[1] ورتّب الخيوط وجعل ذلك على شكل شبكة يقع

(١) القِمط: حبل تشد به قوائم الشاة للذبح.

فيها الذباب والبقّ، فيقعد في زاوية مترصداً وقوع الصيد في الشبكة فإذا وقعت الفريسة فيها بادر إلى أخذها وأكلها. وإذا عجز عن الصيد طلب لنفسه زاوية ووصل بين طرفي الزاوية بخيط ثم علّق نفسه فيه بخيط آخر وبقي متنسكاً في الهواء ينتظر ذبابة تطير فإذا طارت ذبابة رمى بنفسه عليها وأخذها وأحكم خيطه على رجلها ثم أكلها.

وما من حيوان صغير ولا كبير إلا وفيه من هذه العجائب ما لا يحصى. أفترى هذا العنكبوت تعلّم هذه الصنعة من نفسه مع أنه لا يشك ذو البصيرة في أنه عاجز مسكين وضعيف!؟ بل ان الفيل العظيم رغم قوته عاجز عن أمر نفسه، فكيف بهذا الحيوان الضعيف! أفلا يشهد هذا الحيوان الصغير بنفسه وشكله وصورته وحركته وهدايته وعجائب صنعته على فاطره الحكيم وخالقه القادر العليم؟! فالبصير يرى في هذا الحيوان الصغير من عظمة الخالق المدبّر وجلاله وكمال قدرته وحكمته ما تتحيّر فيه الألباب والعقول فضلاً عن سائر الحيوانات. وهذا الباب أيضاً لا حصر له فإن الحيوانات وأشكالها وأخلاقها وطباعها غير محصورة، وإنما انقطع تعجب القلوب منها لأنسها بكثرة مشاهدتها.

فإذا رأى حيواناً غريباً ولو دوداً تجده يتعجب فيقول: سبحان الله ما أعجبه! والإنسان أعجب الحيوانات وليس يتعجب من نفسه. بل لو نظر إلى الأنعام التي ألفها ونظر إلى أشكالها وصورها، ثم إلى منافعها وفوائدها من جلودها، وأصوافها، وأوبارها وأشعارها التي جعلها الله لباساً لخلقه وأكناناً لهم في ظعنهم وإقامتهم، وآنية لأشربتهم وأوعية لأغذيتهم، وصوفاً لأقدامهم، وجعل ألبانها ولحومها أغذية لهم، ثم جعل بعضها زينة للركوب، وبعضها حاملة للأثقال وقاطعة للبراري، لأكثر الناظر التعجب من حكمة خالقها ومصوّرها فإنه ما خلقها إلا بعلم محيط بجميع منافعها.

فسبحان من الأمور مكشوفة في علمه من غير تفكر وتأمل وتدبّر، ومن غير استعانة بأحد، فهو العليم الخبير الحكيم القدير. فما للخلق إلا الإذعان لقهره وقدرته، والاعتراف بربوبيّته والإقرار بالعجز عن معرفة جلاله وعظمته. فمن الذي يحصي ثناء عليه؟! بل هو كما أثنى على نفسه، وإنما غاية معرفتنا الاعتراف بالعجز عن معرفته! فنسأل الله عز وجل أن يكرمنا بهدايته بمنّه ورأفته.

التفكر في البحار ومخلوقاتها

ومن آياته تعالى البحار العميقة المكتنفة لأقطار الأرض، حتى غدت جميع البوادي والجبال بالنسبة إلى الماء كجزيرة صغيرة في بحر عظيم.

فتأمل عجائب البحر فإن عجائب ما فيه من الحيوان والجواهر أضعاف عجائب ما نشاهده على وجه الأرض، كما أن سعته أضعاف سعتها.

وما من صنف من أصناف حيوان البرّ من فرس أو طير أو بقر أو. . .، إلا وفي البحر أمثالها وأصنافها. وفيه أجناس لا يعهد لها نظير في البرّ، وقد ذكرت أوصافها في مجلّدات وجمعها أقوام عنوا بركوب البحر وجمع عجائبه.

فانظر كيف خلق الله اللؤلؤ ودوّره في صدفة تحت الماء! وانظر كيف أنبت المرجان من صمّ الصخور، وهو نبات على هيئة شجرة تنبت من الحجر!

ثم تأمل فيما عداه من العنبر وأصناف النفائس التي يقذفها البحر وتستخرج منه! ثم انظر إلى عجائب السفن كيف أمسكها الله تعالى على وجه الماء، وسيّر فيها التجار، وطلاب الأموال، وسخّر لهم الفلك لتحمل أثقالهم، ثم أرسل الرياح لتسوق السفن، ثم عرّف الملاحين

موارد الرياح ومهابها ومواقيتها! والأعجب من ذلك كله ما هو أظهر من كل ظاهر وهو كيفية تكوّن قطرة الماء، الذي به حياة كل ما على وجه الأرض من حيوان ونبات!

فتأمل في عجائب المياه والأنهار والآبار والبحار، ففيها متّسع للفكر، وهي شواهد وآيات ناطقة بلسان حالها، مفصحة عن جلال بارئها، معربة عن كمال حكمته فيها، منادية أرباب القلوب بنغماتها، قائلة: أما تراني وما ترى صورتي وتركيبي وصفاتي ومنافعي واختلاف حالاتي؟! أتظن أني تكوّنت بنفسي أو خلقني أحد من جنسي، أما تستحي أن تنظر في كلمة مرقومة من ثلاثة أحرف فتقطع بأنها صنعة آدمي عالم، قادر، متكلم، ثم تنظر إلى عجائب الخطوط الإلهية المنقوشة على صفحات وجهي بالقلم الإلهي الذي لا تدرك الأبصار ذاته ولا حركته ولا اتصاله.

فإن كنت لا تتعجب من هذه العجائب ولا تفهم منها أن الذي صوّر ونقش وقدّر لا نظير له، ولا يساويه نقّاش ومصوّر، كما أن نقشه وصنعه لا يساويه نقش وصنع، فإن كنت لا تتعجب من هذا فإن عدم تعجّبك أعجب من كل عجب، وان الذي أعمى بصيرتك مع هذا الوضوح ومنعك التبيّن مع هذا البيان جديرٌ بأن تتعجب منه!!

فسبحان من هدى وأضلّ وأغوى وأرشد وأشقى وأسعد وفتح بصائر أحبائه فشاهدوه في جميع ذرات العالم وأجزائه وأعمى قلوب أعدائه واحتجب عنهم بعزّه وعلائه، فله الخلق والأمر والامتنان والفضل واللطف والقهر لا رادّ لحكمه ولا معقّب لقضائه.

التفكر في الهواء والماء

ومن آيات الله الهواء اللطيف المحبوس بين السماء والأرض، الذي يدرك بحسّ اللّمس ولا يرى بالعين.

وإذا حرّك الله الهواء وجعله ريحاً هابّة فإن شاء جعله بشرى بين يدي رحمته كما قال: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾[1]، فيصل بحركته روح الهواء إلى الحيوانات والنبات، فتستعد للنماء، وإن شاء جعله عذاباً على العصاة من خليقته كما قال:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۝١٩ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾[2].

فانظر إلى لطف الهواء ثم شدته وقوته مهما ضغط في الماء، فالزِّقُّ[3] يتحامل عليه الرجل القوي ليغمّسه في الماء فيعجز عنه، والحديد الصلب تضعه على وجه الماء فيرسب فيه، فانظر كيف ينقبض الهواء من الماء بقوته مع لطافته! وبهذه الحكمة أمسك الله عز وجل السفن على وجه الماء..

ثم انظر إلى عجائب الجوّ وما يظهر فيه من الغيوم والرعد والبرق

---

(١) الحجر: ٢٢.

(٢) القمر: ١٩ ـ ٢٠.

(٣) الزق: وعاء من جلد يجز شعره ولا ينتف، للشراب وغيره.

والأمطار والثلوج والشهب والصواعق، وهي من عجائب ما بين السماء والأرض، وقد أشار القرآن إلى جملته في قوله تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝٣٨﴾[1].

والسحاب هو الذي بينهما وقد أشار تعالى إلى تفصيله في مواضع شتّى حيث قال:

﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[2].

فإذا لم يكن لك حظ من هذه الآيات إلا أن ترى المطر بعينك وتسمع الرعد بأذنك فالبهيمة تشاركك في هذه المعرفة! فارتفع إذاً من حضيض عالم البهائم إلى عالم الملأ الأعلى، فقد فتحت عينيك وأدركت ظاهرها فقط، فغمّض عنيك الظاهرة وانظر ببصيرتك الباطنة لترى عجائب باطنها وغرائب أسرارها، وهذا أيضاً باب يطول التفكر فيه!

فتأمل السحاب الكثيف المظلم كيف يتجمع في جوّ صاف لا كدورة فيه، وكيف يخلقه الله عز وجل إذا شاء ومتى شاء، وهو مع رخاوته حامل للماء الثقيل، وممسك في جو السماء إلى أن يأذن الله عز وجل في إرساله. فترى السحاب يرش الماء على الأرض ويرسله قطرات متفاصلة، فتنزل كل قطرة في الطريق الذي رسم لها لا تعدل عنه أبداً حتى تصيب الأرض قطرة قطرة. ولو اجتمع الأولون والآخرون على أن يعرفوا عددها لعجزوا عن ذلك، إذ لا يعلم عددها إلا الذي أوجدها.

ثم إن كل قطرة منها عيّنت لكل جزء من الأرض ولكل حيوان فيها من طير ووحش ودود مكتوب على تلك القطرة بخط إلهي لا يدرك

---

(١) الدخان: ٣٨.

(٢) البقرة: ١٦٤.

بالبصر الظاهر أنها رزق الدودة الفلانية التي هي من ناحية الجبل الفلاني تصل إليها عند عطشها في الوقت الفلاني. هذا مع ما في انعقاد البرد الصلب من الماء اللطيف وفي تناثر الثلوج كالقطن المندوف من العجائب التي لا تحصى!

كل ذلك فضل من الجبار القادر وقهر من الخلاّق القاهر، ما لأحد فيه شركة ولا مدخل، بل ليس للمؤمن من خلقه إلا الاستكانة والخضوع لجلال الله وعظمته. وانظر إلى الماء الثقيل كيف يرقى من أسفل الأشجار إلى أعلى الأغصان حتى ينتشر في جميع أطراف الأوراق، ليغذيها وينميها. فإن كان الماء بطبعه يتحرك إلى الأسفل فكيف تحرّك إلى الأعلى، فإن كان ذلك بجذب فما الذي سخّر ذلك الجاذب، فإن كان ينتهي الأمر في نهاية المطاف إلى خالق السماوات والأرض وجبار الملك والملكوت، فلم لا يحال عليه الأمر من أوّله، فنهاية الجاهل بداية العاقل؟!

التفكر في ملكوت السماوات

من آيات الله ملكوت السماوات وما فيها من الكواكب، فالأرض والبحار والهواء بالنسبة إلى السماوات كقطرة في بحر أو أصغر. فانظر كيف عظّم الله أمر السماوات والنجوم في كتابه، وكم من قسم في القرآن بها كقوله تعالى:

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١﴾[1] ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝٢ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝٣﴾[2].

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ۝٧﴾[3] ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ۝٥﴾[4].

وقوله تعالى:

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١﴾[5] ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ۝١٥ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ۝١٦﴾[6].

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾[7] ﴿۞ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ

---

(١) البروج: ١.

(٢) الطارق: ١ ـ ٢ ـ ٣.

(٣) الذاريات: ٧.

(٤) الشمس: ٥.

(٥) الشمس: ١.

(٦) التكوير: ١٥ ـ ١٦.

(٧) النجم: ١.

ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾[1].

وقد علمت أن عجائب النطفة القذرة عجز عن معرفتها الأوّلون والآخرون، ورغم ذلك لم يقسم الله عز وجل بها، فكيف ظنّك بما أقسم الله عز وجل به، وأحال الأرزاق عليه وأضافها إليه فقال:

﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾[2].

وأثنى تعالى على المتفكرين فيه فقال:

﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[3].

حتى قال النبيﷺ: «ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبلته»[4]، أي تجاوزها من غير تفكر.

وذم الله تعالى المعرضين عن هذه الآية فقال:

﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾[5].

فأي نسبة لجميع البحار والأرض إلى السماء، والسماوات شداد صلاب محفوظات عن التغير إلى أن يبلغ الكتاب أجله، ولذلك سماها الله عز وجل محفوظاً فقال:

﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ﴾[6].

وقال: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾﴾[7].

---

(١) الواقعة: ٧٥ ـ ٧٦.
(٢) الذاريات: ٢٢.
(٣) آل عمران: ١٩١.
(٤) السبلة: ما على الشارب من شعر.
(٥) الأنبياء: ٣٢.
(٦) الأنبياء: ٣٢.
(٧) النبأ: ١٢.

وقال: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾[1].

فانظر إلى الملكوت لترى عجائب العزّ والجبروت، ولا تظنن أن معنى النظر إلى الملكوت أن تمدّ البصر إليه فترى زرقة السماء وضوء الكواكب وتفرّقها، فإن البهائم تشاركك في هذا النظر. وإن كان هذا هو المراد فلم مدح الله تعالى إبراهيم عليه السلام بقوله:

﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[2].

فإن كل ما تدركه بحاسة البصر يعبّر عنه القرآن بالملك والشهادة، وما غاب عن الأبصار يعبّر عنه بالغيب والملكوت. والله تعالى عالم الغيب والشهادة وجبار الملك والملكوت ولا يحيط أحدٌ بشيء من علمه إلا بما شاء، وهو عالم الغيب، فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول، فأطل أيها الغافل فكرك في الملكوت، عسى أن يفتح الله لك أبواب السماء فتجول بقلبك في أقطارها إلى أن يقوم قلبك بين يدي عرش الرحمن فعند ذلك ربما يرجى لك أن تبلغ رتبة من قال: «رأى قلبي ربي». فإن بلوغ الأقصى لا يكون إلا بعد تجاوز الأدنى، وهو على نحو الترتب نفسك أولاً، ثم الأرض التي هي مقرّك وما على وجهها من مخلوقات، ثم السماوات السبع، ثم الكرسي، ثم العرش، ثم الملائكة الذين هم حملة العرش وخزان السماوات، ثم منه تجاوز النظر إلى رب العرش والكرسي والسماوات والأرض وما بينهما. إذاً يوجد بينك وبينه تعالى تلك المسافات الشاسعة والعقبات الشاهقة وأنت لم تفرغ بعد من العقبة القريبة النازلة وهي معرفة ظاهر نفسك! وأنت رغم ذلك صرت تطلق اللسان بوقاحتك وتدّعي معرفة ربك!!

فارفع الآن رأسك إلى السماء وانظر فيها وفي كواكبها، وفي

---

(١) النازعات: ٢٧ ـ ٢٨.

(٢) الأنعام: ٧٥.

دورانها وطلوعها وغروبها وشمسها وقمرها واختلاف مشارقها ومغاربها ودؤوبها في الحركة على الدوام من غير فتور ومن غير تغيّر في سيرها!

بل تجري كلها في منازل مرتبة وبحساب مقدّر لا يزيد ولا ينقص إلى أن يطويها الله عز وجل طي السجّل للكتب.

فتدبر عدد كواكبها وكثرتها واختلاف ألوانها وإلى كيفية أشكالها، ثم انظر إلى مسير الشمس في فلكها في مدّة سنة، ثم إلى طلوع الشمس وغروبها، ولولا هذا الطلوع والغروب لما اختلف الليل والنهار، ولما عرفت المواقيت، ولأطبق الظلام على الدوام أو الضياء على الدوام.

فانظر كيف جعل الله الليل لباساً والنوم سباتاً والنهار معاشاً، وانظر إلى إيلاجه الليل في النهار والنهار في الليل، وانظر إلى إمالته مسير الشمس عن وسط السماء حتى اختلف بسببه الصيف والشتاء والربيع والخريف، فإذا انخفضت الشمس عن وسط السماء في مسيرها برد الهواء فظهر الشتاء، وإذا استوت في وسط السماء اشتد القيظ، وإن كانت فيما بينهما اعتدل الزمان.

وعجائب السماوات لا مطمع في إحصائها إنما هذا تنبيه إلى طريقة التفكر. وأعتقد أنه ما من كوكب من الكواكب إلا ولله تعالى في خلقه حكم كثيرة، وكذا في مقداره وشكله ولونه، ثم في كيفية وضعه في السماء، من ناحية قربه وبعده عن الكواكب الأخرى. فانظر إلى كثرة الكواكب، وإلى سرعة حركتها دون أن تحس أو تشعر بها. فانظر إلى عظم شخصها ثم إلى خفة حركتها، ثم انظر إلى قدرة الفاطر الحكيم كيف أثبت صورتها مع اتساع أكنافها في حدقة العين مع صغرها!

ولا تكتفِ بالنظر إلى السماء مع كثرة كواكبها، بل انظر إلى بارئها كيف خلقها ثم أمسكها من غير عمد ترونها. فكل العالم كبيت والسماء سقفه، فالعجب منك كيف تدخل بيت غني فتراه منقشاً بالصبغ مموّهاً

بالذهب فلا ينقطع تعجبك منه ولا تزال تذكره وتصف حسنه طوال عمرك، وفي المقابل تنظر إلى هذا البيت العظيم، إلى أرضه وسمائه، هوائه وغرائب مخلوقاته، ثم لا تتحدث عنه ولا يلتفت قلبك إليه؟!

فهذا البيت العظيم هو بيت ربك الذي انفرد ببنائه وتزيينه وأنت قد نسيت نفسك وربك واشتغلت ببطنك وفرجك، فليس لك هم إلا شهوتك أو حشمتك، وغاية شهوتك أن تملأ بطنك ولا تقدر على أن تأكل عشر ما تأكله البهيمة، وغاية حشمتك أن يقبل عليك عشرة أو مائة من معارفك فينافقون بلسانهم ويضمرون خبائث الاعتقادات إليك، وإن صدّقوك في مودّتهم إياك فلا يملكون لك ولأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً! وقد يكون في بلدك من أغنياء اليهود والنصارى من يزيد جاهه على جاهك، وقد اشتغلت بهذا الغرور وغفلت عن النظر في جمال ملكوت السماوات والأرض، ثم غفلت عن التنعم بالنظر إلى جلال مَالك المُلك والملكوت!

ومثل عقلك كمثل النملة تخرج من الجحر الذي حفرته في قصر رفيع البنيان حصين الأركان مزيّن بالجواري والغلمان وأنواع النفائس، فإذا خرجت من جحرها ولقيت صاحبها لم تتحدث إلا عن بيتها وغذائها وكيفية ادخارها. أما حال القصر والملك الذي في القصر فهي بمعزل عنه وعن التفكير فيه، بل لا قدرة لها على مجاوزة النظر عن نفسها وغذائها وبيتها.

فكما غفلت النملة عن القصر وعن أرضه وسقفه وسائر بنيانه، فقد غفلت أنت أيضاً عن بيت الله تعالى وعن ملائكته الذين هم سكان سماواته، فلا تعرف من السماء إلا ما تعرفه النملة عن سقف بيتك، ولا تعرف ملائكة السماوات إلا ما تعرفه النملة منك ومن سكان بيتك!

نعم ليس للنملة طريق إلى معرفتك ومعرفة عجائب قصرك، أما أنت فلك القدرة على التجول في الملكوت والتعرف على عجائبه.

ولنقبض عنان الكلام عن هذا النمط فإنه مجال لا نهاية له، ولو استقصينا أعماراً طويلة لم نقدر على شرح ما تفضّل الله عز وجل به علينا بمعرفته، وكل ما عرفناه قليل ونزر حقير بالإضافة إلى ما عرفه جملة الأولياء والعلماء، وما عرفوه قليل بالإضافة إلى ما عرفه نبيناﷺ، ثم ان جميع علوم الملائكة والجن والانس إذا أضيفت إلى علم الله سبحانه وتعالى لم تستحق أن تسمّى علماً، نعم هي أقرب إلى الدهش والحيرة والعجز والقصور، فسبحان من عرّف عباده ما عرّف ثم قال مخاطباً:

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾[1].

فهذا بيان معاقد الآيات التي جال فيا المتفكرن في خلق الله عز وجل، وليس فيها فكر في ذات الله، ولكن يستفاد من التفكر في الخلق معرفة الخالق، ومعرفة عظمته وجلاله وقدرته.

وكلما استكثرت من معرفة عجيب صنع الله كانت معرفتك بجلاله وعظمته أتم. وهذا كتعظيمك عالماً ما بسبب علمه أو تصنيفه، فتزداد به معرفة وتوقيراً واحتراماً، حتى تزيده كل كلمة من كلماته محلاً في قلبك.

فتأمل في خلق الله وصنعه، إذ ان كل ما في الوجود من خلق الله وتصنيفه، والنظر والتفكر فيه لا ينتهي أبداً، وإنما لكل عبد منها بقدر ما رزق.

---

(١) الإسراء: ٨٥.

فكل ما في هذا الوجود فعل الله تعالى ولله فيه حكم يضل بها من يشاء ويهدي بها من يشاء، فمن نظر في هذه الأمور من حيث انها فعل الله تعالى وصنعه؛ استفاد منها المعرفة بجلال الله وعظمته واهتدى به، ومن نظر فيها قاصراً النظر عليها من حيث تأثير بعضها في بعض لا من حيث ارتباطها بمسبب الأسباب فقد شقي وتردَّى، فنعوذ بالله من الضلال، ونسأله أن يجنّبنا مزلّة أقدام الجهال بمنه وفضله إنه على كل شيء قدير.

الفهرس

العلم

فضيلة العلم في القرآن الكريم ٧
فضيلة العلم في الروايات الشريفة ١١
العلم هو الهدف من خلق العالم ٢٤
العلم مطلوب لذاته ولغيره ٢٨
العلم الذي هو واجب عيني على الجميع ٣٠
بيان العلم الذي هو واجب كفائي ٣٣
العلوم غير الشرعية ٣٣
العلوم الشرعية ٣٤
علم الفقه ٣٧
علم الآخرة ٤١
١ ـ علم المكاشفة ٤١
٢ ـ علم المعاملة ٤٦
علم الفلسفة والكلام ٤٩
العلوم المذمومة وأسباب ذمها ٥٣
السبب الأول ٥٣
السبب الثاني ٥٤

السبب الثالث ٥٧
بيان ما بدّل من ألفاظ العلوم ٥٩
اللفظ الأول: الفقه ٥٩
اللفظ الثاني: العلم ٦٠
اللفظ الثالث: التوحيد ٦١
اللفظ الرابع: الذكر ٦٣
١ ـ القصص ٦٣
٢ ـ الشعر ٦٤
٢ ـ الشطح ٦٥
٣ ـ الطامّات ٦٧
سبب إقبال الناس على المناظرة ٧٠
شروط المناظرة وآدابها ٧٢
آفات المناظرة ٧٥
١ ـ الحسد ٧٥
٢ ـ الكبر والترفع عن الناس ٧٦
٣ ـ الحقد ٧٦
٤ ـ الغيبة ٧٧
٥ ـ تزكية النفس ٧٧
٦ ـ التجسس وتتبع عورات الناس ٧٨
٧ ـ الفرح بمساءة الناس والغم بما يسرّهم ٧٨
٨ ـ الاستكبار عن الحق وكراهته والحرص على المماراة ٧٩
٩ ـ الرياء ٧٩
آداب المتعلّم ووظائفه ٨٤
آداب المعلّم ووظائفه ٩٤

علماء السوء في الآيات والروايات ١٠٠
علامات علماء الآخرة ١٠٨
١ ـ أن لا يطلب الدنيا بعلمه ١٠٨
٢ ـ أن لا يخالف قوله فعله ١١٠
٣ ـ أن تكون عنايته بتحصيل العلم النافع في الآخرة ١١٣
٤ ـ أن يؤثر الاقتصاد ويترك الترفه والتنعم ١١٥
٥ ـ عدم اتباع السلاطين ومخالطتهم ١١٨
٦ ـ أن لا يكون متسارعاً في الإفتاء ١٢١
٧ ـ أن يكون مهتماً بعلم الباطن ١٢٢
٨ ـ أن يكون شديد العناية بتقوية اليقين ١٢٣
٩ ـ أن يكون من أهل الخشية والسكينة ١٢٦
١٠ ـ أن يكون مهتماً بعلم الأعمال وطهارة القلب ١٢٩
١١ ـ أن يكون مهتماً بمعرفة الأسرار والحكم ١٣٠
١٢ ـ أن يكون شديد الحذر من محدثات الأمور ١٣٠
شرافة العقل في الروايات ١٣٢
أقسام العقل ومعانيه ١٣٩
تفاوت الناس في العقل ١٤٣

قواعد العقائد:
القسم الأول:
كيفية التخلص من بدع أهل الأهواء

علاقة الشرع بالعقل ١٤٧
النبي هو الهادي لطريق الحق ١٥١
أهل البيت خلفاء النبي في الهداية ١٥٣
السكوت عما لم يرد بيانه في الشرع ١٦٣

القسم الثاني:
التوحيد

التوحيد في القرآن والروايات ١٦٩
التوحيد أمرٌ فطري ١٧٥
الله تعالى واحد لا شريك له ١٧٨
الله تعالى فرد لا ندّ له ولا نظير ١٨٠
كل الأشياء سواء إلى الله علماً، قدرة وإحاطة ١٨٢
الله تعالى منزّه عن الأشباه والأنداد ١٨٥

القسم الثالث:
العدل

الله منزّه عن الظلم وفعل القبيح ١٩١
لا يكلف الله نفساً ما لا تطيقه ١٩٣
الله لا يفعل إلا ما فيه مصلحة العباد ١٩٦

القسم الرابع:
النبوّة

ضرورة وجود النبي ٢٠١
الأنبياء معصومون عن الخطأ والزلل ٢٠٣
النبي وأهل بيته أفضل خلق الله ٢٠٥
القرآن معجزة الرسول الخالدة ٢٠٧

القسم الخامس:
الإمامة

ضرورة وجود الإمام ٢١٣
الإمام ينبغي أن يكون أفضل أهل زمانه ٢١٧

أسباب الاختلاف على أمر الخلافة ٢١٩
أسماء الأئمة الواجبي الطاعة بعد النبي ﷺ ٢٢٦

القسم السادس:
المعاد

حقيقة الموت والمساءلة في القبر والبعث ٢٣٣
الصراط والميزان والحساب ٢٣٦
■ الصراط ٢٣٦
■ الميزان والحساب ٢٣٨
أهوال يوم القيامة والشفاعة ٢٤١
■ أهوال يوم القيامة ٢٤١
■ الشفاعة ٢٤٢
الجنة والنار ٢٤٤

القسم الرابع:
التربية العقائدية وأسلوب تقوية الاعتقاد

منهج التربية العقائدية ٢٤٩
ما ينبغي على عامة الناس الاعتقاد به ٢٥١
مقدار ما يحتاج إليه من علم الكلام ٢٥٤
الأسباب التي تحول دون معرفة الأسرار ٢٥٧
طريق معرفة الأسرار وكشفها ٢٦١

التفكر

فضيلة التفكر ٢٦٧
حقيقة التفكر وثمرته ٢٧١
■ معنى التفكر وحقيقته ٢٧١

ثمرة التفكر ٢٧٣
مجاري التفكر ٢٧٦
تفكر العبد في صفات نفسه وأفعاله ٢٧٧
النوع الأول: المعاصي ٢٧٨
النوع الثاني: الطاعات ٢٧٩
النوع الثالث: الصفات المهلكة ٢٨٠
النوع الرابع: الصفات المنجية ٢٨٢
برنامج عملي للتفكر ٢٨٤
■ القرآن هو الذكر الجامع ٢٨٦
التفكر في فتنة العالم الورع ٢٨٧
التفكر في جلال الله وعظمته ٢٩١
التفكر في خلق الله ٢٩٤
التفكر في خلق الإنسان ٢٩٦
التفكر في خلق الأرض ٣٠٢
التفكر في الحيوانات ٣٠٥
التفكر في البحار ومخلوقاتها ٣٠٨
التفكر في الهواء والماء ٣١٠
التفكر في ملكوت السماوات ٣١٣
الفهرس ٣٢١